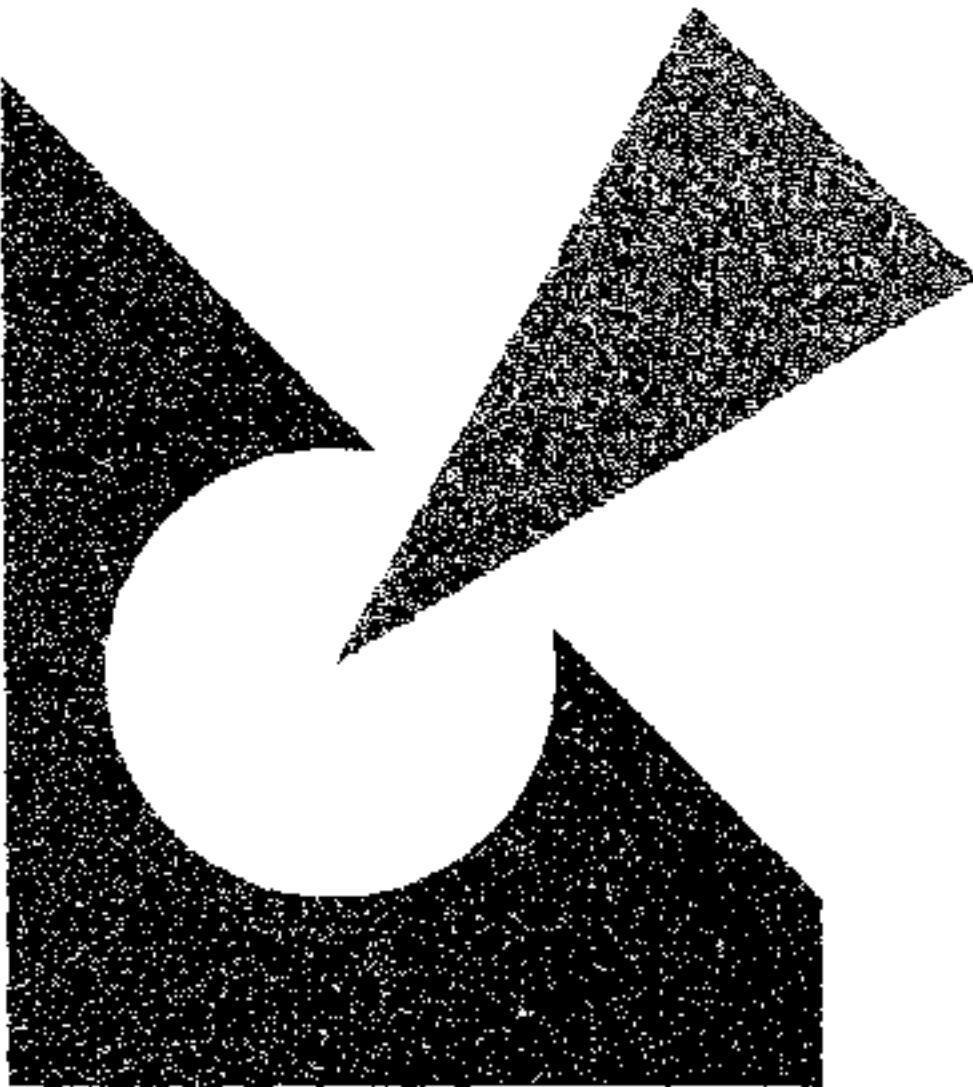




کارل بوبر

المجتمع المفتوح والعقلانية



ترجمة
د. السيد نفادي

MOHAMMED KHATAB



اهداءت ٢٠٠٣

سرة المرحوم الأستاذ/محمد سعيد البصري

الإسكندرية

<https://t.me/kotokhatab>

المجمع المفتوح والعلاء

يتضمن هذا الكتاب الترجمة الكاملة للنص الإنجليزي :

K. R. POPPER: THE OPEN SOCIETY AND ITS ENEMIES

Volume I: THE SPELL OF PLATO

الناشر الإنجليزي الأصلي :

ROUTLEDGE & KEGAN PAUL LONDON AND NEWYORK 1986

اسم المؤلف : كلود بوبر .

اسم المترجم : د. السيد تقادي .

عنوان الكتاب : للمجتمع المقترح وأعدائه . I .

– أحاجي أفلاطون –

الناشر : دار التنوير للطباعة والنشر – لبنان .

الطبعة العربية الأولى : 1998 .

جميع الحقوق محفوظة .

التنفيذ الضوئي : فرح للجمع التصويري .

تدقيق النص : محمد أحمد الحسيني .

تصميم الغلاف : منى العيوي .

خطوط الغلاف : مصطفى العمري .

أفلام الغلاف : رينو كمبيوتر تكنولوجي .

All rights reserved . No parts of this Book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission in writing of the publisher.

كارل بربر

المجمع المفتوح والعلاء

ترجمة
د. السيد نفادي



مقدمة الطبعة الأولى

إذا كان قد ورد في هذا الكتاب بعض الكلمات القاسية التي تعرضت بها لكبار قادة الفكر الإنساني، فإنني أرجو ألا يُعتقد أن يكون دافعي إلى ذلك هو التقليل من شأنهم، وإنما دافعي إلى ذلك هو يقيني بأن حضارتنا إذا ما أُريد لها أن تبقى وتستمر، فينبغي أن نطلع عن عادة الدفاع الأعمى عن أولئك المفكرين العظماء. فهؤلاء الرجال العظماء ليسوا معصومين من الخطأ، ويحاول هذا الكتاب أن يبرز أن هؤلاء القادة العظماء قد دعموا، في الماضي، المعركة الأبدية بين الحرية والعقل. إن تأثيرهم الذي لم يجد من يتحداه إلا نادراً قد استمر في تضليل أولئك الذين كان دفاعهم عن الحضارة يستند إلى، ويتوقف على تفرقهم. وربما تصبح مسؤولية هذا التفرق المأساوي من نصيبنا لو ترددنا في التصريح بانتقاد ما هو مسلم به من تراثنا الثقافي. فقد يؤدي نفورنا من انتقاد بعض من هذا التراث، إلى القضاء عليه جميعه.

والكتاب إنما هو مدخل تقدي لفلسفة السياسة والتاريخ، وهو فحص لبعض مبادئ إعادة البناء الاجتماعي. أما فيما يتعلق بالرامي التي يسعى إليها أو بالملاحظات التي يتبناها فكل ذلك مذكور في المقدمة. وإذا بدا للقارئ أن موضوعاته تعود إلى الماضي، فإنني أؤكد أن مشكلاته هي مشكلات عصرنا الحالي، ولقد بذلت قصارى جهدي في عرض هذه المشكلات بأكبر قدر ممكن من البساطة، يحدوني في ذلك أمل في أن أكون قد وفقت إلى توضيح المسائل التي تهتمنا جميعاً. ومع أن الكتاب لا يفترض مسبقاً أي شيء سوى تفتح عقل القارئ، فإن هدفه ليس تبسيط المسائل المطروحة بغرض حلها. ومع ذلك، ففي محاولة لخدمة هذين الغرضين، فقد حصرت كل المسائل التي تهتم المتخصص في الهوامش التي وضعتها في نهاية الكتاب*.

1943

* نظراً لأن الهوامش لا تهتم سوى المتخصصين، كما يلحظ إلى ذلك بوير، فضلاً عن أنها تحتل مساحة كبيرة من الكتاب؛ فإنني لم أقم بترجمتها، متمنياً أن تنال لي فرصة ترجمتها في طبعة تالية. (المترجم)

مقدمة الطبعة الثانية

على الرغم من أن الكثير مما هو موجود في هذا الكتاب كان قد تبلور في مرحلة أسبق، إلا أن القرار النهائي على كتابته كان قد أُتخذ في مارس من العام 1938، وفي نفس اليوم الذي استقبلت فيه أخبار غزو النمسا. وقد امتدت كتابته حتى العام 1943، وحقيقة أن معظم الكتاب كان قد كتب أثناء السنوات القائمة التي كانت فيها نتيجة الحرب غير مؤكدة، قد تساعد على فهم لماذا تستوقفني اليوم بعض انتقاداته باعتبارها انفعالية وشديدة اللهجة عما كنت أود. ولكن هذا الزمن لم يكن زمن الألفاظ المتقاة - أو على الأقل، هذا ما كنت أشعر به آنذاك. ولم تكن الحرب أو أي حادث آخر معاصر، مشار إليه صراحة في الكتاب، وإنما كانت محاولة لفهم تلك الأحداث وخلفيتها، وبعض المسائل التي كان من المحتمل أن تنشأ بعد أن تُكسب الحرب. والتوقع بأن الماركسية سوف تصبح مشكلة رئيسية، كان هو السبب في معالجتها بإسهاب إلى حد ما.

وفي إطار ضبابية الموقف العالمي الراهن آنذاك، فإنه يمكن النظر إلى نقد الماركسية الذي ورد في الكتاب باعتباره الموضوع الأساسي فيه. هذه الرؤية ليست خاطئة في إجمالها، وربما لم يكن من الممكن تجنبها، على أن أهداف الكتاب أوسع بكثير من ذلك. إذ كانت الماركسية إحدى المراحل فقط، واحدة من الأخطاء الكثيرة التي اقتصرت في النضال الدائم والخطير من أجل بناء عالم أفضل وأكثر تحرراً.

وكما توقعت، فقد نالني تأنيب البعض لكوني كنت صارماً أكثر من اللازم تجاه ماركس، في حين أشار آخرون إلى تساهلي تجاهه بالمقارنة بعنف هجومي على أفلاطون. ولكنني لازلت أشعر بالحاجة إلى فحص أفلاطون بعيون نقدية أكثر حدة، بسبب أن الافتتان العام به "الفيلسوف المقدس" كان له أساس حقيقي في إنجازاته الذهني الغامر. أما ماركس، من جانب آخر، فقد هوجم مرات عديدة على أسس شخصية وأخلاقية، مما دفعني إلى أن أوجه نقلاً عقلياً قاسياً لنظرياته، مقروناً بتفهم متعاطف لرونتقها المدهش على المستويين الأخلاقي والذهني. ولقد شعرت، سواء كنت في ذلك على صواب أو على خطأ، أن نقدي له كان مدمراً، وأنه كان يمكنني نتيجة لذلك البحث عن الإسهامات الحقيقية لماركس، وأن أعفي دوافعه من الشبهة.

وعلى أية حال، من الواضح أننا لو رغبتا في مواجهة الخصم بنجاح، فيتعين أن نحاول

تقييم قدرته . (ولقد أضفت في العام 1965 ملاحظة جديدة حول هذا الموضوع في الملحق 2 من الجزء الثاني .)

ولكن لا يمكن لكتاب أن ينتهي على الإطلاق . فأتناء العمل فيه نتعلم بما فيه الكفاية أنه في تلك اللحظة التي نقرر فيها الانصراف عنه، نجده غير ناضج . وفيما يتعلق بنقدي لأفلاطون وماركس، فقد كانت هذه التجربة المحترمة أكثر إزعاجاً لي من المعتاد . ولكن معظم اقتراحاتي الإيجابية، وأهمها الشعور القوي بالفضائل الذي يعم مجمل الكتاب، قد بدت لي أكثر وأكثر سداجة مع مرور سنوات ما بعد الحرب . وبدأ صوتي يتردد صدىه بالنسبة لي كما لو كان آتياً من الماضي السحيق - كصوت أحد المصلحين الاجتماعيين المقعنين بالأمل من القرن الثامن عشر أو حتى التاسع عشر .

بيد أن شعوري بالإحباط قد ولى، وسبب ذلك على الأرجح هو زيارتي للولايات المتحدة . ويغمرني الآن شعور بالسعادة، لأنني عند مراجعة الكتاب اكتفيت بإضافة مادة جديدة ويتصويب بعض أخطاء في مضمونه وأسلوبه، ولأنني قاومت إغراء تعديل نبرته وذلك لأنني أشعر بالأمل أكثر من أي وقت مضى، على الرغم من الوضع الدولي الراهن .

وإنني أرى الآن، بشكل أوضح من أي وقت مضى، أنه حتى أعظم متاعبنا قد تنشأ من شيء يدعو للإعجاب والاقتناع بقدر ما هو خطير - ألا وهو تلهفنا لتحسين أحوال مواطنينا . . ذلك لأن تلك المتاعب إنما هي نواتج لما يمكن أن يكون أعظم الثورات الأخلاقية والروحية في التاريخ، وهي حركة بدأت منذ أكثر من ثلاثة قرون . إنها رغبة العديد والعديد من البشر المجهولين في تحرير أنفسهم وأذهانهم من هيمنة السلطة والأفكار المهيمنة . إنها محاولاتهم بناء مجتمع مفتوح يلفظ السلطة المطلقة لما هو قائم ولما هو تقليدي مع محاولة المحافظة على، وتطوير الموروثات القديمة والحديثة التي ترقى إلى مستويات الحرية والإنسانية والنقد العقلاني التي يرتضونها . إنها رفضهم التقاعس وترك المسؤولية الكاملة لحكم العالم إلى سلطة بشرية أو فوق بشرية، واستعدادهم لتحمل عبء المشاركة في المسؤولية والعمل على تفادي المعاناة . ولقد أدت هذه الثورة إلى خلق قوى تدميرية هائلة، ولكن قد يمكن السيطرة عليها .

1950

مدخل

لا أبتغي إخفاء حقيقة أنني ليس بمقدوري سوى أن أتطلع باشمئزاز . .
إلى إدعاء كل هذه المجلدات المتفخخة بالحكمة،
كتلك التي تبدو مُدَّعية للحداثة في أيامنا هذه. وإني لعلى قناعة تامة بأن
الطرق المقبولة ينبغي أن تزيد بشكل دائم هذه الحماقات والهفوات،
بل وحتى الفناء الكامل لكل هذه الانجازات الخيالية
لم يكن من الممكن أن يكون مؤذياً مثل ذلك العلم الوهمي بخصويته المفرطة.
كانط

يشير هذا الكتاب قضايا ربما لا تكون ظاهرة من الفهرس الموضوع له. فهو يجمل بعض
الصعوبات التي تواجه حضارتنا - تلك الحضارة التي ربما يمكن وصفها بأنها تهدف إلى تحقيق ما
هو إنساني ومعقول، كما تهدف إلى تحقيق المساواة والحرية؛ حضارة لا تزال في طفولتها، كما
كانت دائماً، وقد تستمر في التطور على الرغم من حقيقة أن العديد من القادة المفكرين للجنس
البشري، قد غلروا بها في معظم الأحوال. وهو يحاول أن يبين أن هذه الحضارة لم تفق بعد من
صدمة ميلادها - صدمة التحول من "المجتمع القبلي" أو "المغلق"، بما وقع له تحت سيطرة القوى
السحرية، إلى "المجتمع المفتوح"، الذي يطلق قوى الإنسان النقدية. وهو يحاول كذلك أن يبين
أن صدمة هذا التحول إنما هي أحد العوامل التي جعلت من الممكن أن تنشأ تلك الحركات الرجعية
التي حاولت، ولا تزال، هدم الحضارة، والعودة إلى النظام القبلي. وهو يقترح أن ما ندعوه في
هذه الأيام المجتمع الشمولي إنما ينتمي إلى ما هو سائد سواء أكان قديماً أم حديثاً، كما هو الحال
في حضارتنا ذاتها.

وهو يحاول من ثم أن يساهم في فهمنا للشمولية، ولأهمية ودلالة الكفاح المتجدد لمواجهة.

ويحاول فضلا عن ذلك أن يفحص تطبيق طرق العلم النقدية والعقلانية على مشكلات المجتمع المفتوح. فهو يحلل مبادئ إعادة البناء الاجتماعي الديمقراطي، مبادئ ما اصطلح على تسميته "الهندسة الاجتماعية المتدرجة" في مقابل "الهندسة الاجتماعية البيوتوية" (كما هو موضح في الفصل التاسع). كما أنه يحاول أن يزيل بعض العوائق التي تعترض سبيل حل مشكلات إعادة البناء الاجتماعي بطريقة عقلانية..

وهو يفعل ذلك بنقد تلك الفلسفات الاجتماعية المسؤولة عن التحيز واسع الانتشار ضد امكانيات الإصلاح الديمقراطي. وأكثر هذه الفلسفات قوة هي تلك التي قد أطلقت عليها اسم التاريخانية. قصة نشأة وتأثير بعض الأشكال المهمة للتاريخانية هي أحد المحاور الرئيسية للكتاب، والتي أمكن وصفها بأنها مجموعة ملاحظات هامشية في تطوير فلسفات تاريخانية معينة. وسوف نورد في متن الكتاب بعض الملاحظات حول ما هو المقصود بالتاريخانية، وكيف هي مرتبطة بالقضايا الأخرى المذكورة.

وعلى الرغم من أنني مهتم بصفة رئيسية بمناهج الفيزياء (ومن ثم بمشكلات تقنية معينة بعيدة كل البعد عن تلك المعالجة في هذا الكتاب)، إلا أنني قد عانيت أيضا منذ سنوات عديدة بالحالة المتردية التي وصلت إليها بعض العلوم الاجتماعية، ولاسيما الفلسفة الاجتماعية. ويشير هذا، بطبيعة الحال، مشكلة المناهج الخاصة بها. وقد جاء اهتمامي بهذه المشكلة نتيجة لرغبتني في البحث عن إرهاصات هذه النزعة الشمولية في بداية تكوينها.. والأسباب التي أدت إلى إخفاق علوم اجتماعية عديدة، وفلسفات اجتماعية متنوعة في إدراك حقيقتها.

وفي هذا السياق بدا لي أمر كان يلح عليّ دائما.

يتبادر إلى الذهن في معظم الأحوال أن شكلا أو آخر من الشمولية أمر لا يمكن تفاديه. فالعديد من المثقفين يرون أنه لا مفر من تواجدها. ويتساءلون عما إذا كنا من السذاجة بحيث نقبل فكرة أن النظام الديمقراطي قابل للاستقرار، وعما إذا كنا نرفض أن يكون هذا النظام هو أحد الأشكال المتعددة للحكم الذي يأتي ويمضي في مسيرة التاريخ الإنساني. وهم يجادلون بأن الديمقراطية، لكي تجابه الشمولية، ملزمة بأن تحاكي مناهجها، ومن ثم بأن تصبح بالتالي شمولية. وهم يقررون أن نظامنا الصناعي لا يمكنه أن يستمر في أداء وظيفته دون تبني طرق التخطيط الجماعي، ويستدلون بذلك على صعوبة استمرار النظام الجماعي الاقتصادي دون أن يتبنى الأشكال الشمولية للحياة الاجتماعية.

وقد تكون مثل هذه الحجج مقبولة إلى حد كبير. بيد أن القبول لا يعد دليلا يمكن التعويل

عليه في مثل هذه المسائل. ففي الواقع لا يتعين على المرء أن ينخرط في مناقشة هذه الحجج المشكوك فيها قبل النظر في السؤال التالي الذي يطرحه المنهج العلمي: هل في مقدور أي علم اجتماعي أن يجري مثل هذه التنبؤات التاريخية الشاملة؟ هل في مقدورنا أن نتوقع الحصول على أكثر من إجابة من عرّاف إذا سألناه ما قد يخبره المستقبل للجنس البشري؟

هذا سؤال عن منهج العلوم الاجتماعية. ومن الواضح أنه سؤال أساسي أكثر من أي نقد لأي حجة مقدمة لدعم أي نبوءة تاريخية.

ولقد أدى بي الفحص المدقق لهذا السؤال إلى القناعة بأن مثل هذه النبوءات التاريخية الشاملة إنما تقع كلية خارج نطاق المنهج العلمي. فالمستقبل يعتمد علينا، ولسنا معتمدين على أية ضرورة تاريخية. ومع ذلك ثمة فلسفات اجتماعية مؤثرة تمسك بوجهة النظر المقابلة. إنها تزعم أن الإنسان يحاول أن يستخدم عقله للتنبؤ بحدوث وشيكة الوقوع؛ ذلك أن من المشروع بالتأكيد بالنسبة إلى رجل استراتيجي أن يحاول التنبؤ بنتيجة معركة؛ وأن الحدود بين تنبؤ مثل هذا وعدد من التنبؤات التاريخية الشاملة أكثر إنما هي حدود مائعة. وهم يقررون أن مهمة العلم بصفة عامة هي إجراء تنبؤات، أو بالأحرى، تحسين تنبؤاتنا اليومية، وترسيخها على أساس أكثر أماناً، وأن مهمة العلوم الاجتماعية، بصفة خاصة، هي تزويدنا بنبوءات تاريخية طويلة الأجل. وهم يعتقدون أيضاً بأنهم قد اكتشفوا قوانين التاريخ التي تمكنهم من التنبؤ بمسار الأحداث التاريخية. ولقد جمعت الفلسفات الاجتماعية المختلفة التي تسبني مزاعم من هذا النوع تحت اسم التاريخانية. ولقد حاولت في مكان آخر، في كتاب "عقم المذهب التاريخي" * أن أناقش هذه المزاعم، وأن أبين أنها على الرغم من معقوليتها، فإنها تستند إلى سوء فهم جسيم لمنهج العلم، وخصوصاً إلى تجاهل التمييز بين التنبؤ العلمي والنبوءة التاريخية *scientific prediction* and *historical prophecy*. وبينما كنت منهمكاً في تحليل منهجي ونقدي لمزاعم التاريخانية، حاولت أيضاً أن أجمع مادة ما لتوضيح تطورها. والملاحظات التي جمعتها لهذا الغرض أضحت الأساس لهذا الكتاب.

ويهدف التحليل المنهجي للتاريخانية إلى ما يشبه الوضع العلمي، ولم يهدف هذا الكتاب إلى ذلك. فالعديد من الآراء التي عبر عنها أصحاب هذا التوجه آراء شخصية بحتة. فما يدين إلى المنهج العلمي هو الوعي أساساً بحدودها: فهي لا تقدم براهين، حيث لا شيء يمكن البرهنة عليه، وهي لا تتظاهر بكونها علمية، حيث لا يمكن تقديم أكثر من وجهة نظر شخصية. وهي لا

* وللكتاب المذكور ترجمة عربية للدكتور عبد الحميد صيرة بعنوان: عقم المذهب التاريخي، دراسة في منابع العلوم الاجتماعية. منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٥٩. (الترجم)

تحاول أن تحلّ نسقاً حديثاً للفلسفة محلّ أنساق فلسفية سابقة. كما أنها لا تحاول أن تكون مجرد إضافة إلى كل هذه المجلدات التي تموج بالحكمة، إلى ميتافيزيقا التاريخ والمصير، مثل تلك المنشورة هذه الأيام. وإنما هي تحاول بالأحرى أن تبين أن هذه الحكمة التي تعتمد على النبوءة تضر أكثر مما تفيد. إن ميتافيزيقا التاريخ تعرقل تطبيق مناهج العلم المتدرجة على مشكلات الإصلاح الاجتماعي. وهي تحاول، فضلاً عن ذلك، أن تبين أننا قد نصبح صانعو مصيرنا عندما نكون قد توقفنا عن وضع أنفسنا كأنبيا.

وفي محاولة لاقتضاء أثر تطور التاريخانية، وجدت أن الأسلوب المتواتر للنبوءة التاريخية، المنشورة على هذا النحو وسط قادتنا المثقفين، لها وظائف مختلفة. إنها تدّعي انتماءها إلى ما هو في أصله شكل من أشكال المبادرة، وأنها تمتلك قوة غير عادية للمقدرة على التنبؤ بمسار التاريخ. فضلاً عن أن ثمة فكرة شائعة تزعم أن القادة المثقفين يملكون مثل هذه المقدرة، وعدم غلّكهم لها قد يؤدي إلى فقدان تمييز الطبقات. ومن ناحية أخرى فإن الخطر هنا يكمن في أن قدرتهم على ستر أنفسهم كمشعوذين ضئيل للغاية، حيث أنهم يستطيعون دائماً أن يشيروا إلى أن المسموح به بالتأكيد هو إجراء تنبؤات شمولية أقل، وأن الحدود بين هذه التنبؤات وما يقوم به الكهنة أو العرافون إنما هي حدود مائعة.

ولكن هناك أحياناً بواعث إضافية وربما أعمق للتمسك بالمعتقدات التاريخانية. فالأنبياء الذين يتنبؤون بقدوم عصر ألفي سعيد يوحون بإحساس راسخ بعدم الارتياح، وتعطي أحلامهم، في الواقع، أملاً لبعض الناس الذين يستطيعون التفكير بدونهم. ولكن يتعين علينا أيضاً أن ندرك أن تأثيرهم مسؤول عن حجب القدرة على مواجهة المهام اليومية للحياة الاجتماعية. وأن أولئك الأنبياء المزعمين الذين يتنبأون بأن حوادث معينة، مثل ذلة السقوط في الشمولية (أو ربما في "الترعة الإدارية" "managerialism") تعد، سواء أرادوا ذلك أو لم يريدوا، وسيلة لتحقيق نبوءاتهم. إن ما يزعمونه بأن الديمقراطية لا يمكن أن تستمر إلى الأبد، مادامت الديمقراطية وحدها هي التي تزودنا بإطار مؤسساتي يسمح بالإصلاح بدون عنف، وكذلك استخدام العقل في مجال السياسة. بيد أن هذا الزعم يميل إلى تثبيت همّة أولئك الذين يجابهون الفكر الشمولي، وإن دافعها إلى ذلك هو دعم الثورة ضد الحضارة. ويبدو أنه يمكن أن نجد باعثاً آخر، لو أننا اعتبرنا أن الميتافيزيقا التاريخانية تميل إلى تحرير الناس من ضغط مسؤولياتهم. ولو علمت أن الأحداث تجري على نحو مترابط، مهما حاولت أن تنفادي ذلك، فإنك سوف تشعر بأنك حر في أن تكف عن

* وهو العصر الذي منسوب فيه سعادة أو عدالة مطلقة أو تحرر من نقائص الوجود البشري. (المترجم)

مجاوبتها. وقد تكف، بصفة خاصة، عن محاولة التحكم في تلك الأشياء التي يوافق معظم الناس على أنها شرور اجتماعية، كالحرب؛ أو التنويه بأمور أقل أهمية من الحرب، مثل طغيان موظف تافه.

ولست راغباً في الاقتراح الذي يذهب إلى أنه يتعين على التاريخانية أن يكون لها مثل هذا التأثير. وهناك من أصحاب النزعة التاريخانية، وخاصة الماركسيين، لا يودون تحرير الناس من ضغط المسؤوليات التي تقع على كاهلهم. ومن ناحية أخرى، توجد بعض الفلسفات الاجتماعية التي قد تكون أو لا تكون تاريخانية، ولكنها تبشر بعجز العقل في الحياة الاجتماعية، والتي، بهذه النزعة المضادة للعقل، تدعم الموقف الذي يقول: "إما أن تتبع القائد، رجل الدولة العظيم، أو تصبح أنت ذاتك قائداً"؛ وهو الموقف الذي يعني بالنسبة لمعظم الناس خضوعاً سلبياً للقوى، سواء أكانت شخصية أم مُغفلة تلك التي تحكم المجتمع.

والآن من المثير للاهتمام أن نرى أن بعض أولئك الذين يشجبون العقل، أو حتى يلومونه على مايسود مجتمعنا الحالي من شرور، يفعلون ذلك من ناحية، لأنهم يدركون حقيقة أن النبوءة التاريخية تتجاوز قدرة العقل، ولأنهم لا يمكنهم أن يتصوروا من ناحية أخرى علماً اجتماعياً، في مجتمع معقول له وظيفة أخرى سوى النبوءة التاريخية. وبعبارة أخرى، إنهم يخشون رجاء ما يدعو إليه التاريخانيون؛ فأولئك الذين يشجبون العقل، على الرغم من إدراكهم عقم المذهب التاريخي، غير عارفين أنهم يحتفظون بضرر تاريخاني أساسي ألا وهو المذهب الذي يقول بأن العلوم الاجتماعية، إذا كان من الممكن أن يكون لها استخدام على الإطلاق، ينبغي أن تكون ذات نزعة نبئية. ومن الواضح أنه يتعين أن يؤدي هذا الموقف إلى رفض قابلية تطبيق العلم أو العقل على مشكلات الحياة الاجتماعية - وبصورة شاملة، إلى نظرية في القوة تعتمد على الهيمنة والخضوع.

فلماذا تؤيد كل هذه الفلسفات الاجتماعية الثورة على الحضارة؟ وما هو سر انتشارها؟ ولماذا تجذب وتغري الكثير جداً من المثقفين؟ إنني أميل إلى الاعتقاد أن السبب هو أنها تعطي تعبيراً عن شعور عميق بعدم الرضى عن عالم لا يستمر، ولا يمكنه أن يستمر على مستوى المثل الخلقية، وعلى أحلامنا بالكمال. إن ميل النزعة التاريخانية (ووجهات النظر المرتبطة بها) لدعم الثورة ضد الحضارة، ترجع بقدر كبير إلى أن النزعة التاريخانية ذاتها، إنما هي، إلى حد كبير، رد فعل ضد الضغوط التي تفرضها حضارتنا، وما تفرضه علينا من مسؤولية شخصية.

هذه التهوريات مبهمة إلى حد ما، ولكنها كافية لهذا المدخل. وهي أخيراً سوف تدعمها المادة التاريخية، خصوصاً في الفصل الذي يحمل عنوان "المجتمع المفتوح وأعدائه". ولقد كان هناك ما

يعزيني بأن أضع هذا الفصل في بداية الكتاب، بما فيه من موضوعات هامة تجعل المدخل بالتأكيد أكثر جاذبية. ولكنني وجدت أن الوزن كله لهذا التفسير التاريخي لا يمكن إدراكه إذا لم تسبقه المادة العلمية التي تناولتها في مقدمة هذا الكتاب. ويبدو أنه ينبغي على القارئ أن يتوزع اهتمامه بين التشابه الذي نجده في النظرية الأفلاطونية للعدالة، ونظرية وممارسة الشمولية الحديثة، قبل أن يدرك أن لهذه المسائل أولوية قصوى.

في المجتمع المفتوح (حوالي 430 ق. م).

على الرغم من أن القليل فقط هو الذي يمكن أن يتبنى السياسة،
إلا أننا جميعاً لقادرون على الحكم عليها.

برقليس من أثينا.

و ضد المجتمع المفتوح (بعد ذلك بحوالي 80 عاماً)

إن المبدأ الأعظم بالنسبة إلى الجميع هو أن أي شخص،
سواء أكان ذكراً أم أنثى، لا ينبغي عليه أن يحيا بلا قائد.
ولا ينبغي لعقل أي شخص أن يعود على فعل أي شيء على الإطلاق
بمبادرته الخاصة، لا على سبيل الحماسة، ولا على سبيل اللعب.
ولكن في أوار الحرب، وفي غمرة السلم؛ عليه أن يوجه ناظره لقائده،
وأن يتبعه بإخلاص.

وحتى في أصغر المسائل شأواً عليه أن يمثل للقيادة.
فعلیه مثلاً ألا يستيقظ، أو يتحرك، أو يغتسل، أو يتناول وجباته
إلا إذا أمر أن يفعل ذلك.
وبعبارة واحدة، يتعين عليه أن يعلم نفسه بمرانٍ طويل، ألا يحلم أبداً
بالإتيان بفعل مستقل،
و ألا يصبح قادراً عليه بكل ماتحملة الكلمة من معنى.

أفلاطون من أثينا.

أسطورة المنشأ

الفصل الأول: التاريخانية وأسطورة المصير

ثمة اعتقاد واسع الانتشار بأن الميل العلمي أو الفلسفي الحق تجاه علم السياسة، والفهم الأعمق للحياة الاجتماعية بصفة عامة، ينبغي أن يعتمدا على تأمل وتفسير التاريخ الإنساني، في حين أن الإنسان العادي إنما يتخذ موضعه من حياته وأهمية خبراته الشخصية، ونضالاته النافهة كقضية مُسَلَّم بها؛ ويُقال أن العالم أو الفيلسوف الاجتماعي ينبغي أن يعاين الأشياء من مستو أعلى. فهو يرى الفردي بوصفه ضامناً، بوصفه أداة ليست على أهمية كبيرة فيما يتعلق بالتطور العام للجنس البشري. ويجد أن العوامل المهمة بحق في الممثلين المهمين بحق على مسرح التاريخ هم إما الأمم العظيمة وقوادها العظماء، أو ربما الطبقات العظيمة، أو الأفكار العظيمة. وأياً كان الأمر، فإنه سيحاول أن يفهم معنى المسرحية التي تُمثل على خشبة مسرح التاريخ، وسيحاول أن يفهم قوانين التطور التاريخي. فإذا نجح في هذا، سيكون قادراً، بالطبع، على أن يتنبأ بتطورات مستقبلية. فيضع السياسة عندئذ على أساس صلب، ويعطينا نصيحة عملية بإخبارنا أي الأدوار السياسية يُحتمل أن تنجح وأياً يُحتمل أن تفشل.

إن هذا لهو وصف مختصر للاتجاه الذي أدعوه التاريخانية. وهي فكرة قديمة، أو بالأحرى، مجموعة من الأفكار المترابطة بشكل واسع والتي قد أصبحت، لسوء الحظ، تمثل جزءاً كبيراً جداً من مناخنا الروحي الذي يؤخذ عادة كقضية مُسَلَّم بها، ويصعب في أي وقت أن تكون موضع شك.

ولقد حاولت في مكان آخر أن أُبين أن المنحى التاريخاني للعلوم الاجتماعية إنما يعطي نتائج ضعيفة. ولقد حاولت أيضاً أن أضع مخططاً تمهيدياً لمنهج، أعتقد أنه يمكن أن يؤدي إلى نتائج أفضل.

ولكن إذا كانت التاريخانية منهجاً معيماً يؤدي إلى نتائج لا قيمة لها، إذن ربما يكون مفيداً أن نرى كيف نشأت، وكيف نجحت في ترسيخ ذاتها هكذا بنجاح. يمكن للمخطط التاريخي الساعي

لهذا الغرض، أن يخدم في الوقت نفسه، تحليل مختلف الأفكار التي قد تراكمت تدريجياً حول المذهب التاريخي المركزي - مذهب أن التاريخ محكوم بقوانين تاريخية أو نظورية معينة، وأن اكتشافها سيمكّننا من أن نتنبأ بمصير الإنسان.

فالتاريخانية، التي قد ميّزتها حتى الآن فقط بطريقة مجردة إلى حد ما، يمكن توضيحها جيداً بواحدة من أبسط وأقدم صور عقيدة الشعب المختار. فهذه العقيدة واحدة من المحاولات التي تجعل التاريخ مفهوماً عن طريق تفسير المسرحية التي تؤدي على خشبة مسرح التاريخ. إذ أن نظرية الشعب المختار، وبشكل أكثر تحديداً، إنما تفترض أن الله قد اختار شعباً واحداً كأداة مُتَقَاة لإرادته، وأن هذا الشعب سيرث الأرض.

وبوضع، في هذه العقيدة، قانون التطور التاريخي عن طريق إرادة الله السامية. وهذا هو الاختلاف النوعي الذي يميّز الصورة الإيمانية عن باقي صور التاريخانية. فالتاريخانية الطبيعية، على سبيل المثال، إنما تتعامل مع القانون التطوري بوصفه قانوناً للطبيعة، في حين ستعامل التاريخانية الروحانية معه بوصفه قانوناً للتطور الروحي؛ وكذلك، التاريخانية الاقتصادية، بوصفه قانوناً للتطور الاقتصادي. وتتقاسم التاريخانية الإيمانية مع هذه الأشكال الأخرى من المذهب أن ثمة قوانيناً تاريخية نوعية يمكن أن تُكشَف، وعليها يمكن أن تتأسس التنبؤات المتعلقة بالجنس البشري.

وليس من شك في أن عقيدة الشعب المختار قد انبثقت من الصورة القبلية للحياة الاجتماعية. فالقبلية، أعني التأكيد على الأهمية القصوى للقبيلة التي بدونها لا يساوي الفرد شيئاً على الإطلاق، هي العنصر الذي سنجمله في العديد من صور النظريات التاريخانية. أما الصور الأخرى التي لم تعد قبلية ربما ستظل تحتفظ بعنصر الجماعة*؛ فهي تظلّ تشدّد على أهمية جماعة أو تجمع ما - طبقة، مثلاً - دون أي اعتبار للفرد على الإطلاق. وثمة جانب آخر لعقيدة الشعب المختار، هو ضعف ما يطرحه من أسباب لنهاية التاريخ. لأنه على الرغم من أنها قد تصف هذه النهاية بدرجة ما من التحديد، فلا بد أن نمضي إلى طريق طويل قبل أن نبلغها. والطريق ليس طويلاً فحسب، بل هو متعرج أيضاً، يصعد أحياناً ويهبط أحياناً أخرى، ويتجه ذات اليمين وذات الشمال. وعليه، فمبني على أننا نستحضر كل حادث تاريخي مُدْرَك يسر من خلال نظام التفسير. ولا يمكن لأية خبرة مُدْرَكَة أن تدحضها. ولكن بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون بهذه الفكرة، فإنها تمنح اليقين فيما يتعلق بالمصير النهائي للتاريخ الإنساني.

* الجماعة أو المذهب الجمعي Collectivism هو المبدأ الاشتراكي القائل بسيطرة الدولة أو الشعب ككل على جميع وسائل الإنتاج أو النشاطات الاقتصادية. (المترجم)

ولسوف نبذل محاولة لتقد التفسير الإيماني للتاريخ في الفصل الأخير من هذا الكتاب، حيث سيتبين أيضاً أن بعضاً من أعظم المفكرين المسيحيين قد تنكّر لهذه النظرية بوصفها وثنية. ولذلك لا ينبغي أن يُفسر الهجوم الموجه لهذا الشكل من التاريخانية، بوصفه هجوماً على الدين. وفي الفصل الحالي، مستخدم عقيدة الشعب المختار فقط كمثال توضيحي. إذ يمكن تفهم قيمتها في حد ذاتها من كون أهم مميزاتها مشتركة مع المفهومين الحديثين للتاريخانية، واللذين سيشكل تحليلهما معاً الجزء الأعظم من هذا الكتاب. الفلسفة التاريخية للتميز العنصري من جهة (اليمن)، والفلسفة التاريخية الماركسية من الجهة الأخرى (اليسار). لأن عرقية الشعب المختار تمثل محل الشعب المختار المستقى كأداة للمصير، والذي سيرث الأرض في النهاية (من اختيار جويتو). أما فلسفة ماركس التاريخية فتستبدلها بالطبقة المختارة، التي ستكون أداة خلق المجتمع اللاتبقي، وفي الوقت نفسه، الطبقة المقدر لها أن تراث الأرض. وكلتا النظريتين تؤسس تنبؤاتهما التاريخية على تفسير التاريخ الذي يؤدي إلى اكتشاف قانون تطوره. ففي حالة العرقية يُعتقد في هذا بوصفه نوعاً من القانون الطبيعي؛ التفوق البيولوجي لدم الجنس المختار يفسر مسار التاريخ، الماضي، والحاضر، والمستقبل؛ وهو ليس سوى نضال الأجناس من أجل السيطرة. أما في حالة فلسفة ماركس للتاريخ، فالقانون اقتصادي؛ وقد فسر كل التاريخ بوصفه نضالاً للطبقات من أجل السيطرة الاقتصادية.

والسمة التاريخانية لهاتين الحركتين تجعل بحثنا يتضمن عدة موضوعات. وسنعود إلى النظريتين في أجزاء لاحقة من هذا الكتاب. إذ يعود كل منهما مباشرة إلى فلسفة هيغل. ولذلك فينبغي أن نتناول تلك الفلسفة أيضاً. ولأن هيغل يتبع بالأساس بعض فلاسفة قدامى معينين، فسيضحي من الضروري أن تُناقش نظريات هيراقليطس، وأفلاطون، وأرسطو، قبل العودة إلى الأشكال الأكثر حداثة للتاريخانية.

الفصل الثاني: هيراقليطس

إننا لا نجد في اليونان حتى هيراقليطس نظريات يمكن مقارنتها - من حيث سماتها التاريخية - وعقيدة الشعب المختار. ففي الديانة الهوميرية*، أو بالأحرى في التفسير الشركي** يُعدُّ التاريخ نتاجاً للإرادة الالهية. ولكن لا تضع الآلهة الهوميرية قوانيناً عامة لتطور التاريخ. فما يحاول هوميروس أن يسلِّد عليه ويشرحه ليس وحدة التاريخ، وإنما بالأحرى افتقاره إلى الوحدة. إذ أن مؤلف المسرحية على مسرح التاريخ ليس إلهاً واحداً، وإنما عدة آلهة. وما يشترك فيه التفسير الهوميري مع التفسير اليهودي هو شعور ما غامض معين بالمصير، وكذلك فكرة القوى التي تقف خلف الكواليس. بيد أن المصير النهائي طبقاً لهوميروس، ليس بادياً للعيان، وإنما يظل سرّاً على خلاف نظيره اليهودي.

وكان هزيبود*** هو أول يوناني يُدخل مذهباً تاريخياً بشكل أكثر وضوحاً، وربما كان متأثراً بمصادر شرقية. فهو الذي استخدم فكرة الاتجاه العام أو النزعة العامة في التطور التاريخي. إن تفسيره للتاريخ متشائم. فهو يعتقد أن الجنس البشري، في تطوره ابتداءً من العصر الذهبي، يكون مصيره التدهور جسدياً وخلقياً معاً. ولقد جاءت ذروة الأفكار التاريخية المختلفة عند فلاسفة الاغريق القدامى مع أفلاطون، الذي، في محاولة منه لتفسير التاريخ والحياة الاجتماعية للقبائل الاغريقية، وبصفة خاصة الأثينيين، رسم صورة فلسفية فخيمة للعالم. وكان متأثراً بقوة في مذهبه التاريخي بمختلف الرواد الأول، وبصفة خاصة هزيبود، ولكن معظم التأثير الهام أتى من هيراقليطس.

كان هيراقليطس هو الفيلسوف الذي اكتشف فكرة التغير. وقبل هذا العصر، كان الفلاسفة

* نسبة إلى هوميروس (القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد) وهو شاعر يوناني صاحب ملحمتي "الإلياذة" و "الأوديسة". (المترجم)

** أو التفسير الذي يقول بتعدد الآلهة. (المترجم)

*** يعد هزيبود (القرن الثامن) شاعراً يونانياً شهيراً، ويُعرف بـ "أبي الشعر اليوناني التعليمي". (المترجم)

اليونانيون متأثرون بالأفكار الشرقية، وقد تصوّروا العالم صرّحاً هائلاً تكون فيه الأشياء المادية بمثابة مواد البناء. إنها شمولية الأشياء - أو ما يُطلَق عليه الكوزموس (وهو يبدو في الأساس نتاجاً شرقياً). وكانت الأسئلة التي سألها الفلاسفة لأنفسهم: "ما هي المادة الخام التي صنع منها العالم؟ أو "كيف بُني، وما هو تصميمه الأساسي الحقيقي؟". ولقد رأوا أن الفلسفة، أو الفيزيقا (ولم يكن ثمة تمييز بين الاثنين لزمان طويل)، هي البحث في "الطبيعة"، أعني المادة الأصلية التي منها بُني هذا الصرح، العالم. أمّا العمليات التي تكون موضع دراستهم فهي تتم إما داخل هذا الصرح، أو كإضافة إلى بنائه، أو للمحافظة عليه، فهي بذلك تخرج الصرح من حالته المستقرة أساساً أو تعيده إلى هذه الحالة. كما أنهم يعتبرون هذه العمليات دورية (بصرف النظر عن العمليات المرتبطة بأصل الصرح، والسؤال "من الذي صنعه؟" سبق أن ناقشه الشرقيون، وكذلك هزيبود وآخرون). وهذا المنحى الطبيعي للغاية، الطبيعي حتى بالنسبة للعديد منا اليوم، تخطّته عبقرية هيراقليطس. إذ كانت وجهة النظر التي أدخلها أنه لا يوجد مثل هذا الصرح، ولا البناء الثابت المستقر، ولا الكوزموس "فنظام الكون، في أحسن الأحوال، لا يعدو أن يكون مثل كومة نفاية تَبَعَثَتْ بالصدفة" وهذه واحدة من أقواله. لقد تصور العالم ليس كصرح، وإنما بالأحرى كعملية واحدة هائلة جبارة؛ ليس كمحصلة كلية لجميع الأشياء، وإنما بالأحرى مجموع كل الحوادث، أو التغيرات، أو الوقائع. "فكل شيء في تغير متواصل ولا شيء ثابت"، إنه شعار فلسفته.

ولقد أثر اكتشاف هيراقليطس في تطور الفلسفة اليونانية لفترة طويلة من الزمن. إذ يمكن أن توصف فلسفات بارمنيدس، وديموقريطس، وأفلاطون، وأرسطو على نحو مناسب كمحاولات لحل مشكلات تغير ذلك العالم الذي اكتشفه هيراقليطس. ولا يمكن أن نغالي في تقدير عظمة هذا الاكتشاف، فلقد وُصِفَ بأنه اكتشاف مروّع، ويمكن مقارنة تأثيره بتأثير "زلزال"، يبدو فيه كل شيء وكأنه يترنح". ولا يداخني شك في أن هذا الاكتشاف كان نتيجة للتجارب الشخصية المروّعة التي عانى منها هيراقليطس من جراء الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في عصره. وكان هيراقليطس هو أول فيلسوف يتعامل ليس فقط مع "الطبيعة"، وإنما أكثر من ذلك مع المشكلات الأخلاقية والسياسية التي خَبِرَها في عصر الثورة الاجتماعية. وكانت الارستقراطية القبلية اليونانية، في عصره هذا قد بدأت تدعن إلى القوة الوليدة للديموقراطية.

ولكي نفهم تأثير هذه الثورة، علينا أن نتذكّر رسوخ وصلابة الحياة الاجتماعية في ظلّ الارستقراطية القبلية. فلقد كانت الحياة الاجتماعية محكومة بمحرمات اجتماعية ودينية، وكان لكل شخص مكانه المحدّد في البناء الاجتماعي الكلي، ويشعر كل شخص أن مكانه هذا مناسب، فهو المكان "الطبيعي"، الذي وضع فيه من قبل قوى تحكم العالم، كل شخص "يعرف مكانه".

وطبقاً للتقليد، فإن مكانة هيراقليطس الخاصة أن يرث ملوك أفسوس الكهنة، ولكنه تخلى عن حقوقه هذه لصالح أخيه. وعلى الرغم من رفضه الأبي المشاركة في أن يحتل مكاناً في الحياة السياسية لمدينته، فقد دعم قضية الارستقراطيين في محاولاتهم دون جدوى ضد المد المتصاعد للقوى الثورية الوليدة. وتنعكس خبراته هذه، في المجالين الاجتماعي والسياسي في الشذرات المتبقية من مؤلفه. " ينبغي أن يشتق أهالي أفسوس أنفسهم رجلاً رجلاً، كل البالغين، وأن يتركوا المدينة كي يحكمها الأبطال... " هذه واحدة من قوراته العاطفية، بمناسبة القرار الذي أصدره العامة بقي هرمودورس أحد أصدقاء هيراقليطس الارستقراطيين. ويُعد تفسيره لدوافع الناس مثيراً للغاية، إذ أنه يبين أن الشعارات المضادة للديموقراطية لم تتغير منذ أبكر عهود الديموقراطية " كانوا يقولون: لن يكون أي منا هو الأفضل بيننا، وإذا برز شخص ما، عندئذ ليكن هذا في مكان آخر، وبين آخرين ". يبرز هذا العداء للديموقراطية في كل فقرة من فقرات الشذرات: "... يملاً الغوغاء بطونهم كالسائمة... إنهم يتخذون من شعراء الملاحم ومن المعتقد الشعبي مرشدين لهم، متجاهلين أن الكثير مما يتخذونه طالع وأن القليل فقط هو الصالح... لقد عاش بياس ابن توطامس في برين، وكانت عبارته أفضل من عبارات أناس آخرين. فقد قال: "إن معظم الناس أشرار"... إن الرعاع لا يبدون أي اهتمام، ولا حتى بحجر عثرة يعترضهم على حين غرة، ولا يمكنهم إدراك عبرة ما - رغم اعتقادهم بغير ذلك ". ويقول في المحور نفسه: "يمكن أن يتطلب القانون أيضاً إطاعة رجل واحد". وثمة تعبير آخر لتوجهات هيراقليطس المحافظة، والمعادية للديموقراطية وهو، للمصادفة، مقبول تماماً من الديموقراطيين من حيث الشكل، وليس بالضرورة من حيث المضمون: "ينبغي أن يحارب الناس من أجل قوانين المدينة كما لو كانوا حوائطها".

يبد أن تضال هيراقليطس من أجل القوانين القديمة لمدينته كان بلا جدوى، إذ أن مرحلة كل الأشياء قد تركت انطباعاً قوياً في نفسه. وتعبير نظريته في التغيير عن هذا الانطباع، فقال: "كل شيء في سريان". و"أنت لا تستطيع أن تنزل مياه النهر الواحد مرتين". وقد جادل في صياغة هذا ضد الاعتقاد الذي يقول إن النظام الاجتماعي الموجود سيظل إلى الأبد: "ولا ينبغي أن نتصرف كالأطفال متشبسين بوجهة نظر ضيقة، كما لو كانت مفروضة علينا".

وهذا التأكيد على التغيير، وبصفة خاصة على التغيير في الحياة الاجتماعية، يُعد سمة هامة، ليس فقط لفلسفة هيراقليطس وإنما للمذهب التاريخي بصفة عامة. أن تتغير الأشياء، وحتى الملوك، فهذه حقيقة يجب أن يقنع بها خصوصاً أولئك الذين يعتبرون وضعهم الاجتماعي قضية مُسلماً بها. فهناك الكثير مما يجب التسليم به. ولكن ثمة خاصية في المذهب التاريخي لفلسفة هيراقليطس أقل جدارة بالثناء من غيرها ألا وهي تأكيده الزائد على التغيير مرتبطاً باعتقاده الإضافي في قانون المصير الحتمي والثابت.

لذلك فإننا نواجه بموقف يُعدُّ سمةً لمعظم، إن لم يكن لكل التاريخانيين، على الرغم من أنه يبدو من الوهلة الأولى متناقضاً مع التأكيد التاريخاني الزائد على التغير. وقد يمكننا شرح هذا الموقف إذا فرنا التأكيد التاريخاني الزائد على التغير كعلامة على مجهود نحتاجه للتغلب على مقاومته اللاواعية لفكرة التغير. وقد يشرح ذلك أيضاً التوتر العاطفي الذي يؤدي بالعديد من التاريخانيين (وحتى في أيامنا هذه) بالتشديد على جدّة ذلك السبق الذي يجب عليهم القول به. ومثل هذه الاعتبارات إنما توحي بخشية هؤلاء التاريخانيين من التغير، وأنهم لا يمكنهم أن يقبلوا فكرة التغير بدون صراع داخلي فعلي. ويبدو غالباً كما لو أنهم يحاولون طمأنة أنفسهم عن فقد عالم ثابت بالتشبث بوجهة النظر التي تذهب إلى أن التغير إنما يكون محكوماً بقانون لا يتغير. (ولسوف نجد حتى عند بارمينيدس وعند أفلاطون، النظرية التي تذهب إلى أن تغير العالم الذي نحيا فيه إنما هو وهم، وأنه يوجد هنالك عالم لا يتغير أكثر حقيقة بدرجة أكبر).

وفي حالة هيراقليطس، فإن التشديد على التغير إنما يؤدي به إلى نظرية أن كل الأشياء المادية، سواء كانت جامدة، أو سائلة، أو غازية، إنما هي مثل اللهب - والتي لا تعدو أن تكون عمليات أكثر من كونها أشياء، وأنها جميعاً تحولات من النار؛ فالأرض الصلبة ظاهرياً (والتي تتكون من الرماد) إنما هي نار فحسب في حالة تحول، وحتى السوائل (كالماء، والبحر) نارٌ متحولة قد تصبح وقوداً، ربما على هيئة زيت. "فالتحول الأول للنار هو البحر، ولكن البحر نصفه أرض، ونصفه هواء ساخن". وعليه فإن جميع "العناصر" الأخرى - التراب، والماء، والهواء - تُعدُّ نارا متحولة. "فكل شيء هو تحول للنار، والنار إلى كل شيء، تماماً كتحويل الذهب إلى سلع، والسلع إلى ذهب".

وبعد أن يكون هيراقليطس قد حوّل كل الأشياء إلى لهب أو إلى عمليات مثل الاحتراق، فإنه يلمح في هذه العمليات قانوناً، أو مقياساً، أو علّة، أو حكمة. وبعد أن يكون قد حطم الكوزموس كصرح، وأعلنه كومة من النفايات، فإنه يعود ويدخله مرة أخرى باعتباره نظاماً مقدرًا من الحوادث في عالم العمليات الكونية.

فكل عملية في العالم، والنار ذاتها بصفة خاصة، تتطور وفقاً لقانون محدد، بعد بمثابة مقياس للعملية، وهو قانون محتم ولا يقاوم، وهو في ذلك يشبه تصورتنا الحديث للقانون الطبيعي، فضلاً عن القوانين التاريخية أو التطورية للتاريخانيين المحدثين. ولكنه يختلف عن هذه التصورات بقدر ما هو حكم يسانده حكم عقابي كما هو الحال في القوانين التي تفرضها الدولة. والإخفاق هذا في التفرقة بين القوانين الشرعية أو المعايير من جانب، والقوانين الطبيعية أو الانتظامات من جانب آخر، إنما هو سمة من سمات التحريم القبلي؛ فكلًا نوعي القانون يعامل سواء بسواء

بوصفه قانوناً سحرياً، مما يجعل النقد العقلاني للمحرّمات التي هي من صنع البشر غير وارد في محاولة لتحسين الحكمة النهائية وعلّة القوانين أو انتظامات العالم الطبيعي: "نشأ كل الحوادث عن ضرورة المصير . فالشمس لن تميد عن مسارها المقدّر؛ وإلاّ ستعرف آلهات المصير، خادعات العدالة كيف يعثرن عليها . "بيد أن الشمس لا تطيع القانون فحسب، فالنار التي على هيئة الشمس و (كما سنرى) على هيئة صواعق زيوس الرهيب، تراقب القانون، وتصدر الحكم طبقاً له . "فالشمس هي الحامية والحارسة للعهد، فهي التي تحدّد وتحكم وتعلن وتوضح التغيرات والفصول التي تولّد كل شيء... إن هذا الترتيب الكوني والذي هو نفسه بالنسبة إلى كل الأشياء لم يكن مخلوقاً، لا من قبل الآلهة ولا من قبل الإنسان، كان دائماً ولا يزال، ولسوف يظلّ ناراً حية أبداً، تتوهج وفقاً لمقياس، وتخبر وفقاً لمقياس... وفي اندفاعها إلى الأمام فإن النار سوف تمسك، وتحكم، وتنفذ أحكامها كل شيء".

وبالإضافة إلى فكرة التاريخاني عن المصير الذي لا يلين، فإننا كثيراً ما نجد عنصر التصوف، ولسوف تقدّم تحليلاً تقديماً للتصوف في الفصل الرابع والعشرين . ولكتني أودّ هنا فقط أن أبين الدور المعادي للعقلانية، والتصوف في فلسفة هيراقليطس؛ فهو يكتب قائلاً: "إن الطبيعة تحب أن تتخفى"؛ "إن الله الذي يوجد كاهنه في دلفي لا يقشي ولا يخفي، وإنما هو يعبر عن مراده من خلال تلميحات". إن ازدهاء هيراقليطس لأكثر العلماء ميلاً إلى الإمبريقية لهو تصرف غمطي لهؤلاء الذين تبوّأوا هذا الاتجاه: "إن الذي يعرف أشياء عديدة ليس في حاجة إلى عقول عديدة، وإلاّ لكان هزيبود وفيثاغورث، وكذلك اكسينوفان قد امتلكوا المزيد منها. أما فيثاغورث فهو الجد الأكبر لكل الدجالين". وتمضي النظرية الصوفية للفهم الحدسي على هذا المتوال من تحقير العلماء. إذ تأخذ نظرية هيراقليطس العلّة نقطة بدايتها من حقيقة أننا في يقظتنا، نعيش في عالم مشترك *a common world* كما أننا نستطيع الاتصال والتحكّم ومراجعة كل منا للآخر، وهنا تنبدي الثقة التي في أننا لسنا ضحايا الوهم. وتعطي هذه النظرية معنى آخر، رمزياً صوفياً. فهي نظرية الحدس الصوفي الذي يعطي للمختارين، أولئك الذين يكونون في حالة يقظة، ولديهم القدرة على أن يروا، ويسمعوا، ويتحدثوا: "لا ينبغي على المرء أن يتصرف وأن يتحدث كما لو كان نائماً... فأولئك المتيقظين لديهم عالم مشترك واحد، وأولئك النائمون يتحولون إلى عوالمهم الخاصة... إنهم عاجزون عن السماع والحديث معاً... وحتى لو كانوا يسمعون فهم أشبه بالصمّ. وينطبق عليهم المثل: إنهم حاضرون ومع ذلك فإنهم غائبون... شيء واحد ووحيد هو الحكمة: أن نفهم الفكر الذي يقود كل شيء من خلال كل شيء... فالعالم الذي تكون فيه الخبرة مشتركة لكل من هم متيقظين هو الوحدة الصوفية، وحدة كل الأشياء التي يمكن أن تُترك بالعقل فقط: "ينبغي على المرء أن يتبع ما هو مشترك للجميع... والعقل مشترك للجميع... الكل

يصبح واحداً والواحد يصبح كلاً... فالواحد الذي هو الحكمة يشاء ولا يشاء أن يُسمى زيوس... إنها الصاعقة التي تقود كل الأشياء .

ونكتفي بهذا القدر عن الملامح الأكثر عمومية لفلسفة هيراقليطس المتعلقة بالتغير الكوني والمصير الخفي . وتنشأ عن هذه الفلسفة نظرية القوى المحركة خلف كل التغيرات وهي نظرية تعرض سماتها التاريخية بتأكيداتها على أهمية "الحركية الاجتماعية" كمقابل لـ "السكونية الاجتماعية" . إن رؤية هيراقليطس للطبيعة بصفة عامة بأنها ذات بعد ديناميكي، وللحياة الاجتماعية بصفة خاصة، إنما تؤكد وجهة النظر التي تقرر أن فلسفته انبثقت عن اضطرابات اجتماعية وسياسية عاناها . لأنه يعلن أن النزاع السياسي أو الحرب هو الحركية وأيضاً المبدأ الخالق لكل تغير، وبصفة خاصة لكل الاختلافات بين الناس . ولكونه تاريخياً غمطياً، فإنه يقبل بحكم التاريخ بوصفه حكماً خلقياً؛ لأنه يتمك بأن مأسفٍ عنه الحرب إنما هو عادل دائماً؛ "فالحرب هي الأب وهي الملك لكل شيء" . فهي تبرهن على أن البعض آلهة، والبعض الآخر مجرد بشر، تحول هؤلاء إلى عبيد وأولئك إلى سادة... وينبغي أن يعرف المرء أن الحرب عالمية، وأن العدالة - القضية - هي النزاع، وأن كل شيء يتطور من خلال النزاع وبواسطة الضرورة .

ولكن لو كانت العدالة هي النزاع والحرب؛ ولو كانت "آلهات المصير" هي في نفس الوقت "خادعات العدالة"؛ ولو كان التاريخ، أو بدقة أكثر، إذا كان النجاح، أي النجاح في الحرب، إنما هو معيار الجدارة والاستحقاق، فإن مستوى الجدارة ينبغي أن يكون ذاته "في تدفق" أو "في تغير متواصل" . ويواجه هيراقليطس هذه المشكلة برؤيته النسبية، ومذهبه في وحدة الأضداد، وهذه تنشأ عن نظريته في التغير (والتي تظل أساس نظرية أفلاطون بل والأكثر من ذلك نظرية أرسطو) . فينبغي للشيء المتغير أن يتخلل عن خاصية ما وأن يكسب الخاصية المضادة . وعليه فالشيء أكثر منه عملية تحول من حالة إلى الحالة المضادة، مما يعني توحيداً للحالات المتضادة؛ فالأشياء الباردة تصبح ساخنة والأشياء الساخنة تصبح باردة، وما هو رطب يصبح جافاً، وما هو جاف يصبح رطباً... ويمكننا المرض من أن تقلد الصحة حق قهرها... والحياة والموت بوصفهما اليقظة والنوم، وكذلك الشباب والكهولة، فكلها شيء واحد، إذ يتحول الواحد منها إلى الآخر والعكس بالعكس... فما يتصارع مع ذاته يصبح متورطاً مع ذاته؛ فتحة رباط أو انسجام يؤدي إلى الارتداد والتوتر، كما هو الحال في القوس أو القيثارة... تنتمي الأضداد كل منها إلى الآخر، ويتبع أفضل انسجام من التنافر، ويتطور كل شيء بالنزاع... إن الطريق الذي يؤدي إلى أعلى والطريق الذي يؤدي إلى أسفل هما طريق واحد... كما أن الطريق المستقيم والطريق الملتوي شيء واحد... وبالنسبة للآلهة، فكل الأشياء تعد جميلة، وخيرة وعادلة؛ مع ذلك، فلقد اعتبر البشر بعض الأشياء عادلة، وبعضها الآخر غير عادل... إن الجيد والريء لهما شيء واحد .

يبد أن نسية القيم (التي يمكن حتى وصفها بالنسبية الأخلاقية) المعبر عنها في الشئرة الأخيرة لم تمنع هيراقليطس من أن يطور نظرية أخلاقية رومانسية وقبيلة للمجد، والمصير، وتفوق الإنسان العظيم، انطلاقاً من نظرية في عدالة الحرب وحكم التاريخ، وكل هذا يشبه بشكل مدهش بعض الأفكار الحديثة جداً. "فمن يقط مقاتلاً متمجده الآلهة وسيمجده البشر . . وكلما عظمت السقطة كان المصير مجيداً أكثر . . فالأفضل يبحث عن شيء واحد يفوق كل الأشياء الأخرى ألا وهي: الشهرة الأبدية . . إن رجلاً واحداً يساوي أكثر من عشرة آلاف رجل، إذا كان عظيماً"

ومن المدهش أن نجد في هذه الشذرات المبكرة، والتي يرجع تاريخها إلى حوالي 500 ق. م. ، الكثير من سمات التوجهات الحديثة للترعة التاريخية و المعادية للديموقراطية. ولكن يقطع النظر عن حقيقة أن هيراقليطس كان مفكراً ذا قوة وأصالة غير مسبوقتين، وأنه نتيجة لذلك أصبح العديد من أفكاره (بواسطة أفلاطون) أجزاء من صلب التراث الفلسفي، فإن التشابه المذهبي قد يمكن تفسيره، إلى حد ما، بتشابه الشروط الاجتماعية في الفترات الزمنية المناظرة. ويبدو الأمر كما لو أن الأفكار التاريخية تعرض نفسها ببساطة في أوقات التغير الاجتماعي العظيم. لقد ظهرت عندما تحطمت الحياة القبلية الاغريقية، وأيضاً عندما تشتت اليهود تحت تأثير الفتح البابلي: وثمة قليل من الشك، على ما أعتقد، في أن فلسفة هيراقليطس إنما هي تعبير عن شعور بالضياح؛ شعور يبدو أنه رد فعل نمطي لتفكك الأشكال القبلية القديمة للحياة الاجتماعية. وفي أوروبا الحديثة، أعيد إحياء الأفكار التاريخية أثناء الثورة الصناعية، وبصفة خاصة من خلال تأثير الثورات السياسية في أمريكا وفرنسا. ويبدو أنه أكثر من مجرد مصادفة أن هيجل، الذي تبنى الكثير من فكر هيراقليطس ومرره إلى كل الحركات التاريخية الحديثة، كان ناطقاً بلسان الرجعية ضد الثورة الفرنسية.

الفصل الثالث: نظرية أفلاطون في الصور أو المثل

1

عاش أفلاطون فترة حروب وتزاع سياسي، كانت، كما نعلم جميعاً، أكثر اضطراباً حتى من تلك التي عاناها هيراقليطس. فحينما كان يشبُّ عن الطوق، أدى انهيار الحياة القبليّة للاغريق في أثينا، مسقط رأسه، إلى فترة من الطغيان، وأخيراً إلى تأسيس ديموقراطية حاولت أن تحمي نفسها بحماسة ضد أية محاولات لإعادة الطغيان أو حكم الأقلية، أعني حكم العائلات الأرستقراطية الرائدة. وأثناء شبابه، كانت أثينا الديموقراطية غارقة إلى أذنيها في حرب ضروس ضد إسبرطة، رائدة حكم البلوبونيز التي قد حافظت على العديد من قوانين وعادات الأرستقراطية القبليّة القديمة، واستمرت الحرب البلوبونيزية، مع بعض توقف، لمدة ثمان وعشرين عاماً (ونسوف يتبيّن في الفصل العاشر، حيث سيتمّ عرض الخلفية التاريخية بتفصيل أكبر، أن الحرب لم تنته مع سقوط أثينا في عام 404 ق.م.، كما يؤكّد البعض أحياناً). ولد أفلاطون أثناء الحرب، وكان عمره حوالي أربعة وعشرين عاماً عندما وضعت الحرب أوزارها. ولقد جلبت معها أويّة مريعة، وفي عامها الأخير المجاعة، وسقوط مدينة أثينا، والحرب الأهلية، وحكم الرعب، الذي يُسمّى عادة بحكم الطفلة الثلاثين، وكان اثنان من أعمام أفلاطون يقودان هذه الطغمة وقد فقدتا حياتهما في محاولة فاشلة في الدفاع عن النظام ضد الديموقراطيين. إن إعادة تأسيس الديموقراطية وحلول السلام لم تعط مهلة لأفلاطون. إن معلمه سقراط المحبّ إلى نفسه، والذي جعل منه فيما بعد المتحدث الرئيسي لمعظم محاوراته قد حوكم وأُعدم. ويبدو أن أفلاطون نفسه كان في خطر، فرحل عن أثينا مع رفاق آخرين لسقراط.

ولقد أصبح أفلاطون فيما بعد، بمناسبة زيارته الأولى لصقلية، واقعاً في أحاييل الدساتير السياسية التي حيكت في بلاط ديونيس الأكبر طاغية سيراقوسة، وحتى بعد عودته إلى أثينا وتأسيس الأكاديمية، استمرّ أفلاطون، مع بعض تلاميذه، في تحمل قسطٍ نشيط، وفي الحثام، مشوّوم من المؤامرات والثورات التي طُبعت بها السياسة السيراقوسية.

إن هذا العرض المختضب للأحداث السياسية قد يساعدنا على فهم تلك المؤثرات في أعمال

أفلاطون، كما في أعمال هيراقليطس، التي توضح مدى معاناته في ظلّ القلاقل السياسية والأخطار في عصره.

وكان أفلاطون، شأنه في ذلك شأن هيراقليطس، من سلالة ملكية؛ على الأقل فيما تدّعيه الدعاوى التقليدية من أن عائلة أبيه تنحدر في نسبها من كودروس، آخر الملوك القيليين لاتيكا. وكان أفلاطون شديد الفخر بعائلة أمه التي، كما يوضح في محاورته (شارميدس وتيماوس)، تمتُّ بصلة قرابة إلى صولون مشرّع أثينا. أمّا عمّاه كريتياس وشارميدس، من قواد الطغاة الثلاثين، فيتسميان أيضاً لعائلة أمه. ويتقليد عائلي مثل هذا، من المتوقع أن يكون لدى أفلاطون اهتمام عميق بالشؤون العامة. ومعظم كتاباته إنما تحقق هذا التوقع في حقيقة الأمر. فهو ذاته يروي (إذا ما كان خطابه السابغ أصلياً) بأنه كان منذ البداية يهتم أكثر من أي شيء آخر بالنشاط السياسي. ولكنه قد فرغ من تجاربه المربرة في شبابه "ولمّا وجدت كل شيء يترنح ويتغير بلا هدف، شعرت بأنني مصاب بدوار وقانط". واعتقد أن شعوره بأن المجتمع، بل وكل شيء في ميال، هو الدافع الأساسي وراء فلسفته كما هو الحال تماماً فيما يتعلّق بفلسفة هيراقليطس، ولقد لخص أفلاطون خبرته الاجتماعية، تماماً كما فعل سلقه التاريخي، بتقديم قانون للتطور التاريخي. وطبقاً لهذا القانون، الذي سيُناقش بتفصيل أكثر في الفصل التالي، فإن كل تغير اجتماعي إما أن يكون فساداً أو انحلالاً أو تفحّخاً.

ويشكّل هذا القانون الأساسي، من وجهة نظر أفلاطون، جزءاً من قانون كوني - من قانون يتحكّم في كل الأشياء المخلوقة أو المتولّدة. فكل الأشياء المتدفقة، وكل الأشياء المتولّدة مصيرها الانحلال، ولقد شعر أفلاطون، مثله في ذلك مثل هيراقليطس، بأن القوى الفاعلة في التاريخ إنما هي قوى كونية.

ومع ذلك، فمن المؤكّد تقريباً أن أفلاطون اعتقد بأن قانون التفسخ هذا ليس هو القصة بكاملها. فلقد وجدنا عند هيراقليطس، نزعة إلى النظر لقوانين التطور بوصفها قوانيناً دورية، فهي توضع بعد القانون الذي يحدّد التتابع الدوري للفصول. وبالمثل، يمكننا أن نجد في بعض أعمال أفلاطون، اقتراحاً بعام أعظم (الذي يبدو أنه يقدر بـ 36000 عام من الأعوام العادية) فيه فترة تحسن أو تولّد تناظر على الأرجح الربيع والصيف، وفترة تفسخ وانحلال تناظر الخريف والشتاء.

وطبقاً لإحدى محاورات أفلاطون (محاورة السياسي)، فإن العصر الذهبي، عصر كرونوس، وهو العصر الذي يحكم فيه كرونوس بنفسه العالم، والذي يبعث فيه البشر من الأرض - يتبع بعصرنا نحن، عصر زيوس، وهو عصر تخلّى فيه الآلهة عن العالم، وتركه لموارده الخاصة، وهو بالتالي عصر ازدياد الفساد. وفي قصة السياسي هناك أيضاً إشارة إلى أنه، بعد بلوغ الفساد

ذروته، سوف يتولَّى الآلهة دَقَّة السفينة الكونية، وسوف تبدأ الأشياء في التحسُّن من جديد.

وليس من المؤكَّد مدى اقتناع أفلاطون بقصة السياسي. فلقد أوضح تماماً أنه لم يعتقد بأن كل ما جاء فيها صادق حرفياً. ومن الناحية الأخرى، فلا يمكن أن يداخلنا أدنى شك في أنه تصور التاريخ الإنساني في إطار كوني، وأنه كان مقتنعاً بأن عصره الخاص إنما هو أحد عصور الفساد العميق - وربما يكون أعمقها فساداً - وأن مجمل الفترة التاريخية السابقة تُحكَّم بميلٍ فطري نحو الانحلال، ميل يتقاسمه كل من التطور التاريخي والتطور الكوني. ولست متأكداً تماماً ما إذا كان أفلاطون معتقداً في ضرورة بلوغ هذا الميل مداه عند نقطة الفساد الأعظم. ولكنه اعتقد بالتأكيد في إمكانية كبشٍ، يبدل جهد خارق لكسر هذا الاتجاه التاريخي المشؤوم، ووضع نهاية لعملية الانحلال.

2

ومع كثرة أوجه التشابه بين أفلاطون وهيراقليطس، نضع إصبعنا هنا على نقطة خلاف هامة. فقد كان أفلاطون يعتقد أن من الممكن تحطيم قانون المصير التاريخي، أي قانون الانحلال، بواسطة الإرادة الخُلُقِيَّة للإنسان، المدعَّمة بقوة العقل الإنساني.

وليس من الواضح تماماً كيف وُقِّد أفلاطون وجهة النظر هذه مع اعتقاده في قانون المصير. ولكن هناك بعض المؤشرات التي يمكن أن توضح المسألة.

اعتقد أفلاطون أن قانون التفسخ يتضمن التفسخ الخُلُقِي. ويعتمد التفسخ السياسي، وبشكل رئيسي في نظره على التفسخ الخُلُقِي (والافتقار إلى المعرفة)، والتفسخ الخُلُقِي بدوره راجع، وبشكل رئيسي، إلى التفسخ العنصري. هذه هي الطريقة التي يعبرُ بها القانون الكوني العام عن نفسه في مجال الشؤون الإنسانية.

ولذلك فنحن نفهم إمكانية تطابق نقطة التحول الكوني العظيم مع نقطة التحول في الشؤون الإنسانية - المجال الخُلُقِي والعقلي - وأن ذلك قد يحدث بمجهود إنساني خُلُقِي وعقلي. وربما يكون أفلاطون قد اعتقد في أنَّ حدوث نقطة التحول الكونية سيُعبرُ عن نفسه بقدم واضح قانون أعظم، تكون قدراته على الفكر، وإرادته الخُلُقِيَّة قادرة على وضع نهاية لفترة الانحلال السياسي، تماماً كما يعبر قانون الانحلال العام عن نفسه بالانحلال الخُلُقِي المؤدي إلى الانحلال السياسي. ويبدو على الأرجح أن النبوءة بعودة العصر الذهبي، في محاوره السياسي، وهو العصر الألفي الجديد، إنما هو تعبير عن مثل هذا الاعتقاد جاء في صورة أسطورة. وأياً كان الأمر، فقد اعتقد أفلاطون بالتأكيد في كل من الميل التاريخي العام نحو

الانحلال، وإمكانية منع المزيد من الانحلال في المجال السياسي، وذلك عن طريق تعطيل كل تغير سياسي. وكان هذا هو الهدف الذي ظلَّ يجاهد للوصول إليه. محاولاً تحقيقه عن طريق تأسيس دولة خالية من شرور كل الدول الأخرى، لأنها لا تنسخ، ولأنها لا تتغير. الدولة الخالية من شر التغير والفساد إنما هي الأفضل والأكمل. إنها دولة العصر الذهبي التي لا تعرف التغير. إنها الدولة المجلدة.

3

وبالاعتقاد في مثل هذه المدينة المثالية التي لا تتغير، ينحرف أفلاطون انحرافاً جذرياً عن عقائد التاريخانية التي لمسانها عند هيراقليطس. وفضلاً عن أهمية هذا الاختلاف، فإنه يثير نقاط تشابه إضافية بين أفلاطون وهيراقليطس.

فهيراقليطس، على الرغم من جراءة تعليقه، يبدو أنه قد أحجم عن فكرة إحلال القوضى محل النظام الكوني. ويبدو أنه قد واصل نفسه عن فقد العالم الثابت بالتشبيث بوجهة النظر التي ترى أن التغير محكوم بقانون غير متغير. وهذا الميل إلى الإحجام عن النتائج النهائية للتاريخانية يعد سمة للعديد من التاريخانيين.

ويُضحى هذا الميل عند أفلاطون، أعظم من غيره (لقد كان هنا واقعاً تحت تأثير فلسفة بارمنيدس أعظم نقاد هيراقليطس). عموماً هيراقليطس خبرته عن التدفق الاجتماعي بتمديدتها على عالم "الأشياء جميعاً". ولقد نوهت إلى أن أفلاطون فعل الشيء نفسه. يد أن أفلاطون قد سحب أيضاً اعتقاده هذا في الدولة الكاملة التي لا تتغير على عالم كل الأشياء. فقد اعتقد أن كل نوع من الأشياء العادية أو المنحلة يناظر أيضاً شيئاً كاملاً لا ينحل. وهذا الاعتقاد في الأشياء الكاملة وغير المتغيرة، يُسمى عادةً بنظرية الصور أو المثل، والتي أمت عقيدة مركزية لفلسفته.

فاعتقاد أفلاطون بأن من الممكن بالنسبة لنا أن نخرق قانون المصير الحديدي، وأن نتجنب الانحلال بتعطيل كل تغير، يبين أن ميوله التاريخانية قد بلغت حدوداً محددة. إن أي مذهب تاريخي مكتمل وغير تصالحي ليردد في الاعتراف بأن الإنسان يمكنه، من خلال أي مجهود كان، أن يغير قوانين المصير التاريخي حتى بعد أن يكون قد اكتشفها. وقد يتمسك هذا المذهب بعدم استطاعة الإنسان أن يعمل ضد هذه القوانين، إذ أن كل خطئه وأفعاله إنما هي وسائل تحقق بها قوانين التطور المجتمعية مصيره التاريخي؛ مثلما هو الحال مع أوديب الذي واجه مصيره بسبب النبوءة، والتدابير التي اتخذها أبوه كانت لتجنبها وليس لمعارضتها. ولكي نكتسب فهماً أفضل

لهذا الموقف التاريخاني، ولكي نحلل النزعة المضادة لاعتقاد أفلاطون بإمكانية التأثير على المصير، فإنني سوف أقابل بين المذهب التاريخي كما نجده عند أفلاطون، وبين الأطروحة المضادة له تماماً والمسماة بنزعة الهندسة الاجتماعية، وهي موجودة أيضاً عند أفلاطون.

4

لا يطرح المهندس الاجتماعي أية أسئلة متعلقة بالميل التاريخي أو مصير الإنسان. فهو يعتقد أن الإنسان هو سيد مصيره الخاص وأنه، وفقاً لأهدافنا، يمكننا أن نؤثر على أو أن نغير تاريخ الإنسان كما سبق أن غيرنا وجه الأرض. وهو لا يؤمن بأن هذه الأهداف مقروضة علينا من قبل خلفيتنا التاريخية أو من قبل اتجاهات التاريخ، وإنما بالأحرى هي مُختارة، أو حتى مخلوقة من قبلنا نحن، تماماً كما نخلق أفكاراً جديدة أو أعمالاً فنية جديدة أو منازل جديدة. وعلى نقیض التاريخاني الذي يعتقد بأن الفعل السياسي الفطن ممكن، فقط إذا كان المسار المستقبلي للتاريخ محدداً مسبقاً، فإن المهندس الاجتماعي يعتقد بأن الأساس العلمي لعلم السياسة سيكون شيئاً مختلفاً تماماً، سيتألف من معلومة واقعية ضرورية لبناء أو تغيير المؤسسات الاجتماعية، طبقاً لرغباتنا وأهدافنا. وقد يُبتنا علم مثل هذا بما هي الخطوات التي ينبغي أن نتخذها، إذا رغبتنا في أن نتجنب مثلاً، كساداً، أو نحدث كساداً؛ أو إذا رغبتنا أن نجعل توزيع الثروة متساو أكثر، أو أقل. وبعبارة أخرى، يتصور المهندس الاجتماعي القاعدة لعلم السياسة وكأنها شيء ما شبيه بتكنولوجيا اجتماعية. (فيقارنه أفلاطون، كما سنرى، بالخلفية العلمية للطب)، على عكس التاريخاني الذي يفهمه بوصفه علم الاتجاهات التاريخية الثابتة.

ولا ينبغي أن يُستدلّ بما سبق أن ذكرته عن موقف المهندس الاجتماعي، أنه ليس ثمة اختلافات هامة في معسكر المهندسين الاجتماعيين. بل على العكس من ذلك، فإن الاختلافات بين ما أدعوه "الهندسة الاجتماعية المتدرجة"، و "الهندسة الاجتماعية اليوتوبية" هو أحد الموضوعات الرئيسية لهذا الكتاب (قارن بصفة خاصة الفصل التاسع، حيث سأقدم أسبابي للدفاع عن الأولى ومعارضة الأخيرة). ولكنني أهتم في الوقت الحاضر فقط بالمقابلة بين التاريخانية والهندسة الاجتماعية. وربما يمكن توضيح هذه المقابلة أكثر إذا نظرنا في الاتجاهات المتباينة من قبل التاريخاني أو من قبل المهندس الاجتماعي تجاه النظم الاجتماعية، أعني أشياء مثل شركة تأمين أو قوة منظمة من الشرطة، أو حكومة، أو ربما محل بقالة.

يميل التاريخاني إلى النظر للمؤسسات الاجتماعية بشكل رئيسي من منظور تاريخها، أعني،

أصلها، وتطورها، وأهميتها الحاضرة والمستقبلية. وربما يشدد على أن أصلها إنما يرجع إلى خطة محددة أو تخطيط محدد، وإلى معنى نحو أهداف محددة؛ إما إنسانية أو إلهية، أو ربما يقرر أنها لا تُصمم لخدمة أية أهداف محددة بوضوح، وإنما هي على الأرجح التعبير المباشر لغرائز وشهوات معينة؛ أو ربما يقرر أنها أفادت في وقت ما بوصفها وسائل نحو أهداف محددة، ولكنها قد فقدت هذه الخاصية. أما المهندس الاجتماعي والتكنوقراطي، من جهة أخرى، فإنه قد لا يولي اهتماماً كبيراً بأصل المؤسسات أو بالنوايا الأصلية لمؤسسيها، على الرغم من أنه لا يوجد سبب يجعله لا يعترف بأن "قلة فقط من المؤسسات الاجتماعية مخططة بسوعي، بينما الغالبية العظمى منها قد "نمت" بوصفها نتائج غير مخططة لأفعال إنسانية". ومن المرجح أن يطرح مشكلته على النحو التالي: لو أن كذا وكذا هي أهدافنا، فهل هذه المؤسسات مخططة جيداً ومنظمة بحيث تخدم هذه الأهداف؟ وكمثال على ذلك دعنا نأخذ مؤسسة التأمين. فالمهندس الاجتماعي أو التكنوقراطي لن يقلق كثيراً على مسألة ما إذا كان التأمين قد نشأ بوصفه عملاً استثمارياً؛ أو أن رسالته التاريخية خدمة الصالح العام. بيد أنه ربما يقدم انتقاداً لمؤسسات تأمين معينة، مبنياً مثلاً على زيادة أرباحها، أو شيء مختلف تماماً، ككيفية زيادة الفائدة التي تعود على الجمهور. وسيقترح طرقاً تمكنها من زيادة كفاءتها في خدمة هذا الهدف أو ذاك. وكمثال آخر على مؤسسة اجتماعية، ننظر إلى قوة الشرطة. ربما يصفها بعض التاريخانيين بأنها أداة لحماية الحرية والأمن، في حين يصفها آخرون بأنها أداة لحكم الطبقة وللإضطهاد. ومع ذلك ربما يقترح المهندس الاجتماعي أو التكنوقراطي مقاييس متجعلها أداة مناسبة لحماية الحرية والأمن، وربما يصمم أيضاً تدابيراً تمكنها من التحول إلى سلاح قوي لحكم الطبقة (وفي أداء وظيفته كمواطن، يجد في طلب غايات معينة يعتقد فيها، فقد يطالب بأن هذه الغايات، والتدابير المناسبة يتعين تبنيها. ولكن لأنه تكنوقراطي، فلسوف يميز بعناية بين مسألة الغايات واختيارها، ومسائل متعلقة بالوقائع، أعني المؤثرات الاجتماعية لأي تدبير قد يتبناه).

وإذا ما تحدثنا بعمومية أكثر، يمكننا القول أن المهندس أو التكنوقراطي يطرح نظماً بشكل عقلاني باعتبارها وسائل لخدمة أهداف معينة، وأنه كتكنوقراطي يحكم عليها جميعاً طبقاً لملاءمتها، وفعاليتها، وبساطتها، إلخ. أما التاريخاني فلسوف يذل محاولة على الأرجح لاكتشاف أصل ومصير هذه المؤسسات من أجل تقويم "الدور الحقيقي" الذي لعبته في تطور التاريخ، مقيماً إياها، مثلاً، بوصفها "رغبات إلهية" أو بوصفها "حتمية القدر" أو بوصفها "خدمة لاتجاهات تاريخية هامة"، إلخ. ولا يعني كل هذا أن المهندس الاجتماعي أو التكنوقراطي سيقصر على التأكيد بأن المؤسسات إنما هي وسائل لغايات، أو أدوات؛ وربما يعرف جيداً حقيقة أنها، من وجوه هامة عديدة، مختلفة جداً عن الأدوات الميكانيكية أو الآلات ولن ينسى، مثلاً، أنها "تنمو"

بطريقة مشابهة (على الرغم من أنها ليست متساوية بأية طريقة من الطرق) لنمو الكائنات العضوية، وتلك هي الحقيقة ذات الأهمية البالغة بالنسبة إلى المهندس الاجتماعي. فهو لا يقصر نفسه على فلسفة "أدائية" لمؤسسات اجتماعية. (لن يقول أحد عن يرتقالة أنها أداة، أو وسيلة لغاية، ولكننا غالباً ما ننظر للبرتقال بوصفه وسيلة لغاية، مثلاً، إذا رغبنا في أكله، أو ربما في ابتاعنا له للحصول على رزقنا ومعاشنا).

ويظهر الاتجاهان، التاريخاني، والهندسي الاجتماعي، أحياناً في توافق نمطية. ولعلّ أقدر مثال وأكثره تأثيراً في هذه التوافق هو الفلسفة الاجتماعية والسياسية لأفلاطون. إنها تجمع عناصر تكنولوجية واضحة إلى حد ما في المقدمة، على خلفيتها مجموعة دقيقة من السمات التاريخية النمطية. ومثل هذه التوافق تعتبر مثلة لعدد كبير من الفلاسفة الاجتماعيين والسياسيين الذين قدموا فيما بعد ما يُسمى بالنظم اليوتوبية. وتنصح كل هذه النظم بنوع ما من الهندسة الاجتماعية، لأنها تتطلب تبني بعض الأساليب المؤسسية، والتي قد لا تكون أحياناً واقعية، لتحقيق أهدافها. ولكن عندما نبادر إلى تمحيص هذه الغايات، فإننا كثيراً ما نكشف أنها محددة من خلال التاريخانية. وتعتمد الأهداف السياسية لأفلاطون، على وجه الخصوص، وفي جانب كبير منها، على مذاهبه التاريخية. فأولاً، هدفه الهروب من التدفق الهيراقليطي، الذي يعبر عن نفسه في الثورة الاجتماعية والانحطاط التاريخي. وثانياً، يعتقد أن هذا يمكن إتمامه عن طريق تشييد مدينة فاضلة - حكمة إلى حد يجعلها لا تشارك في الاتجاه العام للتطور التالي. وثالثاً، يعتقد أن نموذج أو أصل مدينته الفاضلة يمكن أن يوجد في الماضي البعيد، في عصر ذهبي موجود في فجر التاريخ، لأنه لو كان العالم يتحلل مع الزمن، إذن لوجدنا الكمال يزداد كلما عدنا أكثر إلى الماضي. فالمدينة الفاضلة شيء ما شبيه باللفّ الأول، الأب الأول للمدن المتأخرة، التي هي، كما كانت، الخلف النحط لهذه المدينة الفاضلة، أو الأصلح، أو "الثالية"، مدينة مثالية ليست مجرد خيال ولا حلم ولا "فكرة في ذهننا"، ولكنها من منظور ثباتها حقيقة أكثر من كل تلك المجتمعات المنحلة والمتدفقة، وعرضة لأن تختفي في أية لحظة.

وهكذا حتى الهدف السياسي لأفلاطون، المدينة الفاضلة، إنما يعتمد إلى حد كبير على نزعة التاريخية. وما هو صحيح لفلسفته في المدينة يمكن أن يمتد، كما أوضحنا من قبل، إلى فلسفته العامة عن "كل شيء"، على نظريته في الصور أو المثل.

5

والأشياء المتدفقة، وكذلك الأشياء المتحللة والمضمحلة هي، مثلها مثل الدولة، نتاج أو أفعال

للأشياء الكاملة، وهي كالأطفال نسخ من أصولها. فالأب أو أصل الشيء المتدفق هو ما يسميه أفلاطون "صورته" أو "نمطه" أو "مثاله". وكما هو الحال من قبل، ينبغي أن نشدد على أن الصورة أو المثال، برغم مُسمَّاه لا يُعدُّ "فكرة في ذهنتنا"، فهو ليس خيالاً، ولا حلمًا، وإنما هو شيء حقيقي. إنه في الواقع حقيقي أكثر من كل الأشياء العادية التي تكون في تدفقٍ، والتي برغم صلابتها الظاهرة، محكوم عليها بالانحطاط؛ لأن الصورة أو المثال إنما هو شيء كامل، لا يفسد.

ولا ينبغي الاعتقاد بأن الصور أو المثل تعيش، كالأشياء الفاصدة أو القابلة للتلف، في مكان وزمان. ولكن هذه الصور أو المثل أزلية في تماسٍ مع المكان والزمان. إذ أنها الأصول أو النماذج للأشياء المولدة والتي تنمو وتضمحل في الزمان والمكان، فلابد أنها كانت على صمد، في بداية الزمن. ولأنها ليست معنا في مكاننا وزماننا، فلا يمكن أن ندركها بحواسنا، كما ندرك الأشياء المتغيرة العادية التي تتفاعل مع حواسنا، والتي تُسمى لذلك "أشياء حسية". فلك الأشياء الحسية، التي هي نسخ أو أطفال لنفس النموذج أو الأصل، تشبه ليس هذا الأصل أو الصورة أو المثال فحسب، ولكنها أيضاً تشابه فيما بينها، كما يتشابه أطفال العائلة الواحدة. وكما يُسمى الأطفال باسم أبيهم، فإن الأشياء الحسية تُسمى باسم أصولها، كما يقول أرسطو، باسم صورها أو مثلها.

وكما يتطلع الطفل إلى أبيه، فيرى فيه مثاله، ونموذجه الأوحد، والتجسيد شبه الإلهي لتطلعاته الذاتية، والتجسيد للكمال، والحكمة، والثبات، والمجد، والفضيلة، والقوة التي خلَّقه قبل أن يبدأ عالاه، والذي يحافظ عليه الآن ويعضده، والذي يوجد بفضله، كذلك ينظر أفلاطون إلى الصور أو المثل. والمثال الأفلاطوني هو الأصل ومصدر الشيء؛ إنه التعليل العقلي للشيء، علة وجوده - المبدأ الثابت، المساند الذي بمقتضاه يوجد. إنه فضيلة الشيء، ومثاله، وكماله.

ولقد طوَّر أفلاطون في تيمائوس، إحدى محاوراته المتأخرة، مقارنةً بين صورة أو مثال صنف الأشياء المحسوسة وبين أب أسرة من الأطفال. وهي على اتفاق شبه تام مع كثير من كتاباته السابقة، والتي تلقي عليها ضوءاً كثيفاً. ولكن في محاوره تيمائوس، يتخطى أفلاطون تعاليمه السابقة بخطوة واحدة حين يمثِّل اتصال الصورة أو المثال بامتداد الشيء - فهو يصف "المكان" المجرد الذي فيه تتحرك الأشياء الحسية (وفي الأصل المكان أو الفجوة بين السماء والأرض) بأنه الوعاء (وبقارنه بأبم الأشياء) الذي تُخلَق فيه في بداية الزمن الأشياء الحسية عن طريق الصور التي تطبع أو تَبصُم نفسها على المكان الخاص، وبالتالي تكسب النُرية شكلها. يكتب أفلاطون: "ينبغي أن ندرك ثلاثة أنواع من الأشياء: أولاً تلك التي تمر بعملية توليد؛ ثانياً، الأشياء التي يحدث فيها التوليد؛ وثالثاً، النموذج الذي تولد فيه الأشياء المولدة على شاكلته. ويمكننا أن نقارن

مبدأ الاستقبال لأم، والنموذج لأب، وانتاجهما لطفل. "ويستمر في وصف النماذج الأولى بدقة أكثر - الآباء، أو الصور أو المثل الثابتة: "ثمة صور أولى ثابتة لا تَخْلُق ولا تَفْنَى... غير مرئية، وغير مُنْزَكة من قبل أي حس، ولا يمكن تأملها إلا عن طريق الفكر الخالص وحده. وينتمي إلى أي واحدة من هذه الصور أو المثل نتاجها أو جنس الأشياء الحسية، "نوع آخر من الأشياء التي تحمل اسم صورتها وتشبهها لها، ولكنها مُنْزَكة حسيًا، ومخلوقة، ودائمة في تدفق، ومولدة في مكان، ثم تختفي من ذلك المكان، وهي مفهومة بالفكر المستند إلى الإدراك الحسي. "أما المكان المجرد الذي يشبه الأم فوصفه كالاتي "ثمة نوع ثالث، الذي هو المكان، وهو أزلي، ولا يمكن أن يفنى، وهو الذي يعتبر كبيت لكل الأشياء المولدة.

وربما يساعدا على فهم نظرية أفلاطون للصور أو المثل مقارنتها ببعض الاعتقادات الاغريقية الدينية. وكما في العديد من الأديان الأولية، فإن البعض على الأقل من الهة الاغريق ليس إلا أجدادا وأبطالا قَبْلين مثاليين - وهي تشخيصات لـ "فضيلة" أو "كمال" القبيلة. وبناءً عليه فإن بعض القبائل والعائلات قد نسبت أجدادها إلى بعض الآلهة. (ولقد قيل إن عائلة أفلاطون تنحدر في نسبها من الإله بوزيلون). ولنا أن نفترض فقط أن هذه الآلهة خالدة أو أزلية، وكاملة - أو هي هكذا تقريباً - في حين أن الرجال العاديين غارقون في تدفق الأشياء جميعاً، وعرضة للتدخل، الذي هو حقاً المصير النهائي لكل فرد من البشر، ولكي نرى أن هذه الآلهة ترتبط بالناس العاديين بنفس الطريقة التي ترتبط بها صور أو مثل أفلاطون بتلك الأشياء الحسية التي هي نسخ لها (أو مديته الفاضلة بالنسبة لمدن مختلفة موجودة الآن) فإن هناك، مع ذلك، اختلاف هام بين الميثولوجيا الاغريقية ونظرية أفلاطون في الصور أو المثل. فعلى حين وقر اليونانيون العديد من الآلهة بوصفها أسلافاً لمختلف القبائل والعائلات، فإن نظرية المثل تتطلب وجود صورة واحدة أو مثال واحد للإنسان؛ لأنها واحدة من العقائد المركزية لنظرية الصور التي ترى أن هناك صورة واحدة فقط لكل "جنس" أو "نوع" من الأشياء. فوحداية الصورة التي تناظر وحداية السلف تُعدُّ عنصراً ضرورياً للنظرية إذا كان مطلوب منها أن تؤدي إحدى وظائفها. ألا وهي تفسير تماثل الأشياء الحسية، باقتراح أن الأشياء المماثلة إنما هي نسخ أو بصمات لصورة واحدة. فلو أنه وجدت صورتان متساويتان أو متماثلتان، لدفعنا هذا التماثل إلى افتراض أن كلا النسختين من أصل ثالث، الذي سيكون في هذه الحالة الصورة الوحيدة والحقيقية، أو كما قال أفلاطون في تيمائوس: "ولسوف يمكن تفسير التشابه، بشكل أدق، ليس بوصفه واحداً من هذين الشيئين وإنما بالرجوع إلى الشيء الأعلى مرتبة الذي يُعتبر نموذجهما الأصلي". وفي الجمهورية، وهي سابقة على تيمائوس، يشرح أفلاطون وجهة نظره بوضوح أكثر، مستخدماً في ذلك مثاله "السريّر الأساسي"، أعني، صورة أو مثال السريّر: "فأله... قد صنع سريراً أساسياً، واحداً فقط، فهو لم ينتج اثنين أو أكثر، ولن يفعل

أبداً . . . لأنه . . . حتى لو صنع الله اثنين، ولا أكثر، فإن سريراً ثالثاً سوف يظهر، أعني الصورة البادية لهذين الاثنين، وسيكون هذا السرير الثالث، وليس الأولين، هو السرير الأساسي .

وتبين الحجة أن الصور أو المثل تزود أفلاطون ليس فقط بأصل أو نقطة بدء لكل التطورات في المكان والزمان (وبصفة خاصة بالنسبة للتاريخ الإنساني) وإنما أيضاً بتفسير للمتشابهات بين الأشياء الحسية لنفس النوع. فإذا كانت الأشياء متماثلة بسبب فضيلة أو صفة تقاسمها، مثل ، الياض أو الصلابة أو الجودة، فإن هذه الفضيلة أو الصفة ينبغي أن تكون واحدة وهي نفسها في كل منها، وإلا فلن تجعلها متماثلة. وهي جميعاً، طبقاً لأفلاطون، تشترك في صورة واحدة أو مثال واحد للياض، إذا كانت بيضاء، وللصلابة، إذا كانت صلبة. إنها تشترك بالمعنى الذي يشترك فيه الأبطال في ممتلكات وهدايا أيهم؛ أو مثل صور عذيلة نادرة طبق الأصل للوحة صدرت جميعاً عن انطباعات شخص واحد لنفس اللوحة، ومن ثم تماثل كل منها الأخرى، وربما تشترك في جمالها مع اللوحة الأصلية.

وحقيقة أن هذه الصور مصممة لتوضيح التماثلات في الأشياء الحسية، ولا تبدو من الوهلة الأولى مرتبطة بأي شكل من الأشكال بالتاريخانية. بيد أنها كذلك، وكما يخبرنا أرسطو، فإن هذا الارتباط حقيقة هو الذي حث أفلاطون على أن يطور نظرية المثل. وسوف أحاول أن أعطي مُجْملًا لهذا التطور، مستعيناً في ذلك بتوضيح أرسطو مع بعض الاشارات التي نجدها في كتابات أفلاطون نفسه.

إذا كانت كل الأشياء في تدفق مستمر، إذن فمن المستحيل أن تقول عنها أي شيء محدد. ولن يكون لدينا معرفة حقيقية بها، ولكن في أحسن الأحوال، ستكون معرفتنا بها مجرد "آراء" غامضة وخداعة. وهذه النقطة، كما نعرف من أفلاطون وأرسطو، أقلق العديد من أتباع هيراقليطس. ولقد علم بارمنيدس، أحد أسلاف أفلاطون الذين أثروا عليه تأثيراً كبيراً، أن المعرفة الخالصة للعلة، كمقابل للرأي الخداع الذي تأتي به التجربة، يمكن أن يكون موضوعها الوحيد هو عالم لا يجري عليه التغير، وأن المعرفة الخالصة للعلة إنما هي التي تُعطى اللثام حقيقة عن مثل هذا العالم. بيد أن عدم التغير وعدم انقسام الحقيقة التي اعتقد بارمنيدس أنه قد اكتشفها خلف عالم الأشياء الغانية، كانا غير متعلقين تماماً بهذا العالم الذي نحيا ونموت فيه. ولذلك كان غير قادر على تفسيرها.

ولم يكن ذلك ليرضي أفلاطون. فمثلما كره وازدرى عالم التدفق الاميريقي هذا، كان، في واقع الأمر، مهتماً به بعمق. فقد كان يريد إزاحة الستار عن سر انحلاله وعن تغيراته العنيفة، وعن تعامته. وداعبه الأمل في أن يكشف وسائل إنقاذه. فكان متأثراً بعمق بمنعج بارمنيدس

المتعلق بعالم ثابت، وحقيقي، وراسخ، وكامل خلف هذا العالم الخيالي الذي يكابد فيه؛ ولكن هذا التصور لم يحل مشكلاته طالما بقي غير متعلق بعالم الأشياء الحسية. فما كان يبحث عنه هو المعرفة، وليس الرأي: المعرفة العقلانية الخالصة لعالم لا يتغير، ولكن، في الوقت نفسه، المعرفة التي يتمكن من استخدامها لبحث هذا العالم المتغير، وخصوصاً، هذا المجتمع المتغير: التغير السياسي، بقوانينه التاريخية العجيبة. طمح أفلاطون إلى الكشف عن سر السياسة الملكية، عن فن حكم الناس.

ولكن بدا من المستحيل أن ينشأ علم دقيق للسياسة مثلما هو الحال في معرفة دقيقة لعالم في تدفق، إذ لم تكن ثمة أشياء ثابتة في الحقل السياسي. فكيف يمكن للمرء أن يناقش أية مسائل سياسية في حين أن معاني كلمات مثل "حكومة" أو "دولة" أو "مدينة" يمكن أن تتغير في كل مرحلة جديدة في التطور التاريخي؟ ولا بد أن تكون النظرية السياسية قد بدت لأفلاطون في مرحلته الهيراقليطية مراوغة ومتقلبة، ولا يمكن أن يُسبر غورها، كما هو الحال في الممارسة السياسية.

وفي هذا الموقف حصل أفلاطون، كما يخبرنا أرسطو، على توجيه هام للغاية من سقراط. فقد كان سقراط مهتماً بالمسائل الأخلاقية، وكان مصلحاً أخلاقياً، عالماً أخلاقياً أزعج كل أنواع الناس، وأرغمهم على التفكير، وعلى التفسير، وعلى أن يعللوا أسباب أفعالهم. واعتاد أن يسألهم ولم يكن يرضى بسهولة عن إجاباتهم. فالرد النمطي الذي كان يتردد - أننا نتصرف بطريقة معينة لأن من "الحكمة"، أو ربما من "الكفاءة" أو "العدل" أو "الورع"، إلخ أن نتصرف بهذه الطريقة - هو الذي حثه أكثر على أن يستمر في أسئلته عما هي الحكمة، أو الكفاءة، أو العدالة أو الورع. وبعبارة أخرى، كان يُدفع إلى البحث في "فضيلة الشيء". لذلك فقد ناقش، على سبيل المثال، الحكمة الموجودة في الحرف والمهن المختلفة، لكي يكشف العوامل المشتركة بين مختلف طرق السلوك المتغيرة والحكمة، وبالتالي اكتشاف ماهية الحكمة، أو ماتعنه الحكمة في واقع الأمر، أو (مستخدماً في ذلك طريقة صياغة أرسطو لها)، ما هو جوهرها. يقول أرسطو: "كان من الطبيعي أن يبحث سقراط عن الجوهر، أي عن فضيلة الشيء أو تحليله العقلي، وعن المعاني الحقيقية والثابتة للألفاظ. وبذلك أصبح أول من أثار مشكلة التعريفات الكلية".

ولقد قورنت بحق محاولات سقراط هذه المتعلقة بمناقشة حدود أخلاقية مثل "العدالة" أو "التواضع" أو "الورع" بمناقشات حديثة عن الحرية (عن طريق مل، مثلاً) و عن السلطة، أو عن الفرد والمجتمع (من قبل كاتلين، مثلاً) ليس ثمة حاجة لافتراض أن سقراط، في بحثه عن المعنى الأساسي والثابت لمثل هذه الألفاظ، قد شخّصها أو تعامل معها كأشياء. إذ يقترح تقرير أرسطو،

على الأقل، أنه لم يفعل ذلك، وأن أفلاطون هو الذي طور طريقة سقراط في البحث عن المعنى أو الماهية إلى طريقة لتحديد الطبيعة الحقة، صورة أو مثال الشيء. فقد استبقى أفلاطون "المذاهب الهيراقليطية التي تذهب إلى أن جميع الأشياء الحسية في حالة تدفق دائم، وأن ليس لدينا معرفة عنها". بيد أنه قد وجد في طريقة سقراط مخرجاً من هذه المشكلات. فعلى الرغم من أنه "ليس ثمة وسيلة لتعريف أي شيء حسي، لأن الأشياء الحسية تتغير دائماً"، فمن الممكن أن توجد تعريفات ومعرفة حقيقية بالأشياء من نوع مختلف. يقول أرسطو: "إذا كان لدى المعرفة أو الفكر موضوع، فسوف يلزم وجود بعض الكيانات الثابتة المختلفة عن تلك التي نحسها."، وهو يشيع عن أفلاطون أنه "أطلق على أشياء هذا النوع الآخر، حيثُذ، اسم الصور أو المثل، وقال إن الأشياء الحسية كانت متميزة عنها، وتُسمى جميعاً بعدها. وإن الأشياء العديدة التي تحمل نفس اسم صورة أو مثال معين توجد بالمشاركة فيها." وينظر وصف أرسطو هذا بشكل كبير حجج أفلاطون ذاته التي أوردها في "تيمائوس"، وكما يبين أن مشكلة أفلاطون الأساسية كانت العثور على طريقة علمية للتعامل مع الأشياء الحسية؛ فأراد أن يحصل على معرفة عقلية خالصة وليس مجرد رأي؛ ولأن المعرفة الخالصة عن أشياء حسية لم تكن متاحة، فقد أُصرَّ، كما ذكر من قبل، على الحصول، على الأقل، على مثل هذه المعرفة الخاصة التي ترتبط، بطريقة ما، بالأشياء الحسية وتطبق فيها. ولقد حققت معرفة الصور أو المثل هذا المطلب، لأن الصور كانت مرتبطة بأشياءها الحسية مثل أب بأطفاله الصغار. إذ كانت الصورة هي الممثل الموضح للأشياء الحسية، ولذلك فيمكن الرجوع إليها في المسائل المهمة المتعلقة بعالم التدفق.

فنظرية الصور أو المثل، طبقاً لتحليلنا، تقوم على الأقل بثلاث وظائف مختلفة في فلسفة أفلاطون. (1) إنها أداة منهجية هامة للغاية، لأنها تتيح المعرفة العلمية الخالصة، بل وحتى المعرفة التي يمكن أن تُطبق على عالم الأشياء المتغيرة التي لا يمكن أن نحصل منها مباشرة على أية معرفة، بل فقط على آراء. وهكذا يُضحى من الممكن أن نبحث في مشكلات المجتمع المتغير، وأن نقيم علماً سياسياً. (2) إنها تقدم الدليل على نظرية التغير والانحلال المطلوبة على وجه السرعة، وكذلك تقدم الدليل على نظرية التولد والانحلال، وعلى التاريخ بصفة خاصة. (3) إنها تفتح طريقاً، في المجال الاجتماعي، نحو نوع ما من الهندسة الاجتماعية؛ وتجعل من الممكن أن نشكل أدوات لتعطيل التغير الاجتماعي، لأنها تقترح رسماً تخطيطياً لـ "حكومة أفضل" تشابه كثيراً مع صورة أو مثال الحكومة التي لا يمكن أن تتحلل.

ولسوف نتعرض للمشكلة (2)، نظرية التغير ونظرية التاريخ في الفصلين الرابع والخامس حيث نعالج فيهما علم الاجتماع الوصفي عند أفلاطون، أي وصفه وتفسيره للعالم الاجتماعي المتغير الذي عاش فيه. أما المشكلة (3)، تعطيل التغير الاجتماعي، فلسوف نتعرض لها في الفصول من

السادس إلى التاسع متناولين البرنامج السياسي عند أفلاطون. وفيما يتعلق بالمشكلة (1) التي هي منهجية أفلاطون، فلسوف نجعلها باختصار في الفصل الحالي، مستدين في ذلك إلى وصف أرسطو لتاريخ نظرية أفلاطون. وأودُّ في معرض هذه المناقشة، أن أضيف هنا ملاحظات إضافية قليلة.

6

إننى أطلق اسم الجوهريات المنهجية لأخصَّ بها وجهة النظر التي يتبناها أفلاطون والعديد من أتباعه، والتي تقول بأن مهمة المعرفة الخاصة أو "العلم" إنما هو اكتشاف ووصف الطبيعة الحقَّة للأشياء، أي حقيقتها المتخفية، أو جوهرها. فقد كان الاعتقاد الذي يميز أفلاطون هو أن جوهر الأشياء الحسية يمكن العثور عليه. ولم يوافق في ذلك، على نحو كامل العديد من الجوهريتين اللاحقين، ومنهم أرسطو على سبيل المثال؛ وإنما هم يتفقون جميعاً معه على تحديد مهمة المعرفة الخاصة لأنها اكتشاف الطبيعة أو الصورة أو الجوهر المتخفي للأشياء المتخفية. كما يتفق جميع هؤلاء الجوهريتين المنهجيين مع أفلاطون في اعتقاده بأن هذه الجواهر قد تكتشف وتميز مساعدة الحدس العقلي، وأن لكل جوهر اسمه الذاتي، وهو الاسم الذي تُدعى به الأشياء الحسية؛ وأنه يمكن وصفه في ألفاظ. وهم يطلقون جميعاً على وصف جوهر الشيء اسم "تعريف". ويمكن أن يكون ثمة طرق ثلاث، طبقاً للجوهريات المنهجية، لمعرفة شيء: "وأقصد أننا يمكننا أن نعرف حقيقته الثابتة أو جوهره، وأننا يمكننا أن نعرف تعريف الجوهر؛ وأننا يمكننا أن نعرف اسمه. وبناء عليه، يمكن صياغة مسألتين حول أي شيء حقيقي؛ فقد يطلق شخص اسماً ويلتمس التعريف، أو قد يطلق التعريف ويلتمس الاسم". وكمثال على هذا المنهج، يستخدم أفلاطون جوهر "الزوجي" كمقابل "الفردى" والعدد يمكن أن يكون شيئاً قابلاً للانقسام إلى أجزاء متساوية. فإن كان قابلاً هكذا للانقسام سُمي العدد "زوجياً"؛ ويصبح تعريف الاسم "زوجي" هو "عدد قابل للانقسام إلى أجزاء متساوية". ... وعندما يُعطى الاسم ونسأل عن التعريف، أو عندما نُعطى التعريف ونسأل عن الاسم، فإننا نتحدث، في كلتا الحالتين، عن جوهر شيء واحد فقط، سواء أسميناه الآن "زوجياً" أو "عدداً قابلاً للانقسام إلى أجزاء متساوية". ويتقدم أفلاطون، بعد هذا المثال، إلى تطبيق هذا المنهج على "برهان" متعلق بالطبيعة الحقَّة للروح، وهو ما سوف يتردد على أسماعنا كثيراً فيما بعد.

ويمكن أن نفهم الجوهريات المنهجية، أعني النظرية التي تقول بأن غاية العلم هي الكشف عن الجواهر ووصفها بواسطة التعريفات، يمكن أن نفهم بصورة أفضل عندما تُقابل بضدِّها، الإسمية المنهجية. فبدلاً من التركيز على كشف ما هو الشيء حقيقته، وتعريف طبيعته الحقَّة، تسعى

الإسمية المنهجية إلى وصف كيف يسلك الشيء في ظروف متنوعة، وخصوصاً، عمّا إذا كانت هناك أية انتظامات في سلوكه. وبعبارة أخرى، ترى الإسمية المنهجية أن هدف العلم إنما يكمن في وصف الأشياء والحوادث التي تقع في مجال خبرتنا، كما تكمن في "تفسير" هذه الحوادث، أعني وصفها بمساعدة القوانين الكلية. وهي ترى في لغتنا، وخصوصاً في تلك القواعد التي تميز بين العبارات المبنية بصورة مناسبة والاستدلالات من جانب، وبين مجرد حشد الكلمات من جانب آخر، والأداة العظيمة للوصف العلمي؛ فهي تنظر للكلمات أكثر على أنها أدوات معينة على تحقيق تلك، وليس كاسماء لجواهر. ولن يفكر المنهجي الإسمي أبداً في أن سؤالاً مثل: "ما هي الطاقة؟" أو "ما هي الحركة؟" أو "ما هي الذرة؟" هو سؤال هام في الفيزياء؛ وإنما سيولي أهمية فائقة لسؤال مثل: "كيف يمكن لطاقة الشمس أن تكون نافعة؟" أو "كيف يتحرك كوكب سيار؟" أو "تحت أي شرط يمكن للذرة أن تشع ضوءاً؟" وبالنسبة لأولئك الفلاسفة الذين يخبرونه أنه قيل أن يجيب على سؤال "ما هو" لا يمكن أن يعلّق كبير أمل على إعطاء إجابات دقيقة عن أسئلة تتعلق بـ "كيف"؛ فإنه سوف يردّ عليهم، إن كان هناك ردّ على الإطلاق، موضحاً أنه يفضل كثيراً الدرجة المتواضعة من الدقة التي يمكن أن يحققها بطرقه عن ذلك التشويش "المتطلع" الذي حققوه بطرقهم.

وكما هو موضح في مثالنا، من الإنصاف القول إن الإسمية المنهجية مقبولة الآن بشكل معقول في العلوم الطبيعية. ومن جهة أخرى فمعظم مشكلات العلوم الاجتماعية، مازالت تعالج بالطرق الجوهريّة. وهذا، في رأيي، أحد الأسباب الرئيسية لتأخرها. بيد أن العديد الذين قد لاحظوا هذا الموقف يحكمون عليه بطريقة مختلفة. إنهم يعتقدون أن الاختلافات في المنهج أمر ضروري، وأنه يعكس اختلافاً "أساسياً" بين "طبائع"، هذين المجالين من البحث.

والحجج التي تُقدّم عادة لدعم وجهة النظر هذه تشلّد على أهمية التغير في المجتمع وتبدي مظاهر أخرى للترعة التاريخية. والحجة النمطية التي تُساق هي أن الفيزيائي يتعامل مع أشياء مثل الطاقة أو الذرات، التي تبدي درجة ما من الثبات رغم تغيرها. فهو يمكنه أن يصف التغيرات في هذه الكيانات الثابتة نسبياً، ولا يحتاج إلى بناء أو كشف جواهر أو صور كيانات ثابتة مشابهة لكي يحصل على شيء ما دائم يمكن وصفه بعبارات محددة. أمّا العالم الاجتماعي ففي وضع مختلف تماماً. إذ أن مجال اهتمامه الكلي يتغير. فلا وجود لكيانات دائمة في المجال الاجتماعي، حيث يقع كل شيء تحت سيطرة الجريان أو التدفق التاريخي. فكيف يمكننا، مثلاً أن ندرس الحكومة؟ وكيف يمكننا أن نمثل بينها مع تنوع المؤسسات الحكومية، الموجودة في أقطار مختلفة، وفي فترات تاريخية مختلفة، دون افتراض أن لها شيء ما جوهرى مشترك؟ فنحن نطلق على مؤسسة ما اسم حكومة إذا كنا نعتقد أنها في جوهرها حكومة، أعني إذا استجابت إلى حدّ ما عن ماهية

الحكومة، وهو الحدس الذي يمكننا صياغته في تعريف. ويتسحب نفس الشيء على الكيانات السوسيولوجية الأخرى، مثل "المدينة". فيلزم أن ندرك جوهرها، كما تقول الحجة التاريخية، وأن نصوغها في شكل تعريف.

وأعتقد أن هذه الحجج الحديثة، شبيهة جداً لتلك المذكورة عالياً، والتي أدت بأفلاطون، وفقاً لرأي أرسطو، إلى مذهبه في الصور أو المثل. والاختلاف الوحيد هو أن أفلاطون (الذي لم يقبل النظرية الذرية ولم يعرف أي شيء عن الطاقة) طَبَّقَ مذهبه في مجال الفيزياء (وبالتالي، على العالم ككل). ولدينا هنا إشارة إلى واقع أن مناقشة مناهج أفلاطون، في مجال العلوم الاجتماعية، قد تكون ذات موضوع حتى في أيامنا هذه.

وقبل الشروع في الانتقال إلى سوسيولوجيا أفلاطون واستخدامه للجوهرانية المنهجية في هذا المجال، أودُّ أن يكون واضحاً كل الوضوح أنني أحصر تناولي لأفلاطون على نزعتة التاريخية، وعلى "مدنيته الفاضلة". لذلك يتعين عليّ أن أحذّر القارئ ألا يتوقع تقدماً لكل فلسفة أفلاطون، أو ما قد يُسمَّى بتناول الأفلاطونية تناولاً معتدلاً ومتوازناً. وموقفي من التاريخي هو موقف عداء صريح، يستند إلى الاعتقاد بأن المذهب التاريخي لا طائل تحته، بل هو أمراً من ذلك، وعليه فإن تقسيمي للمقومات التاريخية للأفلاطونية يُعدُّ تقوياً تقديماً بصورة قوية. وعلى الرغم من إعجابي الشديد بفلسفة أفلاطون، بعيداً عن تلك الأجزاء التي أعتقد أنها سقراطية، فإنني لا أعتبر من مهامي أن أضيف إلى الثناء المتكرر لعبقريته، بل إنني متوجهٌ إلى تحطيم ما هو مؤد، في رأيي، في فلسفته. وأتني سوف أحاول تحليل ونقد الاتجاه الاستبدادي في فلسفة أفلاطون السياسية.

علم الاجتماع الوصفي عند أفلاطون

الفصل الرابع: التغير والسكون

كان أفلاطون أحد أوائل علماء الاجتماع، وقد فاق تأثيره بلا شك كلَّ حد. فهو بالمعنى الذي كان مفهوماً لدى كونت، ومل، وسبنسر لمصطلح "علم الاجتماع"، كان عالم اجتماع؛ بحيث يمكن أن يُقال، أنه طبق بنجاح منهجه المثالي في تحليل الحياة الاجتماعية للإنسان، وقوانين تطورها، وأيضاً قوانين وشروط استقرارها. وعلى الرغم من تأثير أفلاطون العظيم، فلم ينل هذا الجانب من تعاليمه إلا اهتماماً ضئيلاً. ويبدو أن هذا راجع إلى عاملين. أولاً وقبل كل شيء أن معظم ما قدمه أفلاطون في علم الاجتماع كان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بدعاويه الأخلاقية والسياسية بدرجة أغفلت معها عناصرها الوصفية. ثانياً، قوبلت العديد من أفكاره بوصفها مسلّمات لا تقبل الجدل، فكانت مستوعبة ببساطة دون وعي، زمن ثم دون رؤية نقدية. وهذا في الغالب هو الذي جعل لنظرياته الاجتماعية مثل هذا التأثير القوي.

وعلم الاجتماع لدى أفلاطون إنما هو توليفة بارعة من السمل الممزوج بملاحظة ثاقبة لوقائع اجتماعية. أما الركيزة التأملية التي يستند إليها فهي بالطبع نظرية الصور والتدفق الكلي (أو التغير الكلي المتواصل) والانحلال، والتولد، والاضمحلال. ولكن على هذا الأساس المثالي، يشيد أفلاطون نظرية واقعية عن المجتمع تدعو إلى الدهشة، قادرة على تفسير التيارات الرئيسية في التطور التاريخي للدولة - المدينة اليونانية، وبالمثل للقوى الاجتماعية والسياسية المؤثرة في عصره.

1

أما الركيزة التأملية أو الميتافيزيقية لنظرية أفلاطون المتعلقة بالتغير الاجتماعي فقد تمَّ إجمالها بالفعل. إنها عالم الصور أو المثل الثابتة، والتي تنبع عنها عالم الأشياء المتغيرة في المكان والزمان. ولا تُعدُّ الصور أو المثل ثابتة، ولا تتلاشى، ولا تُفسد فحسب، وإنما هي أيضاً كاملة، وصادقة،

وحقيقية، وخيرة. والواقع أن "خيرة" شُرِحت ذات مرة، في "الجمهورية" بأنها "كل شيء يبقى"، و "الشرير" بأنه "كل شيء يتلاشى أو يفسد". فالصور أو المثل الكاملة والخيرة تبقى في الوجود نسخها، الأشياء الحسية، "وهي شيء ما يشبه الأسلاف أو نقاط البدء لكل التغيرات في عالم التدفق". ولقد استخدمت هذه النظرة لتقييم الميل العام والاتجاه الرئيسي لجميع التغيرات في عالم الأشياء الحسية. لأنه إذا كانت نقطة البدء لكل تغير كاملة وخيرة، إذن فالتغير لا يمكن أن يكون سوى حركة فحسب تؤدي بنا بعيداً عن الكامل، والخير، إذن فينبغي أن توجه نحو الناقص والشرير، أي نحو الفساد.

ويمكن توضيح هذه النظرية بالتفصيل. فكلما تشابه الشيء الحسي أكثر مع صورته أو مثاله، كلما كان أقل فساداً، لأن الصور في ذاتها فاسدة. بيد أن الأشياء الحسية أو المخلوقة لا تعدُّ نسخاً كاملة، فلا يمكن في الحقيقة أن توجد نسخة كاملة، لأنها تقليد فحسب للواقع الحقيقي، مظهر ووهم فقط، وليست الحقيقة. وبناءً عليه، فليس ثمة أشياء حسية (اللهم إلا أكثرها جودة) ربما هي التي تشابه مع صورها بدرجة كافية تجعلها ثابتة. يقول أفلاطون: "الثبات المطلق والدائم مخصص فقط لأكثر الأشياء جميعاً تقدسياً وإجلالاً، ولا تبلغ الأجسام هذه المرتبة". فالشيء الحسي أو المخلوق - مثل شيء فيزيائي، أو نفس إنسانية - إذا كان نسخة جيدة، فقد يتغير قليلاً جداً في بادئ الأمر؛ ولا تزال أكثر التغيرات أو الحركات قلماً - حركة النفس - ذات طبيعة "إلهية" (على العكس من التغيرات من الدرجتين الثانية والثالثة). بيد أن كل تغير، مهما كان صغيراً، ينبغي أن يجعله مختلفاً، ومن ثم أقل كمالاً، بخفض درجة تشابهه لصورته. وبهذه الطريقة، يضحى الشيء أكثر قابلية للتغير مع كل تغير، وأكثر قابلية للفناء، لأنه يصبح مبتعداً أكثر من صورته التي هي، سبب ثباته وسبب سكونه، كما يقول أرسطو، الذي يشرح مذهب أفلاطون على النحو التالي: "تولد الأشياء بمشاركتها في الصورة، وتتحلل بفقدانها الصورة". وعملية التحلل هذه، التي تكون بطيئة في بادئ الأمر، ثم تتسارع بعد ذلك - وقانون الانحدار أو السقوط هنا - وصفه أفلاطون بصورة روائية في كتاب القوانين، آخر محاوراته العظيمة. وتعالج الفقرة مبدئياً مصير النفس الإنسانية، بيد أن أفلاطون يوضح أنها تنسحب على جميع الأشياء التي "تشارك في النفس"، وهو يعني بذلك جميع الأشياء الحية. فهو يكتب قائلاً: "تتغير جميع الأشياء التي تشارك في النفس... وفي تغيرها هذا تكون محمولة بترتيب وقانون المصير. فكلما صغر التغير في خصائصها، كلما كان انحدارها الابتدائي في مستوى رتبها أقل شأنًا. ولكن عندما يزداد التغير، وبالتالي الظلم والجور، فإنها تهبط عندئذ - وتسقط في الهاوية. وفيما يعرف بالمناطق الجهنمية. "وفي متابعة الفقرة، ينوه أفلاطون بإمكانية أن تصل النفس الموهوبة بحظ وافر من الفضيلة إلى قمة الفضيلة، وأن تنطلق إلى المنطقة

المُجَلَّة بقوة إرادتها الذاتية، إذا كانت في صحبة الفضيلة المقدسة. * وسوف نتناقص في الفصل الثامن مشكلة النفس الاستثنائية التي يمكنها أن تنقذ نفسها - وربما نقوماً أخرى أيضاً - من القانون العام للمصير. وفي موضع سابق من القوانين، يوجز أفلاطون مذهبه في التغير على النحو التالي: "كلُّ تغير، مهما كان، عدا التغير الذي يصيب شيئاً شريراً، يُعدُّ أكثر أهمية من كل الأخطار المخادعة التي يمكن أن تُحدِّقَ بشيء - سواء كان في ذلك الوقت تغيراً لفصل أو ربيع أو غذاء الجسم أو خاصية النفس". * وبضيف، بغرض التأكيد: "وتسحب هذه العبارة على كل شيء، فيما عدا الاستثناء الوحيد، كما ذكرت منذ حين، ألا وهو الشيء الشرير". * وباختصار، يعلمنا أفلاطون أن التغير شرير وأن السكون مقدس.

ونرى الآن أن نظرية أفلاطون المتعلقة بالصور أو المثل، إنما تستدعي انجهاً معيناً في تطور العالم المتدفق دوماً. إنها تؤدي إلى القانون الذي يقرُّ أن قابلية كل الأشياء للفساد في ذلك العالم يجب أن تزداد باستمرار. وهو ليس قانوناً صارماً عن تزايد الفساد عموماً، بقدر ما هو قانون عن تزايد القابلية للفساد، بيد أن التطورات الاستثنائية في الاتجاه الآخر غير مستبعدة. أن تتمكن النفس الخيرة إلى حد بعيد - كما تشير الاقتباسات الأخيرة - من تحدي التغير والانحلال، وأن تتحسن حالة شيء شرير جداً مثل مدينة شريرة جداً، عن طريق تغييره. (ولن يكون لمثل هذا التحسن أي قيمة، إلا بقدر محاولتنا أن نجعله مستديماً، أي بتعطيل كل شيء إضافي)

وتوافق قصة أفلاطون في تيمائوس عن أصل الأنواع، توافقاً تاماً مع هذه النظرية العامة. فالإنسان، وفقاً لهذه الفقرة، هو أسمى الحيوانات، وهو الذي خلقته الآلهة، أما الأنواع الأخرى فقد تولدت منه بعملية الفساد والتحلل. أولاً، ينحطُّ نوع معين من الرجال - الجبناء والأشقياء - إلى نساء. أما أولئك الذين يفتقرون إلى الحكمة فينحطُّون رويداً رويداً إلى حيوانات من رتبة أقل. فنسمع أن الطيور جاءت من خلال تحول أناس غير مؤذنين، ولكن متساهلين جداً، ممن وضعوا ثقتهم التامة في حواسهم، "أما الحيوانات البرية فقد تحلَّرت من رجال لم يولوا اهتماماً بالفلسفة". * وأما الأسماك بما في ذلك الصدفيات "فقد تحللت من أكثر الرجال حماقة وغباء و... حقارة".

ومن الواضح أن هذه النظرية يمكن أن تنطبق على المجتمع الإنساني، وعلى تاريخه. إنها تشرح عندئذ قانون هزبود المشائم في التطور، قانون الانحطاط التاريخي. فإذا كنا نصدِّق تحقيق أرسطو (الموجز في الفصل الأخير)، إذن لكانت نظرية الصور أو المثل قد أدخلت أصلاً لكي تلتمح مع مطلب منهجي وهو المطلب الذي يسعى إلى معرفة خالصة أو عقلانية، والتي تُعدُّ مستحيلة في حالة كون الأشياء الحسية في تدفق. نرى الآن أن لتلك النظرية مدلولاً أكثر من ذلك.

فعلاوة على تلاقي هذه المتطلبات المنهجية، فإنها تقدم نظرية في التغير، تفسر الاتجاه العام لتدفق كل الأشياء الحسية، وبذلك الميل التاريخي للانحلال الذي يظهر في الإنسان وفي المجتمع الإنساني. (ولا تزال تقدم ما هو أكثر، كما سنرى في الفصل السادس، فنظرية الصور تحدد اتجاه المتطلبات السياسية عند أفلاطون أيضاً، بل ووسائل تحقيقها). فإذا كانت فلسفات أفلاطون قد انبثقت، فيما اعتقد، مثلما هو الحال مع هيراقليطس من خبرتهما الاجتماعية، وخصوصاً من خبرة الحرب الطبقية، والشعور المثلّ بأن عالمهما الاجتماعي كان سائراً إلى التمزق، إذن فبمقدورنا أن نفهم لماذا لعبت نظرية الصور مثل هذا الدور الهام في فلسفة أفلاطون عندما وجد أنها كانت قادرة على تفسير التوجه نحو الانحلال. ولعلّه قد رَحَّبَ بها كحل للغز محير للغاية. وفي حين لم يكن هيراقليطس قادراً على أن يطلق حكماً بالإدانة الأخلاقية المباشرة لمسار التطور السياسي، وجد أفلاطون، في نظرية الصور، الأساس النظري لحكم متشائم في نفس اتجاه هزبود.

يبد أن عظمة أفلاطون كعالم اجتماع لا تتمثل في تأملاته العمومية والمجردة عن قانون الانحلال الاجتماعي، وإنما يتمثل في غزارة وثراء ملاحظاته. فضلاً عن الحلة المدهشة لحده الاجتماعي. فقد رأى أشياء لم يتسن لأحد أن يراها قبله، ولم يعاد اكتشافها إلا في عصرنا الحالي. وكمثال على ذلك يمكننا أن نشير إلى نظريته في البدايات الأولية للمجتمع، للنظام الأبوي العشائري، وعموماً، إلى محاولته إيجاز الفترات النمطية في تطور الحياة الاجتماعية. ومثال آخر هو تاريخية أفلاطون الاجتماعية والاقتصادية، وتأكيداته على الخلفية الاقتصادية للحياة السياسية والتطور التاريخي، وهي النظرية التي أعاد أحياؤها ماركس تحت اسم "المادية التاريخية". ومثال ثالث هو قانون أفلاطون المدهش المتعلق بالثورات السياسية، والذي وفقاً له يفترض مقدماً أن جميع الثورات إنما هي نتيجة لطبقة (أو "صفوة") حاكمة مفككة؛ وهو القانون الذي يشكل أساس تحليله لوسائل إبطال التغير السياسي وخلق توازن اجتماعي، وهو القانون الذي أعيد اكتشافه حديثاً من قبل منظري التزعة الاستبدادية، وخصوصاً من قبل باريتو.

ولسوف أقدم الآن مناقشة أكثر تفصيلاً لهذه النقاط، وخصوصاً النقطة الثالثة المتعلقة بنظرية الثورة والتوازن.

2

والمحاورات التي يناقش فيها أفلاطون هذه المسائل هي، حسب الترتيب الزمني، الجمهورية، وهي المحاورة التي سُميت في تاريخ متأخر كثيراً رجل الدولة the Statesman أو السياسي

Politicus، والقوانين، وهي أحدث وأطول مؤلفاته. وثمة اتفاق كبير، رغم اختلافات طفيفة معينة بين هذه المحاورات، والتي تُعدّ من بعض الوجوه متوازية، ومن بعضها الآخر متضمنة كل منها للآخرى. فالقوانين، على سبيل المثال، تتعرّض لقصة انحطاط وسقوط المجتمع الإنساني كتعليل لاندماج فترة ما قبل التاريخ الاغريقي في التاريخ بدون أي انقطاع فيه؛ في حين تقدم الفقرات المتوازية في الجمهورية، وبطريقة مجردة أكثر، موجزاً نسقياً لتطور الحكومة، أما السياسي، وهي أكثر تجريدًا، فتعطي تصنيفاً منطقياً لأنماط الحكم، مع إشارات قليلة لأحداث تاريخية. وتصوغ القوانين، بالمثل، المظهر التاريخي للبحث بصورة واضحة جداً. إذ يسأل أفلاطون في ذلك الموضع، رابطاً هذا السؤال بسؤال آخر: "ما هو النموذج الأصلي، أو أصل الدولة؟"، "أليست أفضل وسيلة للبحث عن إجابة عن هذا السؤال... التأمل في نمو الدول على اعتبار أنها تتغير إما تجاه الخير أو تجاه الشر؟" بيد أنه ضمن حدود المذاهب السومبولوجية، يبدو الاختلاف الرئيسي الوحيد ناشئاً عن صعوبة تأملية خالصة يبدو أنها قد أفلقت أفلاطون. فعلى افتراض أن نقطة البداية في التطور هي دولة كاملة ومن ثم غير قابلة للفساد، فقد اكتشف أنه من الصعب أن تفسر التغير الأول، سقوط الإنسان، كما كان، والذي يقرر أن كل شيء يمضي. ولسوف نعلم، في الفصل التالي، عن محاولة أفلاطون لحل هذه المشكلة. بيد أننا ستقدم أولاً مسحاً عاماً لنظريته في التطور الاجتماعي.

فطبقاً للجمهورية، يُعدّ الشكل الأصلي أو الأولي للمجتمع، وفي الوقت نفسه، للشكل الذي يشبه صورة أو مثال دولة إلى حد بعيد، "الدولة الفاضلة"، ذو قرابة أو نسب لأحكم الناس وأكثرهم شبهاً بالآلهة. لذلك فهذه المدينة - الدولة المثالية تُعدّ قريبة إلى الكمال بدرجة يصعب معها فهم كيف يمكن لها أن تتغير على الإطلاق. ومع ذلك، فالتغير يحدث؛ ومعه يدخل نزاع أو صراع هيراقليطس، القوة الدافعة لكل حركة. وطبقاً لأفلاطون، فإن النزاع الداخلي، الصراع الطبقي، الناشئ عن الحرص على المصلحة الشخصية، وخصوصاً المصلحة الشخصية المادية أو الاقتصادية، هو القوة الرئيسية لـ "ديناميكا الاجتماعية". والصيغة الماركسية التي تعتبر أن "تاريخ كل المجتمعات الموجودة حتى الآن، إنما هو تاريخ للصراع الطبقي". تلائم النزعة التاريخية لأفلاطون، تقريباً مثلما تلائمها عند ماركس. فالفقرات أو المعالم الأربعة الأكثر بروزاً "في تاريخ الانحلال السياسي" وفي الوقت نفسه، "التشكيلات الأكثر أهمية للدول الموجودة" توصف من قبل أفلاطون على النحو التالي. أولاً، تأتي الدولة "الديمقراطية" أو "الديموقراطية"، وهي حكم النبيل الذي يبحث عن السؤدد والشهرة، ثانياً، الأوليجاركية**، وهي حكم العائلات

* وهي حكومة مبنية على أساس الثروة أو حب للجد. (الترجم)

** أو حكم الأقلية، وهي حكومة تهيمن عليها جماعة صغيرة همها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية. (الترجم)

الغنية، " يليها في الترتيب مولد الديمقراطية " وهي حكم الحرية التي تعنى عدم الخضوع للقانون ويأتي أخيراً "الحكم الاستبدادي .. المرض الرابع والأخير للمدينة" .

وكما يمكن أن يفهم من الملاحظة الأخيرة، يتطّلع أفلاطون للتاريخ الذي يُعدُّ بالنسبة له تاريخاً للانحطاط الاجتماعي، كما لو كان تاريخاً للمرض - والمرضى هو المجتمع؛ وكما سنرى فيما بعد، ينبغي على رجل الدولة أن يكون طبيياً (والعكس بالعكس) - متقدماً، معالجاً أو مداوياً. وكما أن وصف التطور النمطي لمرض ما لا ينطبق على كل مريض بذاته، كذلك لا يُرَاد من نظرية أفلاطون التاريخية أن تنطبق على تطور كل مدينة بذاتها. بل إن المقصود منها هو وصف كل من المسار الأصلي للتطور الذي تتولّد منه الصور الرئيسية للانحطاط الدستوري، والمسار النمطي للتغير الاجتماعي. ولعلنا نفهم من ذلك أن أفلاطون هدف إلى تأسيس نسقٍ للفترات التاريخية، المحكومة بقانون التطور، وبعبارة أخرى، هدف إلى وضع نظرية تاريخانية للمجتمع. ولقد أحيا روستو هذه المحاولة، وعاد كونت وميل، وهيجل وماركس إلى إحيائها بأسلوب جديد؛ ولكن بالنظر إلى الدليل التاريخي المتاح حينذاك كان نسق أفلاطون للفترات التاريخية أكثر جودة من أي من هؤلاء التاريخانيين المُحدثين. (إذ يقع الاختلاف الرئيسي في تقييم المسار الذي يتخذه التاريخ. فعلى حين أدان أفلاطون الأرستقراطي التطور الذي وصفه، أطرى عليه هؤلاء المؤلّفون المحدثون، معتقدين، وهم منخدعون في ذلك، أنه قانون التقدم التاريخي).

وقبل أن نبحث بتفصيل في مدينة أفلاطون الفاضلة، سأقدم عرضاً موجزاً لتحليله للدور الذي تلعبه الدوافع الاقتصادية والصراع الطبقي في عملية الانتقال بين أشكال الانحطاط الأربعة للدول. يُقال إن الشكل الأول الذي تتحلل فيه المدينة الفاضلة، الديمقراطية، حكم النبلاء الطموحين، شبيه من كل الوجوه تقريباً للمدينة الفاضلة ذاتها، فمن الأهمية بمكان أن نلاحظ أن أفلاطون قد مآل صراحة بين أفضل وأقدم الدول الموجودة وبين الدستور الدوري* لإسبرطة وكريت، فهاتان الأرستقراطيتان القبلتان قد مثلتا في الواقع أقدم الأشكال المعروفة للحياة السياسية في اليونان. وقد وردَ معظم الوصف الممتاز الذي أورده أفلاطون عن دستور كل منهما في بعض أجزاء وصفه للمدينة الفاضلة أو الكاملة، والتي تُعدُّ الديمقراطية شبيهة لها. (من خلال مذهبه في المماثلة بين إسبرطة والمدينة الفاضلة**، أصبح أفلاطون أحد أكثر المروجين الناجحين لما أُحبُّ أن اسميه "الأسطورة العظمى لإسبرطة" - وهي أسطورة دائمة وذات تأثير تتحدث عن تفوق دستور إسبرطة ونهج حياتها).

* الدوري هو أحد لُبّاء شعب غزا بلاد اليونان حوالي القرن ١٢ ق.م، واستقر في دوريس ولاكونيا. (المترجم)

** نفضل ترجمة الدولة الكاملة Perfect State المدينة الفاضلة best city، وذلك لأنها مألوفة للقارئ العربي، خصوصاً وأن المصطلحين متماثلان. (المترجم)

والاختلاف الرئيسي بين المدينة الفاضلة أو المثالية وبين التيموقراطية، هو أن الأخيرة تشتمل على عنصر عدم الاستقرار؛ فالطبقة البطرياركية* الحاكمة التي كانت متحدة فيما سبق، أضحت الآن مفككة، وهو التفكك الذي يؤدي إلى الخطوة التالية، إلى تحللها إلى أوليجاركية. وبسبب الطموح يحدث التفكك. فأولا كما يقول أفلاطون متحدثا إلى التيموقراطي الشاب "إنه يسمع أنه تشتكي من أن زوجها ليس أحد الحكام". ومن ثم يصبح طموحاً وتوَّاقاً للتميز. بيد أن العامل الحاسم في حدوث التغير التالي هو التوجهات الاجتماعية ذات الطابع التنافسي والاستثنائي. يقول أفلاطون "يجب بنا أن نصف كيف تتحول التيموقراطية إلى أوليجاركية.. حتى الرجل الأعمى يمكنه أن يرى كيف تتحول.. إنه بيت المال الذي يحطّم هذا الدستور، إنهم (أي التيموقراطيون) يبدأون باختلاق الفرص لإظهار وإتفاق النقود، ولهذا الغرض يخرقون القوانين ويخرجون عليها هم وزوجاتهم..، وكل منهم يحاول إقصاء الآخرين". وبهذه الطريقة ينشأ الصراع الطبقي الأول: وهو الصراع الذي يدور بين الفضيلة والمال، أو بين أساليب البساطة الاقطاعية الوطيدة منذ القدم، والأساليب الحديثة للثراء. ويكتمل الانتقال إلى الأوليجاركية عندما يسن الأغنياء قانوناً نصّه "يحرم من الوظيفة العامة كل أولئك الذين لا تصل مواردهم المالية إلى القيمة المعلنة. وهذا التغير يفرض بقوة السلاح إذا لم تفلح وسائل التهديد والابتزاز".

وتأسيس الأوليجاركية أصبحت إمكانية نشوب حرب أهلية بين الأوليجاريين والطبقات الأكثر فقراً قاب قوسين. أدنى؛ "فمثل جسم عليل.. يتصارع أحيانا مع نفسه..، يكون الحال هكذا مع مدينة عليلة. إنها تصارع المرض وتشعل الحرب على نفسها متعللة بأنفه الذرائع، فعندما يسعى أحد أطراف النزاع أو آخر لتلقي مساعدة من الخارج، الطرف الأول من مدينة أوليجاركية، والطرف الآخر من مدينة ديموقراطية، فهل يمكن لكل هذه المدينة العليلة ألا تشعل - بين الحين والآخر - أوار حرب أهلية، حتى ولو لم تطلق أية مساعدة من الخارج؟" وتسفر هذه الحرب الأهلية عن ولادة الديموقراطية: "وتولد الديموقراطية.. عندما يفوز الفقير بأصحاب عهد القوة والسلطان، فيعمل في بعضهم قتلاً، ويعاقب الآخرين، ويتقاسم مع البقية الباقية حقوق المواطنة، وتقلد الوظائف العامة، في حدود المساواة..".

والحقيقة أن وصف أفلاطون للديموقراطية كان مفعماً بالحياة، لكنه محاكاة تهكمية شديدة العداء وغير عادلة للحياة السياسية في أثينا، وللعقيدة الديموقراطية التي كان قد وضع صياغتها - قبل مولد أفلاطون بثلاث سنوات - برقليس وبطريقة لم يكن لأحد أن يبرّز فيها. (ولسوف يناقش

* التي تقوم على نظام اجتماعي يتميز بسلطة الأب المطلقة على العشيرة أو الأسرة وبانتساب الأبناء إليه. (المترجم)

برنامج برقليس في الفصل العاشر). ويُعدُّ وصف أفلاطون ضرباً من ضروب الدعاية السياسية، ويمكننا أن نقيم مدى الضرر الذي يمكن أن يكون قد أحدثه إذا لاحظنا مثلاً أن رجلاً مثل آدم، وهو عالم ممتاز وناشر لمحاورة الجمهورية، عاجز عن مقاومة بلاغة أفلاطون في الخط من شأن مسقط رأسه. يكتب آدم: "يُعدُّ وصف أفلاطون لتكون الرجل الديمقراطي أحد أكثر القطع الأدبية روعة وفخامة في مجال الأدب قاطبة، سواء أكان قديماً أم حديثاً". وعندما يستمر نفس الكاتب في القول: "إذ أن وصف الرجل الديمقراطي بأنه حرياء المجتمع الإنساني يُعدُّ وصفاً نابضاً بالحياة في كل عصر"، نترك عندئذ أن أفلاطون قد أفلح على الأقل في أن يجعل هذا المفكر معادياً للديموقراطية، وقد نتساءل كم من الضرر يأتري أحدثته كتاباته السامة عند عرضها بدون نقد إلى عقول أقل بساطة وحصافة...

ويبدو في أحوال كثيرة عندما يصبح أسلوب أفلاطون، وباستخدام عبارة آدم "فيضاناً ممتلئاً ينساب بالأفكار والصور والألفاظ الرفيعة"، فهو يغلو في حاجة ماسة إلى عبادة يخفي بها الأسماك البالية لحجته، أو حتى، وكما في حالتنا الراهنة، الافتقار الكامل للحجج العقلانية. وهو في معرض الدفاع عنها يستخدم حرية تعسفية، وحرية يساء استخدامها، والمساواة أمام القانون بغير نظام، مماثلاً بذلك بين الحرية واللاقانون. فقد وصف الديموقراطيون بأنهم مبتزون وبخلاء، وبأنهم متغطرسون متمردون على القانون، وبلا حياء، وبأنهم مفترسون، وبأنهم حيوانات وحشية بغيضة، وبأنهم مثل كل نزوة مشبعة، يحيون فقط من أجل الملذات والمتع الحسية، ومن أجل الرغبات التافهة اللذيذة. كانت طريقة هيراقليطس للتعريض بهم هي (أنهم يملأون بطونهم كالبهائم). إنهم متهمون بجعلهم التبجيل حماقة... وضبط النفس جبن... أما الاعتدال والاتفاق بحكمة فيعتبرونهما دناءة وجلافة، إلى آخره. يقول أفلاطون، عندما يبدأ فيضان شتائمه البلاغية في الخفوت؛ "وثمة توافه أكثر من هذا النوع: المعلم الذي يخشى ويتملق تلاميذه. والرجل الذي يتماشى مع الشباب، لكي يتجنب الظهور بمظهر الفظ الاستبدادي". (إنه أفلاطون معلّم الأكاديمية الذي يضع هنا على لسان سقراط، متناسياً أن الأخير لم يكن أبداً معلماً، وأنه حتى بوصفه رجلاً متقدماً في السن لم يكن أبداً يظهر بمظهر الفظ أو الاستبدادي. بل لقد كان دائماً محبوباً ولم "يهبط بنفسه إلى مستوى الشباب"، وإنما يعاملهم، كما عامل أفلاطون الشاب، بوصفهم رفاقه وأصدقاءه. ولدينا سبب للاعتقاد، أن أفلاطون نفسه كان أقل استعداداً أن "يهبط بنفسه"، ويتناقص الأمور مع تلاميذه). ويستطرد أفلاطون قائلاً: "ولكن قمة كل هذا القدر الوفير من الحرية نبلغه عندما يصبح كل واحد من العبيد، ذكراً كان أو أنثى، من الذين تمّ شراؤهم في السوق يصبحون أحراراً كالذين يملكونهم... ولكن ماهو التأثير التراكمي لكل ذلك؟ أن أضحت قلوب المواطنين مرهفة جداً

لدرجة أنها تُثار من مجرد رؤية أي شيء كالعبودية، ولا يطبقون خضوع أي شخص لها بحيث لا يفرض أي شخص سيطرته عليهم" وهنا، بعد كل هذا، يقدم أفلاطون التبجيل لمدينته الأصلية حتى ولو بدون قصد. وسيظل واحداً من أعظم انتصارات ديموقراطية أثينا، أنها قد عاملت عبيدها بطريقة إنسانية، وأنها قد وصلت إلى مرحلة قريبة للغاية من إلغاء العبودية، كما يشهد أفلاطون نفسه، وذلك على الرغم من الدعاية غير الإنسانية لفلاسفة مثل أفلاطون وأرسطو.

والأكثر جدارة هو وصف أفلاطون للحكم الاستبدادي، وعلى وجه الخصوص الانتقال إليه، على الرغم من أن ذلك أيضاً كان بدافع الكراهية. فهو يصرُّ على أنه يصف أشياء قد رآها بنفسه، ولا شك، أن الإشارة إنما هي تجارية في بلاط ديونيس الأكبر، طاغية سيراكوزا. ويقول أفلاطون أن الانتقال من النظام الديموقراطي إلى الحكم الاستبدادي إنما يتمُّ حدوثه يسيراً أكثر عن طريق قائد شعبي يعرف كيف يستغل التنافر الطبقي القائم بين الغني والفقير في ظل دولة ديموقراطية، وينجح في تشكيل حرس أو جيش خاص يدين له بالولاء. أما الناس الذين كانوا قد هَلَّلُوا له في بادئ الأمر بوصفه بطلاً للحرية، فسرعان ما يرحلون تحت نير العبودية، ويتعين عليهم حينئذ أن يحاربوا من أجله في "حرب تلو أخرى يسعى إلى إشعالها". كي يجعل الناس يشعرون بالحاجة إلى قائد عام". مع الحكم الاستبدادي، تصل الدولة إلى قمة اللئالة.

ويمكن أن نجد في محاوره السياسي عرضاً مجعلاً شبيهاً بما سبق إلى حد كبير لمختلف أشكال الحكم، حيث يناقش أفلاطون "أصل الطاغية والملك، والأوليباركيات، والارستقراطيات، والديموقراطيات". ونجد مرة أخرى أن أشكال الحكومات الموجودة تُفسَّر بوصفها نسخاً باهتة للنموذج أو للصورة الحقَّة للدولة، المدينة الفاضلة، مقياس كل الأشياء المقلَّدة، الذي يُقال إنه وجد في العصور القديمة لكرونوس والد زيوس. وأحد الفروض يتمثل في أن أفلاطون هنا يميز بين أنماط ستة للدول الباهتة، بيد أن هذا الفرض غير ذي أهمية، خصوصاً لو تذكرنا أن أفلاطون يقول في الجمهورية إن الأنماط الأربعة المناقشة لا تغطي كل الاحتمالات، وأنه توجد بعض المراحل المتوسطة. ويتمُّ التوصلُ إلى الأنماط الستة في السياسي أولاً بالتمييز بين ثلاثة أشكال للحكم، حكم الرجل الواحد، وحكم القلة، وحكم الكثرة، ثم يتمُّ تقسيم كل هذه الأشكال إلى نظامين أحدهما جيد نسبياً والآخر سيئ، وفقاً لما إذا كان تقليد أم لا "للأصل الوحيد الحق" عن طريق استنساخ وحفظ قوانينه القديمة. وبهذه الطريقة يميز بين أشكال ثلاثة محافظة على القديم أو قانونية، وأشكال ثلاثة أخرى دنيئة تماماً أو غير قانونية. أما الأشكال الثلاثة القانونية فهي بترتيب جدارتها، الموناركية والارستقراطية وشكل محافظ من الديموقراطية. بيد أن النظام يتغيَّر إلى شكله غير القانوني ثم يتدهور أكثر، عبر النظام

الأوليغاركي، والحكم غير القانوني للأقلية، إلى حكم غير قانوني للفرد، الطاغية، وهو، كما قال أفلاطون في الجمهورية يعتبر أسوأها جميعاً.

ولا يلزم أن يكون ذلك الطغيان، الدولة الأكثر شراً، نهاية التطور المشار إليه في فقرة في القوانين التي، تكرر جزئياً، وترتبط جزئياً بقصة السياسي. فأفلاطون يهتف هناك قائلاً: "أعطني دولة يحكمها شاب طاغية.. وأن يكون، لحسن حظه، معاصراً لمُشرع عظيم، وأن يقابله بصدقة ما سعيدة. فما الذي يمكن للإله أن يقدمه أكثر من ذلك لمدينة يريد لها أن تكون سعيدة؟" قد يُعاد تشكيل الحكم الاستبدادي، الدولة الأكثر شراً، بهذه الطريقة. (ويتفق هذا مع الملاحظة التي ذكرت في القوانين، والمقتبسة عالياً، من أن كل تغيير إنما هو شر "ما عدا تغيير الشيء الشرير"). وثمة قليل من الشك في أن أفلاطون، عند حديثه عن المشرع العظيم والطاغية الشاب، كان يفكر في نفسه وفي تجاربه المتعددة مع الطغاة الشباب وخصوصاً محاولاته إصلاح طغيان ديونيس الشاب على سيراكوذا. ولسوف تُناقش هذه التجارب المشؤومة فيما بعد.

وأحد الاعتراضات الرئيسية على تحليل أفلاطون للتطورات السياسية هي التأكيد على القوة المحركة لكل التغيرات التاريخية. وفي القوانين، بوشر المسح التاريخي صراحة من منظور هذا الهدف. "ألم تنشأ آلاف لا تحصى من المدن في ذلك العصر.. وألم تكن كل منها خاضعة لكل أنواع الحكم؟.. قدعوننا، لو كان في مقدورنا، أن نتفهم سبب كل هذا التغيير. أمل أن أتمكن بذلك من كشف سر كلا من ميلاد الدساتير، وأيضاً تغييرها". وكتيجة لهذه البحوث يكشف أن القانون السوسيولوجي بأن الشقاق الداخلي، والصراع الطبقي الناتج عن تنافر المصالح الاقتصادية، إنما هو القوة المحركة لكل الثورات السياسية. بيد أن صياغة أفلاطون لهذا القانون الأساسي تذهب إلى أبعد من ذلك. فهو يصر على أن الانشقاق الداخلي وحده في الطبقة الحاكمة ذاتها يمكن أن يضعفها إلى درجة تطيح بحكمها؛ "فالتغيير في أي دستور إنما يحدث، بلا استثناء، في الطبقة الحاكمة ذاتها، و فقط عندما تصبح هذه الطبقة مسرحاً للشقاق". وهذه صياغته في الجمهورية، أما في القوانين، فهو يقول (ومن الممكن الإشارة إلى هذه الفقرة من الجمهورية): "كيف يمكن لأي شخص أن يقضي على ملكية أو أية صورة أخرى من الحكم، إن لم يكن من الحكام أنفسهم؟ أنسينا ما قلناه منذ قليل، عند تناولنا لهذا الموضوع، كما نسينا في اليوم السابق؟". ويُعد هذا القانون السوسيولوجي، مع الملاحظة بأن المصالح الاقتصادية هي أيضاً أكثر الأسباب احتمالاً للانشقاق، هو مفتاح أفلاطون لحل كل لغز التاريخ.. بل هو أكثر من ذلك. فهو مفتاح تحليله للشروط الضرورية لترسيخ التوازن السياسي، أعني، لكبح التغيير السياسي. وهو يفترض أن هذه الشروط ملزمة في المدينة الفاضلة أو الكاملة في العصور القديمة.

كان وصف أفلاطون للمدينة الكاملة أو الفاضلة يُفسَّر عادة بأنه البرنامج اليوتوبي للتقدمي. وعلى الرغم من تأكيدات المتكررة، في الجمهورية وتيماوس وكريتياس بأنه إنما يصف الماضي البعيد، وعلى الرغم من الفقرات الموازية في القوانين التي لها أهداف تاريخية جلية، فيفترض غالباً أن هدفه إعطاء وصف مقنع للمستقبل. ولكنني أعتقد أن أفلاطون قصد ما قاله، وأن خصائص عديدة لمدينته الفاضلة، وبصفة خاصة كما هي موصوفة في الكتب من اثنين إلى أربعة من الجمهورية، مقصود منها (مثل تعليقاته للمجتمع البدائي في السياسي والقوانين) أن تكون تاريخية، أو ربما قبل تاريخية. وربما لا ينطبق هذا على كل خصائص المدينة الفاضلة. فقيما يتعلَّق، مثلاً، بمملكة الفلاسفة (الموصوفة في الكتب من خمسة إلى سبعة من الجمهورية)، يوضح أفلاطون نفسه بأنها تكون سمة فقط لعالم الصور أو المثل الأزلي، لـ "مدينة في السماء".

ولسوف تناقش فيما بعد هذه العناصر غير التاريخية المقصودة في وصفه، مع مطالب أفلاطون الأخلاقية السياسية. ويتعيَّن بالطبع، أن تُسلَّم بأنه لم يقصد، في وصفه للديساتير البدائية أو القديمة، أن يُقدِّم تعليلاً تاريخياً دقيقاً؛ فقد عرف بالتأكيد أنه لا يملك المعلومات الضرورية لإنجاز أي شيء من هذا النوع. ومع ذلك، فإنني أعتقد أنه بذل محاولة جادة لإعادة بناء الأشكال القبلية القديمة للحياة الاجتماعية بقدر استطاعته. ولا سبيل إلى الشك في هذا، خصوصاً لأن المحاولة كانت، في كثير من تفصيلاتها، ناجحة إلى حد كبير. ولا يكاد من الممكن أن يكون الأمر غير هذا، لأن أفلاطون توصَّل إلى صورته عن طريق وصف معالج بطريقة مثالية للاستقرائيات القبلية القديمة لكل من كريت واسبرطة. ولقد رأى يحدِّثه السومبولوجي المرفه أن هذه الأشكال لم تكن قديمة فحسب، بل متحجرة ومعتلة كذلك؛ ذلك لأنها كانت بقايا شكل أقدم. واستنتج أن هذا الشكل الأقدم كان أكثر استقراراً، ومُعْطَلاً بشكل أكبر. لقد حاول أن يعيد بناء هذه المدينة الضاربة في القدم وبالتالي الفاضلة جداً والمستقرة جداً بطريقة توضح كيف أنها نأت بنفسها عن الوقوع في الانشقاق؛ وكيف جنبت نفسها الوقوع في الصراع الطبقي، وكيف قلَّصت تأثير المصالح الاقتصادية إلى الحد الأدنى، وجعلتها تحت السيطرة التامة. هذه هي المشكلات الرئيسية لإعادة بناء أفلاطون للمدينة الفاضلة.

فكيف يحلُّ أفلاطون مشكلة تجنب الصراع الطبقي؟ لو كان تقدماً، لكان قد ركَّز على المجتمع اللاتبقي، المساواتي؛ لأنه، كما يمكننا أن نرى مثلاً من محاكاته التهامية للديموقراطية الأثينية، كانت توجد اتجاهات مساواتية قوية وفعالة في أثينا. ولكنه لم يكن يعمل على بناء دولة قد تتكوَّن، وإنما دولة قد كانت - النموذج الأصلي للدولة الاسبرطية، والتي لم تكن بالتأكيد مجتمعاً لا طبقياً. بل كانت دولة عبودية، وبالتالي تستند مدينة أفلاطون الفاضلة إلى أكثر التمييزات

الطبقية صلابة. فهي دولة طبقات متغلقة. ولقد حُلَّت مشكلة تجنب الصراع الطبقي، ليس عن طريق إلغاء الطبقات، وإنما عن طريق منح الطبقة الحاكمة تفوقاً لا يمكن تحديه. فالطبقة الحاكمة وحدها، كما في اسبرطه، هي المسموح لها بحمل السلاح، ولها وحدها كل الحقوق، سياسية كانت أو أخرى وتتلقى وحدها التعليم؛ أعني التدريب المتخصص في فنّ قمع خرافها البشريين، أو قطعانها البشريين (والواقع أن تفوقها الساحق إنما يزعم أفلاطون قليلاً، فهو يخشى أن "ينهش أعضاؤها الخراف، بدلاً من حزّها فحسب"؛ وأن "يتصرفوا كذئاب أكثر منهم ككلاب". وستُدرس هذه المشكلة لاحقاً في هذا الفصل). وطالما كانت الطبقة الحاكمة متحلة، فلن يكون في مقدور أحد أن يتحدّى سلطتها، وبالتالي لن يكون ثمة صراع طبقي.

ويعرّف أفلاطون بين ثلاث طبقات في مدينته الفاضلة: طبقة الحراس، وطبقة مساعديهم المسلحون أي المقاتلون، والطبقة العاملة. ولكن يوجد في الواقع طبقتان متعلقتان فقط، طبقة عسكرية، تشتمل على الحكّام المسلّحين والمتعلمين - وطبقة المحكومين غير المسلّحين، وغير المتعلّمين، الخراف البشرية؛ لأن الحراس ليسوا طبقة متغلقة متفرقة، وإنما محاربون قدامى وحكماء كانوا قد ترقّوا من صفوف المساعدين. بيد أن تقسيم أفلاطون لطبقته الحاكمة إلى قسمين، الحراس والمساعدين، دون عمل تقسيمات فرعية مماثلة في الطبقة العاملة، يرجع بقدر كبير إلى أن اهتمامه كان منصباً فقط على الحكّام. فالعمال، والتجار... إلخ لا يهتم بهم على الإطلاق، إذ أنّهم قطع بشري فحسب، وظيفتهم الوحيدة هي تزويد الطبقة الحاكمة باحتياجاتها المادية. بل إن أفلاطون يمضي أبعد من ذلك حين يمنع حُكّامه من التشريع لشعب هذه الطبقة، ولمشكلاتها التافهة. وهذا هو السبب في أن معلوماتنا عن الطبقات الأدنى ضئيلة للغاية. بيد أن صمت أفلاطون هنا ليس طوال الوقت. فهو يسأل ذات مرة: "ألا يوجد كادحون يفتقرون إلى ومضة ذكاء وغير جديرين بأن يسمح لهم بالانضمام للمجتمع ممن لهم أجسام قوية للعمل الشاق؟" ولأن هذه الملاحظة الكريهة قد نتج عنها تعليق ملطّف بأن أفلاطون لا يسمح بالعبيد في مدينته، فإنني أشير هنا إلى خطأ هذا الرأي. صحيح أن أفلاطون لا يناقش صراحة، في أي مكان، أوضاع العبيد في مدينته الفاضلة، وصحيح كذلك أنه يقول بأن من الأفضل تجنب اسم "عبد" وأنه يتعين أن ندعوهم العمال "المساعدون" أو حتى "المستخدمون". بيد أن هذا لم يكن سوى لأغراض دعائية. إذ لم يكن يوجد في أي مكان أقل تلميح بإلغاء قانون العبودية، أو تخفيفه. بل على العكس، فلم يبد أفلاطون سوى الازدراء لأولئك الديموقراطيين الأثنيين "رفيقي القواد" الذين دعموا حركة الإلغاء. وهو يبدى رأيه هذا بوضوح تام، كما هو الحال، مثلاً، في وصفه للحكم التيموقراطي، المدينة الأفضل الثانية، والتي تلي مباشرة المدينة الأفضل. فهو يقول (في ذلك الموضوع) عن الرجل التيموقراطي: "فلسوف يميل إلى معاملة العبيد بقسوة، لأنه لن يحترقهم

بقدر ما يحترقهم رجل متعلّم تعليماً جيداً". ولكن لأنّ التعليم لا يمكن أن يوجد إلاّ في المدينة الفاضلة فحسب، وهو أرقى من نظيره في التيموقراطية، فنحن مضطرون أن نستتج أن ثمة عيب في مدينة أفلاطون الفاضلة، وأنهم لن يُعاملوا بقسوة، وإنّما سيُهمّ ازدهارهم بصورة مناسبة. وفي ازدهارهم لهم المبرر أخلاقياً، لا يفصل أفلاطون هذه النقطة. ويتعرّز هذا الاستنتاج تماماً بواقعة أن ثمة فقرة في الجمهورية تنقّد الممارسة الجارية لاستعباد الاغريق للاغريق، وينهي فقرته بموافقة صريحة على استعباد البرابرة، بل ومع توصية لـ "مواطنينا" - أي مواطني المدينة الفاضلة - أن "يتصرفوا مع البرابرة كما يتصرف الاغريق الآن مع الاغريق"، ويتعرّز هذا الاستنتاج أكثر بمضامين القوانين، والاتجاه اللإنساني نحو العبيد المتبنّى هناك.

ولأن السلطة السياسية في يد الطبقة الحاكمة وحدها، بما في ذلك سلطة الاحتفاظ بهذا القطيع البشري في حدود معينة تمنعه من أن يصبح خطراً، فإنّ المشكلة الكلية للحفاظ على الدولة تُختلّ إلى الحفاظ على الوحدة الداخلية للطبقة السائدة. فكيف يتمّ المحافظة على وحدة الحكام هذه؟ بالتدريب وبمؤثرات سيكولوجية أخرى، ولكن بشكل رئيسي باستبعاد المصالح الاقتصادية التي قد تؤدي إلى الانشقاق. ويتحقق هذا الاستبعاد بإدخال الشيوعية، أي بإلغاء الملكية الخاصة، وخصوصاً ملكية المعادن الثمينة. (كانت ملكية المعادن الثمينة ممنوعة في اسيرطة). هذه الشيوعية مقصورة على الطبقة الحاكمة، التي يتعيّن عليها وحدها أن تتجنب الانشقاق، أمّا التزاعات التي تدور بين المحكومين فهي غير جدية بالاعتبار. وبما أن كل الملكية هي ملكية عامة، فيجب أن تكون هناك ملكية عامة أيضاً في النساء والأطفال. فلا يجب أن يتمكن أي من أعضاء الطبقة الحاكمة من تعيين هوية أطفاله، أو والديه. فيجب أن تُحطّم الأسرة، أو بالأحرى أن تشمل كل طبقة المحاربين. إذ قد تصبح الولاءات الأسرية مصدراً محتملاً للانشقاق؛ لذلك "سيعتني كل شخص بالجميع كما لو كان ينتمي إلى أسرة واحدة". (ولم يكن هذا الاقتراح جديداً ولا ثورياً بالدرجة الكبيرة التي يبدو عليها، إذ يتعيّن أن نتذكر مثل تلك التقيدات الاسيرطية على خصوصية الحياة العائلية كالحظر المفروض على الزوجيات الخاصة، والتي كان أفلاطون يشير إليها بمؤسسة الزوجيات العامة). ولكن حتى الملكية المشتركة للنساء والأطفال ليست كافية تماماً لحماية الطبقة الحاكمة من كل الأخطار الاقتصادية. إذ من المهم أن نتجنّب الرخاء بقدر تجنبنا للفقر. فكلاهما خطر على الوحدة: الفقر، لأنّه يدفع الناس إلى تبني أساليب متهورة لسدّ احتياجاتهم؛ والرخاء، لأن معظم التغير ينشأ من الوفرة، من تراكم الثراء، والذي يفتح الباب لإمكانية التجارب الخطرة. والنظام الشيوعي وحده، الذي لا مكان فيه لعوز شديد ولا لثروة كبيرة، هو الذي يستطيع اختزال المصالح إلى الحد الأدنى، فيضمن بذلك وحدة الطبقة الحاكمة.

وهكذا يمكن أن تُشتقّ شيوعية الطائفة الحاكمة للمدينة الفاضلة من قانون التغير الاجتماعي

الأساسي عند أفلاطون، وهو شرط ضروري للاستقرار السياسي الذي يُعدُّ سمته الأساسية. وعلى الرغم من أنه شرط هام، إلا أنه ليس كافياً. فلكي تشعر الطبقة الحاكمة بأنها متحلة حقاً، فعليها أن تشعر بأنها كقبيلة واحدة، أعني كأسرة كبيرة واحدة، والضغط من خارج الطبقة ضروري تماماً مثل الروابط بين أفراد الطبقة. ويمكن لهذا الضغط أن يتحقق بتأكيد وتوسيع الهوية بين الحاكمين والمحكومين. وكلّما قوي الشعور بأن المحكومين من فئة مختلفة ووضعيتهم تماماً، كلما قوي الإحساس بالوحدة بين الحاكمين. ونصل إذن إلى المبدأ الأساسي، المعلن بعد فترة تردد، بأنه لا يتعين أن يكون ثمة اختلاط بين الطبقات. يقول أفلاطون: "فأي تدخل أو تبدل من طبقة لأخرى يُعدُّ جريمة لا تُغتفر ضد المدينة ويستعين فضح أمرها بحق باعتبارها أكثر الشرور دناءة". بيد أن تقسيماً صارماً للطبقات مثل هذا ينبغي أن يكون مبرراً ويمكن أن تنبثق محاولة تبريره من الزعم بأن الحكام أسمى من المحكومين. ويحاول أفلاطون بناءً على ذلك أن يبرر تقسيمه الطبقي عن طريق الزعم الثلاثي بأن الحاكمين يعتبرون أسمى بكثير من ثلاثة وجوه - من جهة الجنس، ومن جهة التعليم، ومن جهة نظام قيمهم. . . . وسوف تُناقش تقسيمات أفلاطون الخلقية، والتي تتطابق، بالطبع، مع قيم حكام المدينة الفاضلة، في الفصول من السادس إلى الثامن؛ لذلك سأكتفي هنا بوصف بعض أفكاره المتعلقة بالأصل، وتربية السلالات، والتربية في طبقته الحاكمة. وقبل الشروع في هذا الوصف، أودُّ أن أعبر عن اعتقادي بأن التفوق الشخصي، سواء أكان جنسياً أم ثقافياً أم أخلاقياً أم تربوياً، لا يمكن أن يؤسس أبداً زعم الامتيازات السياسية، حتى ولو أمكن إثباته. إذ يسلّم معظم الناس في الأقطار المتحضرة هذه الأيام بأن التفوق الجنسي أسطورة، ولكن حتى لو كانت أمراً واقعاً، فلا يتعين أن يترتب عليها حقوق سياسية خاصة، على الرغم من أنه قد يترتب عليها مسؤوليات خلقية خاصة بالنسبة للأشخاص المتفوقين. ويتعين أن تقدم مطالب مماثلة لأولئك المتفوقين ثقافياً وأخلاقياً وعلمياً، ولا يمكنني أن أغالب الشعور بأن الدعاوى القابلة لتقنين وأخلاقين معينين إنما تبنّ فحسب كيف كان تعليمهم الناجح قليلاً، لأنه قد أخفق في أن يجعلهم يدركون حدودهم الخاصة ومواقفهم الفاريزية*.

4

ولو أردنا أن نفهم آراء أفلاطون حول الأصل وتربية السلالات، والتربية لطبقته الحاكمة، لا يتعين أن لا تغيب عنا رؤية نقطتين رئيسيتين في تحليلنا. يتعين أن نتذكّر، أولاً وقبل كل شيء، أن أفلاطون إنما يعيد بناء مدينة من الماضي، على الرغم من ارتباطها بالحاضر من حيث إن بعض

* أي المواقف التي تصف بالتظاهر بالصلاح والتقوى. (المترجم)

سماتها لا تزال ظاهرة في بعض الدول الموجودة، على سبيل المثال، في اسبرطة . وثانياً أنه بعيد بناء مدينته بقصد توفير شروط استقرارها، وأنه يبحث عن ضمانات لهذا الاستقرار فقط داخل الطبقة الحاكمة ذاتها، وعلى وجه الخصوص، في وحدتها وقوتها .

وبالنظر إلى أصل الطبقة الحاكمة، يتعين أن يُشار إلى أن أفلاطون يتحدث في السياسي عن زمن، سابق حتى على زمن مدينته الفاضلة، عندما "كان الربُّ ذاته هو الراعي للناس، والمهيمن عليهم تماماً مثلما يهيمن الإنسان على الحيوانات . في زمن . . لم يكن فيه ملكية للنساء والأطفال" . ولا يُعدُّ هذا مجرد تشبيه للراعي الصالح، ففي ضوء ما يقوله أفلاطون في قوانينه، يجب تفسير ذلك بحرفية أكثر . لأنه يخبرنا هناك بأن هذا المجتمع البدائي، والسابق حتى على مدينته الأولى والفاضلة، هو مجتمع من رعاية الهضاب البدو تحت إمرة أب . يقول أفلاطون عن تلك الفترة السابقة على الاستقرار الأول: "بدأت الحكومة . . بوصفها حكم الأكبر سناً الذي ورث سلطته من أبيه أو أمه، وتبعه الآخرون جميعهم كسرب من الطير، وهكذا تتشكّل قبيلة واحدة من البدو الرُّحَّل محكومة من تلك السلطة الأبوية والملكية والتي هي أعدل من كل الملكيات" . ونسمع أن هذه القبائل البدوية استقرت في المدن البيلوبونيسية، وخصوصاً في اسبرطة، تحت اسم "الدوريون" . أما عن كيف حدث هذا، فلم يفسّر بوضوح كاف، ولكننا نفهم تقاعس أفلاطون عندما نتلقى إشارة بأن "الاستيطان" كان في الواقع استعباداً عنيفاً . وهذه، بالنسبة لكل ما نعرفه، هي القصة الحقيقية لاستيطان الدوريين في اليلوبونيز . وعليه فلا بد أن يكون لدينا الباعث القوي على الاعتقاد بأن أفلاطون قصد من قصته أن تكون وصفاً جاداً لأحداث ما قبل التاريخ، وهو ليس وصفاً عن أصل الجنس الدوري المسيطر فحسب، وإنما عن أصل قطعانهم البشرية أيضاً، أعني، السكان الأصليين . وفي فقرة موازية في الجمهورية، يقدم لنا أفلاطون وصفاً أسطورياً ولكنه شديد إلى حد بعيد عن عملية الإخضاع نفسها، عن أصل - (المولودين في الأرض)، الطبقة الحاكمة للمدينة الفاضلة . (ولسوف تُناقش أسطورة "المولودين في الأرض" من وجهة نظر مختلفة في الفصل الثامن) .

ولقد وُصف زحفهم الظافر نحو المدينة، التي تأسست فيما سبق بواسطة التجار والعمال، على النحو التالي: "وبعد تسليح وتدريب المولودين في الأرض، دعونا نجعلهم يتقدمون، تحت إمرة الحراس، حتى يصلوا إلى المدينة . وعندئذٍ دعوهم يلتفتون حولهم ليكتشفوا المكان الأفضل لمعسكرهم - الموقع المناسب أكثر لقمع السكان، إذا ما أظهر أحدهم عدم رغبة في إطاعة القانون، وصد الأعداء الخارجين الذين قد يتسللوا كالذئب إلى حظيرة الخراف" . ويتعين علينا أن نتذكّر هذه القصة الموجزة والظافرة في آن واحد عن إخضاع السكان المقيمين بواسطة قبيلة من الغزاة المحاربين (حدهم في السياسي بأنهم رعاية الهضبة البدو في فترة ما قبل الاستقرار)، وذلك عندما

نفس إصرار أفلاطون المتكرر بأن الحكام الصالحين، سواء أكانوا آلهة أم أنصاف آلهة أم حراس، إنما هم رعاة أبويون للبشر، وأن فن السياسة الحق، فن الحكم، إنما هو نوع من القيادة الرعوية، أعني، فن قيادة وإخضاع القطيع البشري. ويتعين علينا أن نتأمل، في ضوء ذلك، وصفه لإنتاج سلالة وتدريب "المساعدين الذين يخضعون للحكام ككلاب الحراسة لرعاة الدولة".

وتُعَدُّ نشأة وتربية المساعدين وبالتالي الطبقة الحاكمة لدولة أفلاطون الفاضلة، مثل حملهم للسلاح، رمزاً طبقياً ومن ثم تمييزاً طبقياً. وليست النشأة والتربية رموزاً فارغة، وإنما هي مثلها في ذلك مثل الأسلحة، أدوات للحكم الطبقي، وهي ضرورية لتأكيد استقرار هذا الحكم. وقد عولجت من قبل أفلاطون فقط من وجهة النظر هذه، أعني بوصفها أسلحة سياسية قوية، وبوصفها وسائل مفيدة لرعي القطيع البشري، ولتوحيد الطبقة الحاكمة.

ولهذا الغرض، فمن الأهمية بمكان أن نشعر الطبقة المسيطرة بأنها أحد الأجناس المتغلبة، الأرفع منزلة. يقول أفلاطون (في معرض دفاعه عن وأد الأطقال): "يجب أن يُحتفظ بجنس الحراس نقياً". ، وذلك عند تطوير الحجة العنصرية بأننا نربي سلالة الحيوانات بعناية فائقة في حين نهمل جنسنا، وهي حجة كررها منذ ذلك الحين. (ولم يكن وأد الأطقال عادة أثينية؛ ويرى أفلاطون أنه كان مُمارساً في اسبرطة لأسباب متعلقة بتحسين النسل، مستجاً من ذلك أنه لا بد أن يكون قديماً، ومن ثم عملاً حميداً). وهو يطالب بأن تُطبق نفس المبادئ على نشأة الجنس المتغلب كما هو مطبق من قبل المربي المحنك، للكلاب، والخيل، والطيور. ويحتاج أفلاطون في ذلك بقوله: "وإن تربوهم بهذه الطريقة، أفلا تعتقدون أن جنس طيوركم أو كلابكم سينحط بسرعة؟" وهو يستنتج النتيجة التي تذهب إلى أن "نفس المبادئ تنطبق على الجنس البشري". فالصفات الجنسية المطلوبة من حارس أو من مساعد هي، بصفة خصوصية أكثر، تلك المتوفرة في كلب الرعاة. ويطالب أفلاطون بأنه "يتعين على المحاربين المتمتعين بلياقة بدنية عالية أن يكونوا يقظين ككلاب الحراسة"، وفيما يتعلق بلياقته الطبيعية المطلوبة لأداء واجبات الحراسة، يقرر: "بالتأكيد، ليس ثمة اختلاف، بين شاب جسر وكلب من سلالة نقية". وفي غمرة حماسه وإعجابه بالكلب، يمضي أفلاطون إلى الحد الذي يرى في الكلب "طبيعة فلسفية أصيلة"؛ "ألا يُعتبر حب التعلم ممثلاً لموقف فلسفي حقيقي؟"

والصعوبة الرئيسية التي تعلق أفلاطون هي أنه يتعين على الحراس والمساعدين أن يكونوا متميزين بخاصية، هي أن يكون كلٌ منهم مفترساً ومهذباً في طبعه في نفس الوقت. ومن الواضح أنه يتعين عليهم أن يُربوا على أن يكونوا مفترسين، لأنه يجب عليهم أن "يواجهوا أي خطر بجسارة، وبروح غير هيّابة". ومع ذلك "إذا كانت طبيعتهم على هذا النحو، فكيف يمنعون من

أن يكونوا عنيفين ضد بعضهم البعض أو ضد بقية المواطنين؟" حقاً، سيكون الأمر "مريعاً ببساطة لو كان يتعين على الرعاة أن يحتفظوا بكلاب يمكن أن تزعج الغنم، فتصرف مثل ذئب أكثر منها مثل كلاب". وتمثل هذه المشكلة أهمية من وجهة نظر التوازن السياسي، أو بالأحرى، استقرار الدولة، لأن أفلاطون لا يركن إلى توازن القوى في الطبقات المختلفة، لأن ذلك سيكون اتزاناً غير مستقر. إن السيطرة على الطبقة الحاكمة بسلطانها اللامحدودة، ووحشيتها، من خلال القوة المقاومة للمحكومين، فهو أمر خارج الموضوع. إذ أن تفوق الطبقة المسيطرة يتعين أن يظل خارج نطاق التحدي. ومن ثم فإن الضبط المسموح به فحسب للطبقة المسيطرة إنما هو ضبط النفس. لأنه يتعين على الطبقة الحاكمة أن تتدرب على التقشف الاقتصادي، أعني الكف عن رخاء اقتصادي مسرف للمحكومين، ولذلك يتعين عليها أن تكون قادرة على أن تكف عن ممارسة وحشية مبالغ فيها في تعاملها مع المحكومين. بيد أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كانت وحشية طبيعتها متوازنة مع رقتها. ويجد أفلاطون أن هذا الأمر يمثل مشكلة خطيرة، لأن "الطبيعة الوحشية على النقيض تماماً من الطبيعة الرقيقة". ويقرر محدثه، سقراط، أنه متحير، حتى يتذكر الكلب مرة أخرى، فيقول: "إن الكلاب الأصيلة بطبيعتها رقيقة جداً مع أصدقائها ومعارفها، ولكنها على النقيض من ذلك تماماً مع الغرباء". ومن ثم فإنه يثبت بالتالي "أن الخاصية التي نحاول أن نكسيها لحراسنا ليست متعارضة مع الطبيعة". وهكذا فإن هدف تربية سلالة الجنس المسيطر قد تحدد ويمكن بلوغه. ولقد اشتق من تحليل الشروط الضرورية للحفاظ على استقرار الدولة.

أما الهدف التربوي عند أفلاطون فهو نفسه تماماً. إنه الهدف السياسي الخالص لاستقرار الدولة عن طريق المزج بين الوحشية والرقّة في شخصية الحاكمين. والنظامان اللذان يتم من خلالهما تربية أطفال الاغريق من الطبقة العليا، الرياضة البدنية والموسيقى (والأخيرة، بالمعنى الواسع للكلمة، حيث تشتمل على كل الدراسات الأدبية)، وهما مرتبطتان عند أفلاطون بعنصري الشخصية: الوحشية والرقّة. يتساءل أفلاطون: "ألم يلحظ كيف تتأثر الشخصية بتدريب مقصور على الرياضة البدنية دون الموسيقى، وكيف تتأثر بالتدريب المقابل؟ فالانهماك الكامل المقصور على الرياضة البدنية يأتي لنا برجال أكثر قسوة مما ينبغي أن يكونوا عليه، في حين أن الانهماك الكامل المماثل المقصور على الموسيقى يجعلهم أكثر ليناً مما لا يُطابق... ولكننا نؤكد على أن حراسنا ينبغي أن يوحّدوا بين هاتين الطبيعتين... وهذا هو ما دعائي إلى القول بأنه يتعين على إله ما أن يمنح الإنسان هذين الفنين، الموسيقى والرياضة البدنية، وأثرهما ليس كبيراً على إشباع الروح والجسد على التوالي، وإنما بالأحرى على تنعيم ألتين وتربيتن بصورة مناسبة، أعني على إشاعة التوافق أو الانسجام بين عنصري الروح، الرقة والوحشية". ويختم أفلاطون تحليله بقوله: "هذان هما المخططان التمهيديان لنظامنا في التربية والتدريب".

وعلى الرغم من حقيقة أن أفلاطون يطابق العنصر الرقيق للروح مع ميلها الفلسفي، وعلى الرغم من حقيقة أن الفلسفة ستلعب دوراً غالباً كبيراً في الأجزاء الأخيرة من الجمهورية، إلا أنه لم يتحيز على الإطلاق لصالح العنصر الرقيق للروح، أو للتعليم الموسيقي، أي الأدبي. فعدم التحيز في التوازن بين العنصرين هو الملحوظ أكثر، لأنه يؤدي به إلى أن يفرض قيوداً قاسية للغاية على التعليم الأدبي، مقارنة بما كان معتاداً، في عصره، في أثينا. وهذا، بالطبع، يعد جزءاً فحسب من ميله العام إلى تفضيل العادات الإسرطية على الأخرى الأثينية. (بل إن كريت، وهي نموذج الثاني، كانت ضد تعليم الموسيقى أكثر من إسبرطة). ولقد استندت المبادئ السياسية عند أفلاطون للتعليم الأدبي إلى مقارنة بسيطة. فقد رأى أن إسبرطة عاملت قطيعها البشري بقسوة زائدة عن الحد قليلاً؛ وهذا عرض يعبر عن إحساس الضعف، ومن ثم عرض للتدهور الأولي للطبقة المسيطرة. أما أثينا، على الجانب الآخر، فكانت لبرالية ولينة جداً في تعاملها مع العبيد. واتخذ أفلاطون من هذا برهاناً على أن إسبرطة أصرت على الاعتماد أكثر من اللازم على الرياضة، وأثينا، بالطبع، على الموسيقى. ولقد جعله هذا التقويم البسيط قادراً بيسر على أن يعيد بناء ما كان في رأيه المقياس الحقيقي أو المزيج الحقيقي للعنصرين في نظام التربية بالمدينة الفاضلة، وأن يضع مبادئ سياسته التربوية. ومن وجهة النظر الأثينية، فلن يكون هذا أقل من المطلب الذي يدعو إلى خنق كل تعليم أدبي عن طريق مشايعة وثيقة الصلة بمثال إسبرطة مع رقابة الدولة المحكمة على كل المسائل الأدبية. فيجب أن تفرض رقابة صارمة ليس على الشعر فحسب، وإنما على الموسيقى أيضاً بالمعنى المعتاد للمصطلح، وأن كليهما يجب أن يكرس تماماً لتقوية استقرار الدولة بجعل الشباب أكثر وعياً بالنظام الطبقي، ومن ثم مستعدين أكثر لخدمة المصالح الطبقية. بل إن أفلاطون يتناسى أن وظيفة الموسيقى جعل الشاب أكثر رقة، فهو يطالب بصور من الموسيقى أكثر شجاعة، أي قسوة. (ونظراً إلى أن أفلاطون كان أثينياً، فإن حججه المتعلقة بالموسيقى الحقّة تبدو لي أنها لاتصدق بالكاد في تعصبها الخرافي، وخصوصاً إذا ما قورنت بنقد معاصر أكثر استتارة. ولكنه حتى الآن يحظى بعدد غير قليل من الموسيقيين إلى جانبه، ربما لأنهم مشبعون غروراً، برأيه، في أهمية الموسيقى، أي سطوتها السياسية. ويصدق نفس الشيء على التربويين، بل وأكثر منهم على الفلاسفة، لأن أفلاطون يطالب بأنه يتعين عليهم أن يحكموا؛ وهو مطلب سناقش في الفصل الثامن).

إن المبدأ السياسي الذي يقرّر تربية الروح، أي، الحفاظ على استقرار الدولة، إنما يقرّر أيضاً ذلك للجسد. والهدف ببساطة هو هدف إسبرطة. فعلى حين كان المواطنون الأثينيون يتلقون تربية في جوانب عمومية متعددة، يطالب أفلاطون بأن تتلقى الطبقة الحاكمة تدريباً كطبقة من المحاربين المحترفين، المستعدين لمواجهة الأعداء من خارج أو من داخل المدينة. فالأطفال من كلا الجنسين،

كما أخبرنا بذلك مرتين، " ينبغي أن يمتطوا صهوة الجواد، بحيث يرون حرباً فعلية، وبشرط أن يكون ذلك مأموناً، إذ ينبغي أن يحضروا المعركة، ويتذوقوا طعم الدماء؛ تماماً كما يفعل المرء مع كلاب الصيد الصغار". فوصف الكاتب المحدث للتربية الشمولية الحديثة هو أنها "شكل مكثف ومستمر من التبعة"، يناسب تماماً نظام التربية الكلي عند أفلاطون.

هذا هو موجز نظرية أفلاطون المتعلقة بالمدينة الفاضلة أو الضاربة في القدم، وهي المدينة التي تعامل قطيعها البشري، كما يعامل الراعي الحكيم وشديد المراس قطيعه من الأغنام، ليس بقسوة شديدة، وإنما بازدياد مناسب... وكتحليل لكل من المؤسسات الاجتماعية الإمبرطية وشروط استقرارها، وكمحاولات لإعادة بناء أشكال أكثر صرامة وبدائية للحياة القبلية، يعد هذا الوصف ممتازاً بحق. (ولقد تعاملنا في هذا الفصل مع الجانب الوصفي فقط. أما الجانب الأخلاقي فلسوف يناقش لاحقاً). واعتقد أن الكثير من كتابات أفلاطون كان قد نُظر إليها عادة بوصفها مجرد تأمل ميتولوجي أو يوتوبي، ويمكن بهذه الوسيلة أن يُفسَّر بوصفه وصفاً وتحليلاً اجتماعياً. فلو نظرنا، على سبيل المثال، إلى أسطوره المتعلقة بحرب قبائل البدو الرُّحَّل الظافرة التي تخضع السكان الأصليين، يتعين علينا حينئذ أن نعترف بأنه، من منظور علم الاجتماع الوصفي، يعتبر ناجحاً إلى حد بعيد. وبالفعل يمكنه حتى الزعم بأنه سابق لنظرية حديثة مثيرة (وربما شاملة أكثر من اللازم) عن أصل الدولة، والتي طبقاً لها تنبع القوة السياسية المركزية والمنظمة عموماً من مثل هذا الظفر. وربما يكون ثمة أوصاف أكثر من هذا النوع في كتابات أفلاطون التي يمكننا تقييمها حالياً.

5

وبالاختصار، ففي محاولة لفهم وتفسير العالم الاجتماعي المتغير، كما اختبره أفلاطون، فقد اتقيد الأخير إلى تطوير علم اجتماع تاريخاني نسقي بتفصيل كبير. فاعتقد بأن الدول الموجودة، إنما هي بمثابة نسخ باهتة لصورة أو مثال غير متغير. وحاول أن يعيد بناء هذه الصورة أو المثال للدولة، أو يصف، على الأقل، مجتمعاً يقترب منه بقدر الامكان. وبالإضافة إلى التقاليد القديمة، فقد استخدم لإعادة بنائه نتائج تحليله للمؤسسات الاجتماعية في إسبرطة وكريت - وهي أقدم ما وجدته في اليونان من صور الحياة الاجتماعية - والتي تعرف فيها على الصور المكبوح أو المعطلة لمجتمعات قبلية أكثر قدماً. ولكن لكي يستخدم هذه المواد جيداً احتاج إلى مبدأ للتمييز بين السمات الصالحة، أو الأصلية أو القديمة للمؤسسات الموجودة وأعراض انحطاطها. ولقد وجد هذا المبدأ في قانونه المتعلق بالثورات السياسية، والذي يذهب إلى أن الانشقاق في الطبقة الحاكمة، وانشغالها بالشؤون الاقتصادية، هما أصل كل تغير اجتماعي. ولذلك فقد أعاد بناء مدينته الفاضلة

بطريقة تُستبعد بها كل جراثيم وعناصر الانشقاق والانحطاط بأقصى صورة ممكنة من التطرف؛ فيقال، أنها كانت مشيدة خارج الدولة الإسبرطية مع ملاحظة الشروط الضرورية لوحدة الطبقة المسيطرة التليدة، المأمونة بتقشفها الاقتصادي، وتحسين نسلها وتدريبها . .

ويتفسره للمجتمعات الموجودة كنسخ باهتة لمدينة مثالية، استعان أفلاطون في الحال بوجهات نظر هزبود الفجة إلى حد ما عن التاريخ الإنساني بخلفية نظرية وبثروة في التطبيق العملي. فطور نظرية تاريخية واقعية جداً، اكتشف بمقتضاها سبب التغير الاجتماعي في الانشقاق الهيراقليطي، وفي الصراع الطبقي الذي وجد فيه القوى الدافعة والمفسدة للتاريخ. ولقد طَبَّقَ هذه المبادئ التاريخية على قصة انحطاط وسقوط الدول - المدن الاغريقية، وخصوصاً على نقد الديمقراطية، التي وصفها بأنها متخشة ومنحطة. ويمكننا أن نضيف أن أفلاطون، في وقت لاحق، في قوانينه، قد طبقها أيضاً على قصة انحطاط وسقوط الامبراطورية الفارسية، وكان بذلك فاتحة لسلسلة طويلة من الأعمال الدرامية للانحطاط والسقوط في تواريخ الامبراطوريات والحضارات (ولعل قصة شبنجلر سيئة السمعة عن انحطاط الغرب هي أسوأها ولكن ليست آخرها). ويمكن تفسير كل هذا، فيما اعتقد، كمحاولة، ومحاولة مؤثرة للغاية، لتوضيح وعقلنة تجربته في انهيار المجتمع القبلي، وهي خبرة شبيهة لتلك التي أدت بهيراقليطس إلى أن يطور الفلسفة الأولى للتغير.

يبد أن تحليلنا لعلم الاجتماع الوصفي عند أفلاطون لا يزال ناقصاً. فقصصه عن الانحطاط والسقوط، ومعها تقريباً كل القصص المتأخرة، إنما تبين على الأقل سمتين لم تناقشهما بعد. فقد تصور هذه المجتمعات المنحلة كنوع من الكائن العضوي، والانحطاط بوصفه عملية شبيهة للشيخوخة. واعتقد بأن الانحطاط مستحق تماماً، بمعنى أن الانحطاط الخلقى وسقوط وانحطاط الروح، إنما يمضيان جنباً إلى جنب مع ذلك المتعلق بالقوام الاجتماعي. ويلعب هذا دوراً هاماً في نظرية التغير الأول عند أفلاطون - في قصة العدد وسقوط الإنسان. ولسوف تناقش هذه القصة، وارتباطها بمذهب الصور أو المثل في الفصل التالي.

الفصل الخامس: الطبيعة والعرف

لم يكن أفلاطون أول من تناول الظواهر الاجتماعية بروح البحث العلمي. وإنما تعود بداية العلم الاجتماعي على الأقل إلى جيل بروتاجوراس، أول المفكرين العظماء الذين أطلقوا على أنفسهم اسم "السوفسطائيون". وكانت علامة البداية هي إدراك الحاجة إلى التمييز بين عنصرين مختلفين في بيئة الإنسان - بيئته الطبيعية وبيئته الاجتماعية. وهو التمييز الذي يصعب إجراؤه وإدراكه، كما يمكن أن يستدل من حقيقة أنه حتى الآن لم يتأسس بوضوح في عقولنا. فقد كان مثارا للجدل منذ عصر بروتاجوراس. ويبدو أن معظمنا لديه ميل قوي لأن يقبل خصوصيات بيئتنا الاجتماعية كما لو كانت "طبيعية".

وهي إحدى خواص الاتجاه السحري لمجتمع قبلي بدائي أو "مغلق" يحيا في دائرة مسحورة من المحرمات الثابتة، ومن القوانين والعادات التي يعتقد أنها محتومة كشروق الشمس، أو تعاقب الفصول، أو انتظامات واضحة مماثلة للطبيعة. ولم يكن من الممكن أن يتطور الفهم النظري للاختلاف بين "الطبيعة" و"المجتمع"، إلا بعد أن يكون هذا "المجتمع السحري المغلق" قد تحلل بالفعل.

1

ويتطلب تحليل هذا التطور، فيما اعتقد، إدراكاً واضحاً لتمييز هام. وهو التمييز بين (1) القوانين الطبيعية، أو قوانين الطبيعة، مثل القوانين التي تصف حركات الشمس، والقمر، والكواكب، وتعاقب الفصول، إلخ، أو قانون الجاذبية أو، قل، قوانين الديناميكا الحرارية، ومن الجهة الأخرى، (ب) القوانين المعيارية، أو المعايير، أو النواهي والأوامر، أعني مثل تلك القواعد التي تحظر أو تتطلب أنماطاً معينة من السلوك؛ ومن أمثلتها الوصايا العشر، أو القواعد القانونية المنظمة لإجراء انتخاب أعضاء البرلمان، أو القوانين التي تدخل في تكوين الدستور الأثيني.

ولأن مناقشة هذه المسائل غالباً ما تُفسد بميلنا نحو طمس هذا التمييز، فربما يلزم الاستطراد أكثر عنها. يصف القانون بالمعنى (1) أي - القانون الطبيعي - انتظاماً صارماً، وثابتاً، وهو يحدث

في الواقع إما في الطبيعة (وفي هذه الحالة يعد القانون عبارة صادقة) أو لا يحدث (و في هذه الحالة يعد كاذباً). فإذا لم نعرف ما إذا كان قانون الطبيعة صادقاً أم كاذباً، وإذا كنا نرغب في لفت الانتباه إلى عدم يقيننا هذا، فإننا نسميه في أغلب الأحيان "فَرْضاً". وقانون الطبيعة غير قابل للتغير؛ فلا استثناء فيه. ولأننا لو قلنا بأن شيئاً ما قد حدث وتناقصه، فلا نقول حيثئذ أن ثمة استثناء أو تغير في القانون، وإنما نقول بالأحرى أن فرضنا قد دُحِضَ لأنه قد ثبت في النهاية أن الانتظام الدقيق المفترض لم يحدث، أو بعبارة أخرى، أن قانون الطبيعة المفترض لم يكن قانوناً صادقاً عن الطبيعة، وإنما هو عبارة كاذبة. ولأن قوانين الطبيعة غير قابلة للتغير، فلا يمكن أن تُنتهك أو تُعْصَد. وإنما هي خارج نطاق التحكم الإنساني، وذلك على الرغم من أنه قد يَكُن في إمكاننا أن نستخدمها لأغراض تقنية، وعلى الرغم من أننا قد نتجشم عناء لعدم معرفتنا بها، أو بجهلنا لها.

ولو أننا انتقلنا الآن إلى القوانين من النوع (ب) أي إلى القوانين المعيارية، لوجدنا أن كل شيء مختلف هناك كل الاختلاف. فالقانون المعياري، سواء أكان تشريعاً قانونياً أم أمراً خلقياً، يمكن تعضيده بواسطة الإنسان. وهو أيضاً قابل للتغير. فربما يوصف بأنه صالح أو طالح، معيب أو مخطئ، مقبول أو مرفوض؛ ويمكن أن يطلق عليه "صديق" أو "كاذب"، ولكن بمعنى مجازي فحسب، لأنه لا يصف واقعة، وإنما يضع توجيهات لسلوكنا. فلو كان له أي قصد أو مغزى، حيثئذ يكون في الإمكان خرقه، ولو لم يُخرَق يكون عندئذ زائلاً عن الحاجة وبلا مغزى. فعبارة مثل "لا تنفق من المال أكثر مما تملك" تُعدُّ قانوناً معيارياً ذا معنى، وربما يكون ذا معنى كقاعدة أخلاقية أو قانونية، ويكون ضرورياً أكثر لأنه غالباً ما يُخرَق. وربما يقال أيضاً عن العبارة "لا تأخذ من حافظتك نقوداً بأكثر مما فيها."، ومن طريقة صياغتها، أنها أيضاً قانون معياري؛ بيد أن أحداً لن يأخذ مثل هذا القانون مأخذ الجسد كجزء من نظام أخلاقي أو قانوني، إذ لا يمكن خرقه. وإذا لاحظنا أي قانون معياري ذا أهمية، لوجدناه دائماً نتيجة لتحكم إنساني - لأفعال وقرارات إنسانية. إنه عادة نتيجة لقرار بإدخال جزاءات - لمعاقبة أو ردع من يخرق القانون.

واعتقد، ويعتقد معي عموماً عدد كبير من المفكرين، وخصوصاً العديد من علماء الاجتماع، أن التمييز بين القوانين بالمعنى (1)، أعني العبارات التي تصف انتظامات الطبيعة، والقوانين بالمعنى (ب)، أعني المعايير كالنواهي أو الأوامر، إنما هو تمييز أسامي، وأن هذين التوعين من القانون ليس بينهما عاملاً مشتركاً أكثر من الاسم. بيد أن وجهة النظر هذه مقبولة بأية حال بصفة عامة، وعلى العكس، يعتقد العديد من المفكرين أن ثمة معايير - نواهي أو أوامر - تعد "طبيعية" بمعنى أنها توضع وفقاً لقوانين طبيعية بالمعنى (1). فهم يقولون، على سبيل المثال، أن معايير قانونية معينة تتفق والطبيعة الإنسانية، ومن ثم مع قوانين طبيعية سيكولوجية بالمعنى (1) في حين قد

تتعارض معايير قانونية أخرى مع الطبيعة الإنسانية، ويضيفون إلى ذلك أن تلك المعايير التي يمكن أن نتيقن مطابقتها للطبيعة الإنسانية لا تختلف حقيقة اختلافاً يتيماً عن قوانين الطبيعة بالمعنى (1). ويقول آخرون أن قوانين الطبيعة بالمعنى (1) إنما هي متشابهة تشابهاً كبيراً، في حقيقة الأمر، مع القوانين المعيارية لأنها وضعت بإرادة أو قرار خالق الكون - وهي وجهة نظر تقع بلا شك، خارج نطاق استخدام اللفظ المعياري "قانون" للقوانين من النوع (1). ولعل من المستحسن أن تُناقش كل وجهات النظر هذه. غير أنه من الضروري، كي تناقشها، أن نُميّز أولاً بين قوانين بالمعنى (1) وقوانين بالمعنى (ب)، وألاً نترك المسألة بمصطلح سيء. وهكذا سوف تقصر المصطلح "قوانين طبيعية" على القوانين من النوع (1) دون سواها، وسوف نرفض أن يُطبَّق هذا المصطلح على أية معايير يُعلن أنها، بمعنى أو بآخر، "طبيعية". فالخلط غير ضروري بالتأكيد لأن من السهل أن نتحدث عن "حقوق والتزامات طبيعية" أو عن "معايير طبيعية"، إذا رغبتنا في أن نشدد على السمة "الطبيعية" لقوانين من النوع (ب).

2

أعتقد أن من الضروري لفهم علم اجتماع أفلاطون أن نتناول الكيفية التي تطوّر بها التمييز بين قوانين طبيعية ومعيارية. وسوف أناقش أولاً ما يبدو أنه كان نقطة البدء والخطوة الأخيرة للتطور، ولاحقاً ما قد يبدو أنه كان خطوات ثلاث وسيطة، تلعب جميعاً دوراً في نظرية أفلاطون. ويمكن أن توصف نقطة البدء بأنها واحدة ساذجة. وربما يُقال أنها صفة مميزة لـ "المجتمع المغلق". والخطوة الأخيرة، التي أصفها بأنها ثنائية نقدية (أو اصطلاحية نقدية) إنما هي صفة مميزة لـ "المجتمع المفتوح". أما حقيقة وجود بعض ممن لا يزالون يحاولون تجنب اتخاذ هذه الخطوة، فيمكن أن يؤخذ كمؤشر لأننا مازلنا في غمرة مرحلة إنتقالية من المجتمع المغلق إلى المجتمع المفتوح. (ومع كل هذا، قارن الفصل العاشر).

ونقطة البدء التي أطلقت عليها اسم "الواحدة الساذجة" إنما هي المرحلة التي لم يتم فيها بعد التمييز بين القوانين الطبيعية والمعيارية. إن التجارب البغيضة هي الوسائل التي عن طريقها يتعلم الإنسان أن يكيف نفسه مع بيئته. ولم يتم وضع تمييز بين جزاءات مفروضة من قبل أناس آخرين، إذا ماخرق تحريماً معيارياً، وبين التجارب البغيضة التي مررنا بها في البيئة الطبيعية. وقد نُميّز أيضاً، في هذه المرحلة، بين إمكانييتين. يمكن أن توصف الأولى بأنها طبيعية ساذجة. ويُعتقد في هذه المرحلة أن الانتظامات، سواء كانت طبيعية أو عرفية، إنما هي وراء إمكانية مجردة فحسب، والتي من المحتمل أنها لم تتحقق أبداً. والمرحلة الأكثر أهمية هي المرحلة التي يمكن أن نصفها بأنها عرفية

ساذجة، وهي المرحلة التي خُبرت فيها الانتظامات الطبيعية والمعيارية أيضاً بوصفها تعبيرات عن - أو بوصفها مستندة إلى - القرارات التي تصدرها الآلهة الشبيهة بالبشر أو الشياطين. وهكذا فتعاقب القصول، أو انتظامات حركات الشمس والقمر، والكواكب، ربما تُفسَّر بأنها طاعة "القوانين" أو "المراسيم" أو "القرارات" التي "تحكم السماء والأرض"، والتي وُضعت و"أعلنت من قبل إله - خالق في البداية" ومن المفهوم أن أولئك الذين يفكِّرون بهذه الطريقة قد يعتقدون أنه حتى القوانين الطبيعية عرضة لتعديلات، تحت ظروف معينة؛ فقد يؤثر الإنسان عليها أحياناً بمساعدة ممارسات سحرية، وأن الانتظامات الطبيعية تُدعَم بالمراسيم، كما لو كانت معيارية. ولقد أوضح هيراقليطس هذه النقطة، بقوله: "لا يمكن أن تخرج الشمس عن مسارها المرسوم؛ وإلا فإن معبودات المصير، نديعات العدالة، سيعرفن كيف يعثرن عليها."

وانحلال القبلية السحرية مرتبط كل الارتباط بإدراك أن المحرّمات مختلفة في القبائل المختلفة، وأنها مفروضة ومُعَصَّدة من قبل الإنسان، وأنها قد تُسَهَك دون أن يترتب على ذلك ردود أفعال غير سارة، فقط إذا كان في مقدور المرء أن ينجو من العقوبات المفروضة عليه من قبل إنسان آخر. ويتدعّم هذا الإدراك أكثر عندما تلاحظ أن القوانين تُعدَّل وتُسنُّ من قبل مشرّعين بشر. وإنني أقصد بهؤلاء المشرّعين ليس فقط من أمثال صولون، وإنما أيضاً القوانين التي سُنّت وقُرِضت من قبل أناس عاديين في مدن ديموقراطية. فقد تَوَدَّى هذه الخبرات إلى تمييز واضح بين القوانين المعيارية التي فرضها الإنسان، والمستندة إلى قرارات أو أعراف، وبين الانتظامات الطبيعية التي تخرج عن نطاق قدرته. وعندما يتم فهم هذا التمييز بوضوح، يكون في مقدورنا أن نصف الوضع الذي توصلنا إليه بأنه ثنائية نقدية أو عرفية نقدية. ففي مجرى تطور الفلسفة اليونانية تعلن ثنائية الوقائع والمعايير هذه عن نفسها من خلال التعارض بين الطبيعة والعرف.

وعلى الرغم من حقيقة أن هذا الوضع قد توصل إليه منذ زمن بعيد السوفسطائي بروتاجوراس، أحد أهم معاصري سقراط، إلا أنه مازال غير مفهوم تقريباً بما يحتم علينا شرحه ببعض التفصيل، حتى يتسنى فهمه بعض الشيء. فأولاً، يجب ألا نعتقد أن الثنائية النقدية تتضمن نظرية عن الأصل التاريخي للمعايير. فهي ليست مرتبطة بالتقرير التاريخي - الذي لا يمكن الدفاع عنه بكل تأكيد - بأن المعايير قد أدخلها الإنسان بوعي، بدلاً من القول أنه عثر عليها ببساطة هناك (عندما أصبح في مقدوره العثور على أي شيء من هذا النوع). ولذلك فليس لها علاقة بالتقرير الذي يقول أن المعايير نشأت مع الإنسان وليس مع الله، ولا هي كذلك تقلل من أهمية القوانين المعيارية. ولا هي من باب أولى ترتبط بمقولة أن المعايير، لأنها عرفية، أعني من صنع الإنسان، فهي لذلك "اختيارية فقط". وإنما كل ما تقرّره الثنائية النقدية هو أن المعايير والقوانين المعيارية يمكن أن تُسنَّ وتُغير من قبل الإنسان، وعلى الأخص بقرار أو عرف، بملاحظتها أو

تعديلها، ولذلك فالإنسان هو المسؤول أخلاقياً عنها، ربما ليس بالنسبة للمعايير التي يكشف أنها توجد في المجتمع عندما يبدأ أولاً في التفكير فيها، ولكن بالنسبة للمعايير التي هو مستعد لقبولها بعد أن يكون قد اكتشف أنه يستطيع عمل شيء لتغييرها. والمعايير من صنع الإنسان بمعنى أننا لا ينبغي أن نلوم أحداً عليها سوى أنفسنا، لا الطبيعة ولا الله. ومن مهمتنا أن نحسبها بقدر ما نستطيع، إذا تبين لنا أنها عرضة للاعتراض. وتتضمن هذه الملاحظة الأخيرة أن وصفي للمعايير بأنها عرفية، لا يعني أن تكون اختيارية، أو أن مجموعة من القوانين المعيارية قد تؤتي دورها تماماً مثل أي مجموعة أخرى. وإنما قلبي بإمكانية تحسين بعض نُظم القوانين، أو بأن بعض القوانين قد تكون أفضل من غيرها، يتضمن أنه يمكننا مقارنة القوانين المعيارية الموجودة (أو المؤسسات الاجتماعية)، ببعض المعايير القياسية التي قررنا أنها صالحة للتحقيق. بيد أن حتى هذه المعايير من صنعنا، بمعنى أن قرارنا لصالحها إنما هو قرارنا الخاص، وأنها وحدنا نتحمل مسؤولية تبنيها. إذ أن المعايير لا تكون موجودة في الطبيعة. فالطبيعة تشمل على الوقائع والانتظامات، وهي في حد ذاتها ليست أخلاقية ولا غير أخلاقية. إنما نحن الذين نفرض معاييرنا على الطبيعة، وبهذه الطريقة ندخل الأخلاقيات إلى العالم الطبيعي، على الرغم من حقيقة أننا جزء من هذا العالم. فتحن من صنع الطبيعة، بيد أن الطبيعة قد أوجدتنا مع قدرتنا على تغيير العالم، وعلى التنبؤ والتخطيط للمستقبل، وعلى صنع قرارات بعيدة، نحن مسئولون عنها أخلاقياً. ومع ذلك، فإن المسؤولية والقرارات تدخل عالم الطبيعة فقط عن طريقنا.

3

ومن الأهمية بمكان، لكي نفهم هذا الموقف، أن ندرك أن هذه القرارات لا يمكن أن تُشتق أبداً من وقائع (أو من عبارات الوقائع)، على الرغم من أنها تتعلق بوقائع. فالقرار مثلاً بمعارضة العبودية، لا يعتمد على حقيقة أن الناس جميعاً ولدوا أحراراً ومتساوين، وأنه ليس ثمة إنسان ولد مكبلاً بسلاسل. لأنه حتى لو كان الجميع قد ولدوا أحراراً، فبعض الناس قد يحاول أن يكبل الآخرين بسلاسل، بل وقد يعتقد هؤلاء أنه ينبغي وضعهم في سلاسل، وعلى العكس من ذلك، حتى لو كان الناس قد ولدوا مكبلين بسلاسل، فالكثير منا قد يطلب إزالتها. أو فلنضع هذه المسألة بإحكام أكثر، إذا افترضنا حقيقة قابلة للتعديل كحقيقة أن العديد من الناس يعانون من أمراض - يمكننا حينئذ أن نتبنى دائماً عدداً من اتجاهات مختلفة تجاه هذه الحقيقة؛ وبصفة خاصة أكثر، يمكننا أن نقرر أن نبذل محاولة لتغييرها؛ أو يمكننا أن نقرر أن نقاوم أي محاولة من هذا النوع، أو يمكننا أن نقرر ألا نتخذ أي فعل على الإطلاق.

وبهذه الطريقة ترتبط كل القرارات الحلقية بواقعة ما أو بأخرى، ولا سيما بواقعة ما من وقائع الحياة الاجتماعية، ويمكن لجميع وقائع الحياة الاجتماعية (القابلة للتغيير) أن تسبب قرارات مختلفة عديدة. مما يبين أن القرارات لا يمكن أبداً أن تُشتق من هذه الوقائع، أو من وصف هذه الوقائع.

يبد أنها لا يمكن أن تُشتق من صنف آخر من الوقائع أيضاً؛ أعني تلك الانتظامات الطبيعية التي نصفها بمساعدة القوانين الطبيعية. فمن الصحيح تماماً أن قراراتنا ينبغي أن تتلاءم مع قوانين الطبيعة (بما في ذلك علم وظائف الأعضاء وعلم النفس)، إذا كان الهدف هو تنفيذها، لأنها لو سارت عكس مثل هذه القوانين، لما أمكن ببساطة تنفيذها. فمثلاً القرار بأن الكل يجب أن يعمل أكثر ويأكل أقل، لا يمكن تنفيذه إلا في حدود معينة وذلك لأسباب فسيولوجية، أعني، لأنه عند نقطة معينة، لن يكون متلائماً مع قوانين طبيعية معينة من قوانين الفسيولوجيا. وبالمثل، القرار بأن على الجميع أن يعملوا بأقل جهد، وأن يأكلوا إلى حدّ التخمة، لا يمكن تنفيذه أيضاً عند نقطة معينة، لأسباب عديدة، بما في ذلك القوانين الطبيعية للاقتصاد. (وكما سنرى فيما بعد، في القسم 4 من هذا الفصل، أن ثمة قوانين طبيعية في العلوم الاجتماعية أيضاً؛ سنطلق عليها اسم "قوانين اجتماعية").

وهكذا قد تستبعد قرارات معينة باعتبارها عاجزة عن أن تُنفَّذ، لأنها تعارض قوانين طبيعية معينة (أو "وقائع غير قابلة للتعديل"). ولكن هذا لا يعني بالطبع، أن أي قرار يمكن أن يُشتق منطقياً من مثل هذه "الوقائع غير القابلة للتعديل". وبالأحرى، فالموقف كسالاتي. فبالنظر لأي واقعة أياً كانت، سواء كانت قابلة للتعديل أو غير قابلة للتعديل، يمكننا أن نتبنى قرارات متباينة - مثل أن نعدلها؛ أو نحميها من أولئك الذين يرغبون في تعديلها، أو ألا نتدخل، إلخ. فلو كانت الواقعة التي نحن بصددنا غير قابلة للتعديل - سواء كان ذلك بسبب أن التعديل مستحيل وفقاً لقوانين الطبيعة الموجودة، أو بسبب أن التعديل لأسباب أخرى صعب جداً بالنسبة لأولئك الذين يرغبون في تعديلها - إذن فأي قرار لتعديلها سيكون ببساطة غير عملي، فالواقع أن أي قرار يتعلق بواقعة مثل هذه سيكون أضراراً وبلا معنى.

وهكذا تشدد الثنائية النقدية على استحالة اختزال القرارات أو المعايير إلى وقائع؛ ولذلك فيمكن وصفها بأنها ثنائية الوقائع والقرارات.

ولكن يبدو أن هذه الثنائية معرضة للهجوم. فقد يُقال إن القرارات هي وقائع. فإذا قررنا أن نتبنى معياراً معيناً، إذن فتنفيذ هذا القرار هو ذاته واقعة سيكولوجية أو سوسولوجية، وسيكون من العبث القول إنه ليس ثمة شيء مشترك بين مثل هذه الوقائع ووقائع أخرى. وبما أنه من غير المشكوك فيه أن قراراتنا عن معايير، أعني المعايير التي نتبناها، إنما تستند بوضوح إلى وقائع

سيكولوجية معينة، مثل تأثير تنشئتنا، فإنه يبدو من العبث أن نسلّم بثنائية الوقائع والقرارات، أو أن نقول إن القرارات لا يمكن أن تشتق من وقائع. ويمكن الرد على هذا الاعتراض بالإشارة إلى أننا نستطيع أن نتحدث عن "قرار" بمعنىين مختلفين. فقد نتحدث عن قرار معين ثم اقتراحه، أو دراسته، أو التوصل إليه، أو إقراره؛ وقد نتحدث، بديلاً عن ذلك، عن فعل القرار ونسعى هذا "قراراً". فقط بالمعنى الثاني يمكن وصف القرار بأنه واقعة. والموقف يشابه عدداً من التعبيرات الأخرى. فبمعنى، يمكننا الحديث عن قرار معين كان قد أُحيل إلى مجلس ما، وبالمعنى الآخر، بإقرار المجلس له يمكن اعتباره قراراً للمجلس. وبالمثل، قد نتحدث عن عرض أو اقتراح مطروح أمامنا، ومن الناحية الأخرى، عن واقعة عرض أو اقتراح شيء ما، مما يمكن تسميته أيضاً "عرضاً" أو "اقتراحاً". وثمة إلتباس مماثل معروف جيداً في مجال العبارات الوصفية. دعنا نتناول العبارة: "مات نابليون في سانت هيلينا." سيكون مفيداً أن نميز هذه العبارة عن الواقعة التي تصفها، والتي قد ندعوها الواقعة الأولية، أعني، الواقعة بأن نابليون قد مات في سانت هيلينا. والآن عندما يكتب مؤرخ، وليكن السيد أ، سيرة حياة نابليون، قد يصوغ العبارة المشار إليها. ويفعله ذلك، فإنه يصف ما أسميناه الواقعة الأولية. ولكن ثمة واقعة ثانوية أيضاً، والتي تختلف تماماً عن الواقعة الأولية، أعني الواقعة بأنه صاغ هذه العبارة؛ وعندما يكتب مؤرخ آخر، وليكن السيد ب، سيرة حياة السيد أ، فقد يصف هذه الواقعة الثانوية بقوله: "ذكر السيد أ أن نابليون مات في سانت هيلينا." وبهذه الطريقة وصفت الواقعة الثانوية أحداً هي ذاتها وصف. ولكنه وصف بمعنى الكلمة الذي ينبغي أن يُميّز عن المعنى الذي أطلقنا فيه على العبارة "مات نابليون في سانت هيلينا" أنه وصف. فصياغة وصف أو عبارة يُعدّ واقعة سوسولوجية أو سيكولوجية. بيد أن الرصف المصاغ إنما هو مميّز عن واقعة أنه قد صيغ. ولا يمكن أن يشتق مباشرة من هذه الواقعة؛ لأنه سيعني أننا يمكننا أن نستببط بصورة صحيحة "مات نابليون في سانت هيلينا." من "ذكر السيد أ أن نابليون مات في سانت هيلينا." ومن الواضح أن ذلك ليس في مقدورنا.

وفي مجال القرارات، يكون الموقف مشابهاً. فاتخاذ قرار، أو تبني معيار أو مقياس، إنما هو واقعة. في حين أن المعيار أو المقياس الذي تمّ تبنيه ليس بواقعة. أن يتفق معظم الناس مع المعيار "حذّر أن تسرق" فهذا واقع اجتماعي. أمّا المعيار "ينبغي أن لا تسرق" فهو بحدّ ذاته ليس بواقعة، ولا يمكن أن يُستدلّ عليه أبداً من عبارات تصف وقائع. ولسوف يفهم هذا بوضوح أكثر عندما نتذكر أن هناك دائماً قرارات ممكنة متباينة بل ومتعارضة فيما يتعلّق بواقعة معينة ذات أهمية. فمثلاً، على الرغم من الواقعة السوسولوجية التي يتبنّى فيها معظم الناس القول المأثور "عليك أن لا تسرق"، يظلّ من الممكن أن نشجع أولئك الذين قد تبنّوا القول المأثور، أو أن نشبّط همهم، أو أن نحشّهم على تبني قول مأثور آخر. باختصار، من المستحيل أن نشقّ عبارة تذكر قولاً

مأثوراً أو قراراً أو، قُلْ، اقتراحاً بحكمة عملية من عبارة تذكر واقعة؛ وهذه فقط طريقة أخرى للمقول بأنه من المستحيل أن نشق أقوالاً مأثورة أو قرارات أو اقتراحات من وقائع.

فالعبرة أن المعايير (الأقوال المأثورة) هي من صنع الإنسان (وصنع الإنسان ليس بمعنى أنها صُمِّمت بوعي، وإنما بمعنى أن الإنسان يمكنه أن يصدر فيها حكماً وأن يعدلها، أي، بمعنى أن المسؤولية حيالها تخصصاً تاماً)، قد أُسئَ غالباً فهمها. ويمكن أن نعزو كل إساءات الفهم تقريباً إلى سوء فهم واحد أساسي، أعني، الاعتقاد بأن "العرف" إنما يتضمن "الاعتباطية"؛ فإذا كنا أحراراً في أن نختار أي نسق معايير نشاء، حيثئذ يكون أي نسق جيداً مثل أي نسق آخر. وينبغي، بالطبع، التسليم بأن وجهة النظر القائلة باصطناعية المعايير إنما تشير إلى أنه سيكون ثمة عنصر اعتباطي متضمن، أعني أنه ستكون هناك أنساق مختلفة من المعايير يصعب الاختيار فيما بينها (وهي الحقيقة التي كان بروتاغوراس قد شدد عليها على نحو كاف). بيد أن الاصطناعية لا تتضمن بأية حال الاعتباطية الكاملة. فالحسابات الرياضية، على سبيل المثال، أو السيمفونيات أو المسرحيات تُعدُّ اصطناعية بصورة عالية، ومع ذلك فلا يستتبع أن يكون أحد الحسابات أو إحدى السيمفونيات أو إحدى المسرحيات، في الواقع، مثل الأخرى تماماً. لقد اخترع الإنسان عوالم جديدة - عالم اللغة، وعالم الموسيقى، وعالم الشعر، وعالم العلم، وأكثر هذه العوالم أهمية هو عالم المتطلبات الخلقية، من أجل المساواة، ومن أجل الحرية، ومن أجل نصرة الضعيف. وعند مقارنة حقل الأخلاقيات بحقل الموسيقى أو الرياضيات، فإنني لست راغباً في أن تفهم من ذلك أن هذه التشابهات تذهب إلى حد بعيد جداً. فهناك، على نحو خصوصي أكثر، اختلاف كبير بين القرارات الخلقية، والقرارات في حقل الفن. إذ أن العديد من القرارات الخلقية تؤثر على حياة وموت الناس الآخرين. في حين أن القرارات في حقل الفن تكون أقل إلحاحاً وأهمية بكثير. لذلك فمن أكثر الضلالات أن نقول إن إنساناً يتخذ قراراً لصالح أو ضد العبودية، كما لو أنه يتخذ قراراً لصالح أو ضد أعمال معينة من الموسيقى والأدب، أو أن القرارات الخلقية إنما هي مسائل تذوق بحت. ولا هي مجرد قرارات عن كيف نجعل العالم أكثر جمالاً، أو عن مسائل ترقية أخرى من هذا القبيل، وإنما هي قرارات أكثر إلحاحاً بكثير. (ومع كل هذا قارن أيضاً الفصل التاسع). وقصدت بمقارنتنا فقط أن نبين أن وجهة النظر التي تقرر أن القرارات الخلقية التي تعتمد علينا لا تتضمن اعتباطية بصورة كاملة.

ووجهة النظر التي تقول بأن المعايير هي من صنع الإنسان هي أيضاً، وبالعجب، معرضة للنقد من بعض أولئك الذين يرون في هذا الموقف هجوماً على الدين. وينبغي التسليم، بالطبع، بأن وجهة النظر هذه تعد هجوماً على أشكال معينة من الدين، أعني، دين السلطة الغاشمة، والسحر، والتحریم. بيد أنني لا أعتقد أنها معارضة بأية وسيلة لدين مبني على فكرة المسؤولية

الشخصية وحرية الضمير. وفي بالي، بالطبع، المسيحية على وجه الخصوص، على الأقل كما هي مفسرة عادة في بلدان ديمقراطية؛ تلك المسيحية التي، كمقابل لكل المحرمات، تعظ: "لقد سمعتم ما قال أولئك في الزمان الغابر... ولكنني أقول لكم..." مقابلاً في كل حالة صوت الضمير تجاه مجرد الطاعة الشكلية وتطبيق القانون.

ولا أستطيع أن أقبل القول بأن التفكير في القوانين الأخلاقية كما لو كانت من صنع الإنسان هي بهذا المفهوم متناقضة مع الرؤية الدينية بأن هذه القوانين قد أنزلت من عند الله. إذ أن الأخلاقيات جميعها تبدأ بلا شك، تاريخياً، مع الدين. بيد أنني لا أتعامل الآن مع مسائل تاريخية. فلم أسأل من الذي قد سنَّ أول قانون أخلاقي. وإنما أشدد فقط على أننا، وأنا وحدنا، المسؤولون عن تبني أو رفض بعض القوانين الخلقية المقترحة، وأننا الذين ينبغي أن نميز بين الأنبياء الصادقين والأنبياء الكاذبين. فقد أدعي أن كل أنواع المعايير إنما هي من عند الله. وإذا قبلت الأخلاق "المسيحية" عن المساواة والتسامح وحرية الضمير فقط، بسبب دعواها أنها تستند إلى سلطة إلهية فحسب، فأنت حيثئذ تشيّد على أساس ضعيف، لأنه كان قد أدعي في كثير من الأحوال أن عدم المساواة مرادة من الله، وأننا لا ينبغي أن نكون متسامحين مع الكفار. ومع ذلك إذا قبلت الأخلاق المسيحية ليس لأنك مطالب بأن تفعل هكذا، وإنما بسبب قناعتك بأن هذا هو القرار الصائب الذي يتعين اتخاذه، فعتدئذ تكون أنت الذي قررت. وإصراري على أننا نحن الذين نصدر القرارات ونتحمل المسؤولية لا يجب أن يؤخذ على أنه يتضمن أننا لا نستطيع، أو لا ينبغي أن نكون، مسلحين بالإيمان، وملهمين بالتقاليد أو بأمثلة عظيمة، كما لا يتضمن أن إبداع قرارات خلقية إنما هو مجرد عملية "طبيعية"، أعني من نوع العمليات الفيزيو-كيميائية. فالواقع أن بروتاجوراس، الثاني التقدي الأول، علّمنا أن الطبيعة لا تعرف المعايير، وأن إدخال المعايير شأن من شؤون البشر، وهي أكثر الانجازات الإنسانية أهمية. وهكذا، وكما يطرحها بيرنت، فقد تمكّن بأن "المؤسسات والأعراف هي التي رفعت الإنسان فوق الأعاجم". ولكن على الرغم من إصراره على أن الإنسان هو خالق المعايير، وعلى أن الإنسان هو مقياس كل شيء، إلا أنه اعتقد أن الإنسان لم يتمكّن من انجاز خلق المعايير إلا بعون خارق من الطبيعة. فالمعايير وضعت فوق الشؤون الأصلية أو الطبيعية بواسطة الإنسان، ولكن بعون زيوس. فبأمر زيوس يهب هرمس الإنسان فهم العدالة والشرف؛ وهو يوزع هذه الهبة على جميع الناس بالتساوي. والطريقة التي يفسح بها أول تقرير واضح للثنائية التقديرية المجال لتفسير ديني لشعورنا بالمسؤولية، بين مدى ضعف مقاومة الثنائية التقديرية للموقف الديني. ويمكن تبين منحي مشابه، فيما اعتقد، في سقراط التاريخي (انظر الفصل العاشر) الذي شعر بأنه مجبر، من قبل ضميره، وأيضاً من قبل اعتقاداته الدينية، على أن يرتاب في كل ملطة، والذي بحث عن تلك المعايير التي يمكن الثقة في عدالتها.

ومذهب الأخلاق الذاتية إنما هو مذهب مستقل عن قضية الدين، ولكنه متسق مع، أو ربما حتى ضروري لأي دين يحترم الضمير الفردي.

إن هذا القدر من طرح موضوع ثنائية الوقائع والقرارات أو مذهب استقلال الأخلاق الذي انبرى للدفاع عنه في بادئ الأمر كل من بروتاجوراس وسقراط هو ضروري، على ما أعتقد، لفهم بيتنا الاجتماعية بقدر معقول. ولكن هذا لا يعني بالطبع أن كل "القوانين الاجتماعية"، أعني، كل انتظامات حياتنا الاجتماعية، معيارية ومفروضة على الإنسان. بل على العكس، هناك قوانين طبيعية هامة للحياة الاجتماعية أيضاً. ولهذا يبدو أن المصطلح قوانين سوسيولوجية مناسب تماماً. والواقع أننا نصادف في الحياة الاجتماعية نوعي القوانين، الطبيعية والمعارية، وهو ما يجعل من الأهمية بمكان أن نميز بينهما بوضوح.

في معرض الحديث عن قوانين سوسيولوجية أو قوانين طبيعية للحياة الاجتماعية، لا أعتقد كثيراً في قوانين التطور المزعومة التي اهتم بها التاريخانيون أمثال أفلاطون، على الرغم من أنه إذا كان هناك أي شيء من مثل هذه الانتظامات في التطورات التاريخية، لاندرجت صياغاتها بالتأكيد تحت مقولة القوانين السوسيولوجية. كما أنني لا أعتقد كثيراً في قوانين "الطبيعة الإنسانية"، أعني، انتظامات السلوك الإنساني السيكولوجية والسوسيو - سيكولوجية. ولكنني أعني أن مثل هذه القوانين قد صيغت بالأحرى من قبل النظريات الاقتصادية الحديثة، مثل، نظرية التجارة الدولية، أو نظرية دورة التجارة. هذه وتلك القوانين الاجتماعية الهامة مرتبطة بتوظيف المؤسسات الاجتماعية. (قارن الفصلان الثالث والتاسع). وتلعب هذه القوانين دوراً في حياتنا الاجتماعية مناظراً للدور الذي لعبه مثلاً مبدأ الرافعة في الهندسة الميكانيكية. لأن المؤسسات، مثل الروافع، مطلوبة لو أننا أردنا أن ننجز أي شيء يتعدى قوة عضلاتنا. ومثل الآلات، تضاعف المؤسسات من قوتنا من أجل الخير والشر. ومثل الآلات، فهي تحتاج إلى إشراف ذكي من قبل شخص ما يفهم طريقة توظيفها، والأهم من ذلك كله، غرضها، لأننا لا يمكن أن نشيدها لتعمل بطريقة آلية تماماً. وفضلاً عن ذلك، فإن بناءها يحتاج إلى معرفة ما بالانتظامات الاجتماعية التي تفرض حدوداً على ما يمكن انجازه بواسطة المؤسسات. (وهذه الحدود متماثلة إلى حد ما، مثلاً، مع قانون حفظ الطاقة، الذي يعادل العبارة أننا لا يمكن أن نبني آلة تتحرك حركة أبدية.) ولكن أساساً، تُصنع المؤسسات في أغلب الأحوال بتوطيد مراعاة بعض المعايير، المصممة من أجل هدف معين. ويتحقق هذا، على وجه الخصوص، بالنسبة لتلك المؤسسات التي أنشئت بوعي؛ ولكن حتى المؤسسات التي نشأت كتأثير غير مخطط لها لأفعال إنسانية (قارن الفصل الرابع عشر)، وهي الغالبية العظمى - إنما هي نتائج غير مباشرة لأعمال من نوع ما أو آخر ذات هدف، وتستند وظيفتها، بشكل كبير، إلى التقيد بمعايير. (حتى الآلات الميكانيكية مصنوعة ليس من الحديد

فحسب، وإنما من تصافر الحديد والمعايير معاً، أي، بتحويل الأشياء الطبيعية، ولكن وفقاً لقواعد معيارية معينة، أعني، خططها أو تصميمها.) في المؤسسات تكون القوانين المعيارية والسوسولوجية، أعني، القوانين الطبيعية متضافرة تماماً، ولذلك من المستحيل أن نفهم وظيفة المؤسسات دون أن نكون قادرين على التمييز بين هذين النوعين من القوانين. (والمقصود بهذه الملاحظات اقتراح مشكلات معينة أكثر من تقديم الحلول. وعلى وجه الخصوص، لا يجب تفسير المماثلة المذكورة بين المؤسسات والآلات على أنها اقتراح لنظرية تدعو إلى أن المؤسسات آلات - بمعنى ماهوي ما. فهي ليست بالطبع آلات. وعلى الرغم من الأطروحة المقترحة هنا، فإنه يمكن الحصول على نتائج مفيدة ومثيرة إذا سألنا أنفسنا ما إذا كانت مؤسسة ما تخدم هدفاً معيناً، وما هي هذه الأهداف التي تخدمها، فليس من المؤكد أن كل مؤسسة تخدم هدفاً محدداً ما - هدفها الأساسي، كما كان محدداً لها.)

5

وكما هو مشار إليه من قبل، هناك خطوات وسيطة متعددة في التطور من واحدة ساذجة أو سحرية، إلى ثنائية نقدية تحقق بوضوح التمييز بين المعايير والقوانين الطبيعية. وتتأ معظم هذه المواضيع الوسيطة من إساءة فهم أن المعيار إذا كان عُرْفياً أو اصطناعياً، فهو اعتباطي تماماً. ولكي نفهم موقف أفلاطون، الذي يضم عناصرها جميعاً، من الضروري أن نلقي نظرة عامة على ثلاثة من أهم المواقف الوسيطة. وهي (1) النزعة الطبيعية البيولوجية، و (2) نزعة الرضعية الأخلاقية أو الشرعية، و (3) النزعة الطبيعية السيكولوجية أو الروحية. ومن المثير حقاً أن كل واحد من هذه المواقف كان قد استخدم للدفاع عن وجهات نظر أخلاقية متعارضة كل منها مع الأخرى كل التعارض، وبصفة خصوصية أكثر، للدفاع عن سيادة القوة، وللدفاع عن حقوق الضعيف في الوقت نفسه.

(1) والنزعة الطبيعية البيولوجية، أو بدقة أكثر، الصورة البيولوجية للنزعة الطبيعية الأخلاقية، إنما هي النظرية التي تذهب إلى أنه على الرغم من حقيقة أن القوانين الخلقية، وقوانين الدول اعتباطية، فإن هناك بعض قوانين الطبيعة الثابتة الأزلية التي منها يمكن اشتقاق مثل هذه المعايير. فصاحب النزعة الطبيعية البيولوجية يمكن أن يدعي أن عادات الطعام، أي عدد الوجبات، ونوع الطعام المتناول، إنما هي مثال على إعتباطية الأعراف، ومع ذلك فهناك بلاشك قوانين طبيعية معينة في هذا المجال. فالرجل يموت مثلاً إذا تناول طعاماً إما غير كافٍ أو أكثر من اللازم. ولذلك فيبدو أن هناك بعض القوانين الطبيعية الثابتة، وعلى وجه

الخصوص، قوانين البيولوجيا، خلف أعرافنا الاعتبارية، تماماً كما توجد حقائق خلف المظاهر.

ولقد استخدمت النزعة الطبيعية البيولوجية ليس فحسب للدفاع عن المساواة*، وإنما أيضاً للدفاع عن مذهب حكم القوي المعارض للمساواة. وكان أحد أوائل الذين قدّموا نظرية في النزعة الطبيعية هذه هو الشاعر بندار، الذي اعتاد أن يدعم النظرية التي تذهب إلى أن القوي ينبغي أن يحكم. وادّعى أن هذا قانون صحيح في كل مكان من الطبيعة، أن يفعل الأقوى ما يعن له مع الأضعف. وهكذا فالقوانين التي تحمي الضعيف ليست اعتبارية فحسب، وإنما هي تشريعات اصطناعية للقانون الطبيعي الحقيقي الذي يفرض على القوي أن يكون حراً وعلى الضعيف أن يكون عبداً له. ولقد نوقشت وجهة النظر هذه طويلاً من قبل أفلاطون؛ فقد هوجمت في جورجياس، وهي المحاورة التي كانت لاتزال متأثرة كثيراً بسقراط؛ وفي الجمهورية، قال بها ترازيمachus، ومائل بينها وبين النزعة الفردية الأخلاقية (انظر الفصل التالي)، أما في القوانين، فقد كان أفلاطون أقلّ عداء لوجهة نظر بندار؛ ولكنه لا يزال يقابل بينها وبين حكم الأكثر حكمة، الذي يُعتبر، على حدّ قوله، مبدأ أفضل ولا يقلّ توافقاً مع الطبيعة. (انظر أيضاً الاقتباس الأخير في هذا الفصل).

وكان أول من وضع ترجمة إنسانية أو مساواتية للنزعة الطبيعية البيولوجية هو السوفسطائي أنتيفون. وإليه ينسب أيضاً مماثلة الطبيعة للحق، والعرف للرأي (أو "الرأي الباطل"). ويُعدّ أنتيفون ذو نزعة طبيعية متطرفة. فهو يعتقد أن معظم المعايير ليست اعتبارية فحسب، وإنما تتعارض مباشرة مع الطبيعة. فهو يقول إن المعايير مفروضة من الخارج، في حين أن أحكام الطبيعة لا مفرّ منها. ومن غير الملائم بل ومن الخطر أن يخرق المرء معايير مفروضة من قبل الإنسان، إذا لوحظ الخرق من قبل أولئك الذين فرضوها؛ بيد أنه ليس ثمة ضرورة ملحة للهجوم عليها، فالمرء ليس في حاجة للخجل من خرقها، فالخجل والعقاب هما العقوبتان الوحيدتان المقروضتان بصورة اعتبارية من الخارج. وعلى أساس هذا النقد للأخلاق العرفية، يقيم أنتيفون علم الأخلاق المنفي. "وبخصوص الأفعال المذكورة هنا، سيجد المرء العديد من الأشياء المتعارضة مع الطبيعة. لأنها تتضمن معاناة أكثر حيث ينبغي أن تكون أقل، ومتعة أقل حيث من الممكن أن تكون أكثر، وظلم حيث هو غير ضروري". وهو في نفس الوقت يلقتنا درساً في الحاجة إلى ضبط النفس. فهو يصوغ نزعته في المساواة على النحو التالي: "إننا نيجل المولود النيل ونوقره، ولا نفعل ذلك مع المولود الوضع - إنها عادات بربرية. لأنه بالنسبة لمواهبنا الطبيعية، فنحن جميعاً على قدم

* أي القول بالمساواة بين البشر. (المترجم)

المساواة، في كل شيء، سواء تصادف أن كنا الآن يونانيين أو برابرة . . . إتنا نتنفس جميعاً الهواء من أفواهنا وأنوفنا ."

وكانت دعوة إلى المساواة شبيهة بتلك (التي دعى إليها أنثيون) أعلنها السوفسطائي هيباس، الذي يمثله أفلاطون موجهاً خطابه لمستمعيه قائلاً: "أيها السادة، الأجلاء، أعتقد أننا جميعاً أقارب وأصدقاء ومواطنون، إن لم يكن هذا بقانون عرفي، فهو إذن بالطبيعة. لأنه بالطبيعة يكون الشبه تعبيراً عن القرابة؛ ولكن القانون العرفي، وهو ذلك القانون المستبد بالجنس البشري، إنما يجبرنا على أن نفعل الكثير الذي يعارض الطبيعة." وكانت هذه الروح مرتبطة بالحركة الأثينية ضد العبودية (المشار إليها في الفصل الرابع)، وهي الحركة التي أطلق عليها يوريسديس تعبير: "الاسم الوحيد الذي يجلب العار على العبد الذي يمكنه أن يكون ممتازاً في كل درب ومتساوياً بحق مع الرجل المولود حراً." ويقول في مكان آخر: "قانون الطبيعة الإنساني هو المساواة." وكتب ألكسندروس، تلميذ جورجياس ومعاصر أفلاطون: "لقد خلق الله كل الناس أحراراً؛ ولا يوجد إنسان عبد بالطبيعة." وثمة آراء شبيهة عُبِّرَ عنها ليكوفرون، وهو عضو في مدرسة جورجياس: "إن بهاء مولد النيل وهمي، وامتيازاته مستندة إلى مجرد كلمة."

وكرر فعل ضد هذه الحركة الإنسانية العظيمة - حركة الجيل العظيم، كما سأطلق عليهم فيما بعد (في الفصل العاشر) - قدم أفلاطون وتلميذه أرسطو نظرية عدم المساواة البيولوجية والخلقية. فالأغريق والبرابرة غير متساوين بالطبيعة، والتعارض بينهم يناظر التعارض بين الأسياد بالطبيعة، والعبيد بالطبيعة. وعدم المساواة الطبيعية للإنسان هي أحد الأسباب لحياتهم معاً، لأن مواهبهم الطبيعية متكاملة. إذ أن الحياة الاجتماعية تبدأ بعد المساواة الطبيعية، وهي ينبغي أن تستمر على هذا الأساس. وسوف أناقش هذه المذاهب فيما بعد بتفصيل أكثر. أما الآن، فإنها قد تصلح لتبين كيف يمكن أن يستخدم المذهب الطبيعي لدعم معظم المذاهب الأخلاقية المتباينة. وعلى ضوء تحليلنا السابق لاستحالة تأسيس معايير على وقائع، فإن هذه النتيجة ليست غير متوقعة.

ومع ذلك، فإن مثل هذه الاعتبارات ربما لا تكون كافية لهزيمة نظرية يمثل شعبية المذهب الطبيعي البيولوجي، ولذلك فإنني أقترح تقديم مباشرين بلرجة أكبر. أولاً، ينبغي التسليم بأن أشكالاً من السلوك قد توصف بأنها "طبيعية" أكثر من أشكال أخرى؛ مثلاً، السهر عارياً أو أكل طعام نيء فقط، ويعتقد بعض الناس أن هذا في حد ذاته يبرر اختيار هذه الأشكال. ولكن بهذا المعنى ليس من الطبيعي بالتأكيد أن يشغل المرء نفسه بالفن، أو العلم، أو حتى بمناقشات لصالح المذهب الطبيعي. فاختيار التوافق مع "الطبيعة" باعتباره معياراً سامياً إنما يؤدي في الختام إلى نتائج لن يكون مستعداً لمواجهة إلا القليلين، فهي لا تؤدي إلى شكل طبيعي أكثر للحضارة، وإنما إلى

البهيمية. أمّا النقد الثاني فهو أكثر أهمية، إذ يفترض صاحب النزعة الطبيعية البيولوجية أنه قادر على أن يشتق معايير من القوانين الطبيعية التي تحدد شروط الصحة، إلخ، لو أنه لم يعتقد بسداجة أننا لسنا في حاجة إلى تبني أية معايير كانت، ولكن نعيش ببساطة وفقاً لـ "قوانين الطبيعة". وهو يغفل حقيقة أنه يجري اختياراً، ويتخذ قراراً؛ بأن من الممكن أن يفضل بعض الناس الآخرين أشياء معينة أكثر من صحتهم (مثل، الكثير ممن عرّضوا حياتهم للخطر عن وعي بغرض البحث الطبي). وهو لذلك يكون خاطئاً إذا اعتقد أنه لم يتخذ قراراً، أو أنه قد اشتق معايير من قوانين بيولوجية.

(2) وتنقسم الوضعية الأخلاقية مع الصورة البيولوجية للطبيعة الأخلاقية الاعتقاد بأننا ينبغي أن نحاول ردّ المعايير إلى الوقائع. بيد أن الوقائع في هذه المرة هي وقائع سوسيولوجية، أعني، المعايير الفعلية الموجودة. وتزعم الوضعية أنه ليس ثمة معايير أخرى سوى القوانين التي كانت قد تأسست بالفعل (أو "وضعت"). والتي لها لذلك وجود حقيقي. أمّا المعايير الأخرى فينظر إليها بوصفها تخيلات غير حقيقية. فالقوانين الموجودة هي المعايير الممكنة الوحيدة للمصالح، فالموجود هو الصالح. (والقوة هي الحق) وطبقاً لبعض أشكال هذه النظرية، من سوء الفهم الجسيم أن نعتقد بأنه يمكن للفرد أن يحكم على معايير المجتمع، فالأحرى، أن المجتمع هو الذي يزودنا باللائحة القانونية التي يجب أن نحكم بها على الفرد.

وكمسألة واقعة تاريخية، فقد كانت الوضعية الأخلاقية (أو الخلقية، أو الشرعية) عادة محافظة، أو حتى مستبدة، وقد توسلت غالباً إلى سلطة الله. وتستند حججها، فيما أعتقد، إلى الاعتبارية المزعومة للمعايير. وهي تزعم أننا ينبغي أن نعتقد في المعايير الموجودة، لأننا لن نعثر لأنفسنا على أفضل منها. وفي الرد على هذا الزعم، قد نُسأل: وماذا عن هذا المعيار "هل ينبغي أن نعتقد... إلخ؟" فإذا كان هذا معياراً موجوداً فحسب، فإنه لا يُعتدُّ به كحجة لصالح هذه المعايير، ولكن إذا كان نداء لبصيرتنا، فهو سيسمح عندئذ بأن في استطاعتنا أن نعثر لأنفسنا في النهاية على معايير. وإذا طلب منا أن نقبل معايير مفروضة لأننا لا نستطيع الحمل عليها، إذن فلن يمكننا أيضاً أن نعرف ما إذا كانت دعاوي السلطة مبررة، أو ما إذا كان لا يجب علينا اتباع نبي كاذب. وإذا كان يُظن بأنه ليس ثمة أنبياء كذّبة لأن القوانين على أية حال اعتبارية، بحيث أن الشيء الأساسي هو أن تكون لنا بعض القوانين، إذن فقد نسال أنفسنا لماذا يتعين أن تكون لدينا قوانين على الإطلاق، لأنه إذا لم تكن ثمة معايير إضافية، إذن فلماذا لا نستطيع أن نختار ألا تكون لدينا قوانين؟ (وربما تشير هذه الملاحظات إلى دواعي اعتقادي بأن المبادئ السلطوية أو المحافظة إنما هي عادة تعبير عن عدمية أخلاقية؛ ويقال إنها تعبير عن شكية خلقية متطرفة، عن عدم ثقة الإنسان في قدراته.)

وبينما كانت نظرية الحقوق الطبيعية قد قُدمت غالباً، على مجرى التاريخ، دعماً للأفكار المساواتية والإنسانية، فإن المدرسة الوضعية كانت عادة في المعسكر المضاد. بيد أن هذا ليس أكثر من حادث عارض. فكما تبين من قبل قد تستخدم الطبيعة الأخلاقية لأغراض شديدة الاختلاف (فقد كانت مستخدمة حديثاً لإدراك المسألة الكلية بإعلان حقوق "طبيعية" والتزامات مزعومة معينة بصفتها "قوانيناً للطبيعة") وعلى العكس من ذلك، هناك أيضاً الوضعيون الإنسانيون والتقدميون. لأنه لو كانت كل المعايير اعتبارية، فلماذا لا تكون متسامحاً؟ وتعد هذه محاولة نمطية لتبرير اتجاه إنساني في سياق خطوط الوضعية.

(3) ويُعدُّ المذهب الطبيعي السيكولوجي أو الروحاني نوعاً ما توفيقاً لوجهتي النظر السابقتين، ويمكن شرحه على أحسن وجه باستخدام حجة ضد تحيز وجهات النظر هذه. إذ تمضي هذه الحجة قائلة، إن الوضعاني على حق، لو كان يشدد على أن جميع المعايير عرفية، أي، نتاج الإنسان، والمجتمع الإنساني؛ بيد أنه يغفل حقيقة أنها بذلك تكون تعبيراً عن طبيعة الإنسان السيكولوجية أو الروحية، وعن طبيعة المجتمع الإنساني. كما أن ذا التزعة الطبيعية البيولوجية على حق في افتراضه أن ثمة أهدافاً أو مراماً طبيعية معينة، يمكن أن نشق منها معايير طبيعية، بيد أنه يغفل حقيقة أن أهدافنا الطبيعية ليست بالضرورة مثل أهداف الصحة، أو اللذة أو الطعام، أو المأوى أو التكاثر. فالطبيعة الإنسانية مرتبة بشكل يجعل الرجل، أو على الأقل بعض الرجال، لا يريد أن يحيا بالخبز وحده، ويبحث عن أهداف أسمى، أهداف روحية. وهكذا يمكننا أن نشق الأهداف الطبيعية الحقة للإنسان من طبيعته الحقة الخاصة، والتي هي روحية، واجتماعية. فضلاً عن أننا يمكننا أن نشق المعايير الطبيعية للحياة من مراميه الطبيعية.

واعتقد أن أفلاطون هو أول من صاغ هذا الموقف المقبول، وكان حيثئذ واقعاً تحت تأثير المذهب السقراطي في الروح، أي تعاليم سقراط بأن الروح أكثر أهمية من الجسد. وإن جاذبية هذا الموقف لعواطفنا هي بالتأكيد أشد كثيراً من جاذبية الموقفين الآخرين. ومن الممكن ضمه، مثل الموقفين الآخرين، إلى أي قرار أخلاقي، إلى موقف إنساني، أو إلى عبادة القوة. لأننا يمكننا أن نقرر، مثلاً، أن نتعامل مع كل الناس بوصفهم مشاركين في هذه الطبيعة الإنسانية الروحية؛ أو يمكننا أن نصر، مثل هيراقليطس، على أن العديد منهم "يملاؤن بطونهم كالسائمة"، وهم لذلك ذوو طبيعة أكثر وضاعة، وأن القليل منهم فحسب هم المختارون وهم المستحقون لمجتمع الرجال الروحي. وبناءً على ذلك، فقد كان المذهب الطبيعي الروحي كثيراً ما يُستخدم، وخصوصاً من قبل أفلاطون، لتبرير الامتيازات الطبيعية لـ "التبيل" أو "المختار" أو "الحكيم" أو "القائد الطبيعي"، (ولسوف تناقش موقف أفلاطون في الفصول التالية). ومن جهة أخرى، فقد استخدمته صور مسيحية وإنسانية أخرى في علم الأخلاق، مثلاً بواسطة بين Paine، وكذلك

كانط، للمطالبة بالتعرف على "الحقوق الطبيعية" لكل واحد من البشر. ومن الواضح أن المذهب الطبيعي الروحي يمكن أن يُستخدم للدفاع عن أي معيار "وضعي"، أعني، موجود. لأنه يمكن دائماً أن يجادل أن هذه المعايير لن يُعمل بها إذا لم تعبر عن بعض سمات الطبيعة الإنسانية. وبهذه الطريقة، يمكن للمذهب الطبيعي الروحي، في مشكلات عملية، أن يصبح متفقاً مع الوضعية، على الرغم من تعارضهما التقليدي. وفي الواقع، فإن هذا الشكل من المذهب الطبيعي يكون من الاتساع ومن الغموض بحيث يمكن أن يُستخدم للدفاع عن أي شيء. فلا يوجد شيء مَرَّ بالإنسان لم يزعم أنه طبيعي، لأنه لو لم يكن في طبيعته، فكيف حدث له؟

وإذا ألقينا نظرة ثانية على هذا العرض المفضل المختصر، ربما كان في مقدورنا أن نميز بين اتجاهين رئيسيين وقفنا في طريق تبني ثنائية نقدية. الأول اتجاه نحو الواحدية، أو كما يقال، نحو رد المعايير إلى وقائع. أما الثاني فهو أعمق، ومن الممكن أن يشكل خلقية للأول. فهو يستند إلى الاعتراف لأنفسنا بأن مسؤولية قراراتنا الأخلاقية تقع بالكامل على عاتقنا ولا يمكن أن تنتقل إلى أي شخص آخر، لا إلى الله، ولا إلى الطبيعة، ولا إلى المجتمع، ولا إلى التاريخ. ونحاول كل هذه النظريات الأخلاقية أن تعثر على شخص ما، أو ربما حجة ما لتحمل العبء عنا. بيد أننا لا يمكن أن نتصل من هذه المسؤولية. فمهما كانت السلطة التي نقبلها، فنحن الذين قبلناها، وإذا لم تبين هذه النقطة البسيطة، تكون قد خدعنا أنفسنا.

6

ويجدر بنا أن نتقل الآن إلى تحليل أكثر تفصيلاً للترعة الطبيعية لدى أفلاطون، وعلاقتها بترعته التاريخية. لم يستخدم أفلاطون، بالطبع، وطوال الوقت المصطلح "طبيعة" ليعني به نفس المعنى. فأهم معنى يعطيه لهذا المصطلح، إنما يتماثل عملياً، فيما اعتقد، مع ذلك المعنى الذي يلحقه بالمصطلح "جوهر". ولا تزال هذه الطريقة في استخدام المصطلح "طبيعة" حية إلى يومنا هذا فيما بين الجوهريين، فهم لا يزالون يتحدثون، مثلاً، عن طبيعة الرياضيات، أو عن طبيعة الاستدلال الاستقرائي، أو عن "طبيعة السعادة والشقاء". وعندما استُخدم من قبل أفلاطون بهذه الطريقة، فإن معنى "الطبيعة" كان هو نفسه تقريباً معنى "الصورة" أو "المثال"؛ لأن صورة أو مثال الطبايع (جمع طبيعة)، والصور أو المثل هو هذا. فالصورة أو المثال لشيء محسوس لا يكون، كما سبق أن رأينا، في ذلك الشيء، وإنما منعزلاً عنه، إنه سلفه، أبوه الأول؛ بيد أن هذه الصورة أو الأب، يمر عبر شيء ما إلى الأشياء المحسوسة التي هي أخلافه أو أجناسه، أعني، طبيعته. وهكذا تُعد هذه الطبيعة فطرية أو صفة أصلية للشيء، ومن ثم هي جوهره الملازم؛ إنها

القوة الأصلية، أو طبع الشيء، وهي تحدد تلك الخصائص التي هي أساس مماثلته أو مشابهته، أو مشاركته الفطرية، لصورته أو مثاله.

فـ "الطبيعي"، وفقاً لذلك، إنما هو ما يكون فطرياً، أو أصلياً، أو إلهياً في شيء، في حين أن "الاصطناعي" هو ما كان قد غيره الإنسان فيما بعد، أو أضافه، أو فرضه، من خلال إلزام خارجي. ويصر أفلاطون مراراً على أن كل نتائج "الفن" الإنساني في أروع صورها إنما هي فقط نسخ لأشياء "طبيعية" محسوسة. ولأن هذه بدورها مجرد نسخ للصور أو المثل الإلهية، فإن نتائج الفن تُعدُّ نسخاً للنسخ، إنها منقولة مرتين عن الحقيقة، ولذلك فهي أقل جودة، وأقل واقعية، وأقل صدقاً حتى من الأشياء التي في حالة تدفق. ونرى من هذا أن أفلاطون يتفق مع أنثيفون على الأقل في نقطة واحدة، أعني في افتراض أن التعارض بين الطبيعة والعرف أو الفن إنما يتناظر مع ذلك الذي نجده بين الصدق والكذب أو بين الحقيقة والمظهر، بين الأشياء الأولية أو الأصلية، والأشياء الثانوية أو التي من صنع الإنسان، وكذلك بين موضوعات المعرفة العقلية وتلك التي تتسمي إلى الرأي الوهمي. وينظر التعارض أيضاً، وفقاً لأفلاطون، ذلك الذي يقع بين "الصنعة الإلهية" أو "نتائج الفن" الإلهي من جانب، وما يفعله الإنسان منها، أي نتائج الفن البشري من جانب آخر. إن كل الأشياء التي يودُّ أفلاطون التشديد على قيمتها الجوهرية، يزعم أنها أشياء طبيعية، وذلك في مقابل الأشياء الاصطناعية. ولذلك فهو يصرُّ في القوانين على أن للروح اعتبار سابق على كل الأشياء المادية، وأنه يجب القول بالتالي أنها توجد بالطبيعة؛ فكل الناس تقريباً... جاهلون بقوة الروح، وخصوصاً بأصلها. فهم لا يعرفون أنها ضمن أول الأشياء، وسابقة على كل الأجسام... وباستخدام الكلمة "طبيعة" فإننا نرغب في وصف الأشياء التي خلقت أولاً، ولكن لو اتضح أن الروح هي السابقة على الأشياء الأخرى (وربما ليس على النار أو الهواء)،... فحينئذ يمكن التأكيد على أن الروح، بخلاف الأشياء الأخرى، موجودة بالطبيعة، وبأصدق معنى للكلمة. (وبعيد أفلاطون هنا التأكيد على نظريته القديمة التي ترى أن الروح أكثر شبهاً للصور أو المثل من الجسد؛ وهي النظرية التي تُعدُّ أيضاً أساساً لمذهب المتعلق بالخلود).

يبد أن أفلاطون لا يُخبرنا أن الروح سابقة على الأشياء الأخرى ومن ثم فهي توجد بـ "الطبيعة" فحسب، وإنما هو كثيراً ما يستخدم المصطلح "طبيعة" على البشر بوصفه اسماً للقدرات الروحية ولللهيات أو المواهب الطبيعية، بحيث يمكننا القول إن "طبيعة" إنسان، هي نفسها "روحه"؛ إنها المبدأ الإلهي الذي عن طريقه يشارك في الصورة أو المثال، في السلف الإلهي لجنسه. ويستخدم مرة أخرى المصطلح "جنس" بصورة متكررة بمعنى مشابه جداً. بما أن الجنس موحد لكونه الخلف لنفس السلف، فيجب أيضاً أن يكون موحداً بالطبيعة المشتركة. ولذلك

يستخدم أفلاطون كثيراً المصطلحين "طبيعة" و "جنس" كمترادفين، مثلاً عندما يتحدث عن "جنس الفلاسفة"، وعن هؤلاء الذين لديهم "طبائع فلسفية".

وتفتح نظرية أفلاطون عن "الطبيعة" منحى آخر لمنهجية التاريخانية. فحيث يبدو أن مهمة العلم بصفة عامة هي فحص الطبيعة الحقّة لأشياءه، فإن مهمة العلم الاجتماعي هي فحص طبيعة المجتمع الإنساني، وطبيعة الدولة. بيد أن طبيعة شيء، وفقاً لأفلاطون، هي أصله؛ أو على الأقل، محددة بأصله. وهكذا فلسوف يكون منهج أي علم هو البحث في أصل الأشياء (في "أسبابها"). وعندما يطبق هذا المنهج على علم الاجتماع وعلم السياسة، فإنه يقود إلى مطلب ضرورة فحص أصل المجتمع وأصل الدولة. ولذلك فالتاريخ لا يُدرس لذاته، وإنما لخدمة نهج العلوم الاجتماعية. وهذه هي منهجية التاريخاني.

فما هي طبيعة المجتمع الإنساني، أو الدولة؟ وفقاً للمناهج التاريخية، ينبغي أن تُعاد صياغة هذا السؤال الأساسي في علم الاجتماع على النحو التالي: ما أصل المجتمع، وما أصل الدولة؟ وتتفق الإجابة المقدمة من قبل أفلاطون في الجمهورية، وأيضاً في القوانين، مع الموقف الذي وصفناه من قبل بالنزعة الطبيعية الروحية. فأصل المجتمع إنما هو عُرْفٌ، عقد اجتماعي. بيد أنه ليس ذلك فحسب، وإنما هو بالأحرى، عُرْفٌ طبيعي، عُرْفٌ يستند إلى طبيعة إنسانية، وبدقة أكثر، إلى الطبيعة الاجتماعية للإنسان.

وتستمد هذه الطبيعة الاجتماعية للإنسان أصلها من عدم الكمال في الإنسان الفرد. وعلى خلاف سقراط، يعلمنا أفلاطون أن الفرد الإنساني لا يمكنه أن يكون مكتفياً بذاته، بسبب المحدودية الكامنة في الطبيعة الإنسانية. وعلى الرغم من أن أفلاطون يصرُّ على أن ثمة درجات شديدة الاختلاف للكمال الإنساني، فإنه يتضح أن حتى القليل جداً من الناس الكُمل نسبياً لا يزال يعتمد على الآخرين (الأقل كمالاً)، على الأقل فيما يتعلقُ بأداء هؤلاء للأعمال القادرة أو الأعمال اليدوية. وبهذه الطريقة، فحتى الطبائع النادرة وغير المألوفة التي تقترب من الكمال تعتمد على المجتمع، وعلى الدولة. فهم يمكنهم بلوغ الكمال فقط من خلال الدولة، وفي الدولة، لذلك يتعين أن تهىء لهم المدينة الفاضلة "البيئة الاجتماعية" الملائمة، والتي بدونها لا بد أن ينمو نمواً فاسداً منحطاً. لذلك ينبغي أن تكون مكانة الدولة أعلى من مكانة الفرد، لأنه لا يمكن للدولة فقط أن تكون مكتفية بذاتها "الحاكمة بأمرها"، الكاملة، والقادرة على أن تتمم النقص الضروري للفرد.

وهكذا يعتمد المجتمع والفرد كل منهما على الآخر. ويدين كل منهما بوجوده للآخر. فالمجتمع يدين بوجوده للطبيعة الإنسانية، ولا سيما لافتقاره للاكتفاء الذاتي، كما يدين الفرد

بوجوده للمجتمع لأنه غير مكفٍ بذاته. ولكن من خلال علاقة الاعتماد المتبادل هذه، فإن تفوق الدولة على الفرد إنما يوضح نفسه بطرق متعددة، مثلاً، في حقيقة أن بذرة انحلال وتفكك دولة كاملة لا تنشأ في الدولة ذاتها؛ إنها متجذرة في نقص الروح الإنسانية، الطبيعة الإنسانية، أو بدقة أكثر، في حقيقة أن الجنس البشري قابل لأن يفسد. وسأعود إلى هذه النقطة في الحال، نقطة أصل التحلل السياسي واعتماده على تدهور الطبيعة الإنسانية، ولكنني أود أولاً أن أقدم قليلاً من التعليقات على بعض خصائص علم الاجتماع الأفلاطوني، وعلى وجه التحديد، رؤيته لنظرية العقد الاجتماعي، ونظريته للدولة كإنسان فوق العادة، أي رؤيته للنظرية البيولوجية أو العضوية للدولة.

وسواء كان بروتاجوراس هو الذي اقترح أولاً أن القوانين تنشأ عن عقد اجتماعي، أو كان ليكوفرون (والذي ستناقش نظريته في الفصل المقبل) هو أول من اقترح هذا، فإن ذلك ليس مؤكداً. وعلى أية حال، فإن الفكرة وثيقة الارتباط بالنزعة العرفية لدى بروتاجوراس. وحقيقة أن أفلاطون ضمَّ عن وعي بعض الأفكار العرفية، وحتى شكلاً من نظرية العقد، إلى نزعته الطبيعية، فإن ذلك، في حد ذاته، يُعدُّ مؤشراً على أن النزعة العرفية في صورتها الأصلية، لم تزعم أن القوانين اعتباطية تماماً؛ ويؤكد هذا ملاحظات أفلاطون على بروتاجوراس. ويمكن فهم الكيفية التي كان بها أفلاطون واعياً بالعنصر العرفي في رؤيته للنزعة الطبيعية من فقرة في القوانين. إذ يقدم أفلاطون في تلك الفقرة قائمة بالمبادئ المتعددة التي ينبغي أن تقوم عليها السلطة السياسية، منوهاً بالنزعة الطبيعية لدى بندار (انظر عليه)، أعني "المبدأ الذي يذهب إلى أن الأقوى سيحكم والأضعف سيحكم"، والتي يصفها بأنها مبدأ "موافق للطبيعة، كما ذكر ذات مرة شاعر طيبة بندار." ويقابل أفلاطون هذا المبدأ بمبدأ آخر ينصح به، وذلك ببيان أنه يوحد النزعة العرفية بالنزعة الطبيعية؛ "ولكن هناك أيضاً... إدعاء هو أعظم المبادئ، وهو أن الحكيم سوف يقود ويحكم، وأن الجاهل سوف يتبعه، وهذا يابندار، يأحكم الشعراء، لا يتعارض بالتأكيد مع الطبيعة، بل يتفق معها، وذلك لأنه يتطلب لبس ضغطاً خارجياً، وإنما حكماً طبيعياً حقاً لقانون يستند إلى قبول متبادل."

ونجد في الجمهورية عناصر من النظرية العرفية للعقد منضعة بنفس الطريقة إلى عناصر من النزعة الطبيعية (ومذهب المنفعة). ونسمع هناك "أن الدولة تنشأ لأنه ليس لدينا اكتفاء ذاتي، . . . أو هل هناك أصل آخر للاستيطان في المدن؟ يتجمع الناس في موطن ما . . . الجميع يساعد، لأنهم يحتاجون إلى أشياء كثيرة . . . وعندما يتقاسمون سلعهم فأحدهم يعطي والآخر يأخذ، أفلا يتوقع كل واحد منهم أنه يعضد مصلحته الذاتية؟". هكذا يجتمع السكان معاً لكي يخدم كل واحد منهم مصلحته الذاتية، التي هي عنصر من عناصر نظرية العقد. ويقف خلف هذا حقيقة من

حقائق الطبيعة الإنسانية، وهذا العنصر من عناصر النزعة الطبيعية. ثم أنه يطور هذا العنصر أكثر، قائلاً: "لا يتشابه أي اثنين منّا تشابهاً تاماً، فلكل طبيعته الخاصة، البعض يناسبه نوع معين من العمل، والبعض يناسبه نوع آخر . . . أمن الأفضل أن يعمل الإنسان في مهنة مُتعلِّدة أو أن يعمل في مهنة واحدة فقط؟ . . . بالتأكيد سيتمكن انتاج الأكثر والأفضل، ويسر أكثر لو أن كل إنسان عمل في مهنة واحدة فقط، وفقاً لمواهبه الطبيعية."

ولقد أدخل بهذه الطريقة المبدأ الاقتصادي لتوزيع العمل (مذكرنا بالتشابه بين نزعة أفلاطون التاريخية والتفسير المادي للتاريخ). بيد أن هذا المبدأ مستند هنا إلى عنصر النزعة الطبيعية البيولوجية، وهو عدم المساواة الطبيعية بين البشر. ولقد أدخلت هذه الفكرة أولاً، بصورة غير واضحة ومن ثم، بسلامة نية. بيد أننا سنرى في الفصل التالي أنه قد ترتبت عليها نتائج بعيدة المدى؛ فالتقسيم المهم الوحيد للعمل هو ذلك التقسيم بين الحكام والمحكومين، والذي يستند إلى عدم المساواة الطبيعية بين السادة والعبيد، بين الحكيم والجاهل.

ولقد رأينا أن ثمة عنصراً هاماً للنزعة العرقية مثلها مثل النزعة الطبيعية البيولوجية في موقف أفلاطون؛ وهو ملاحظة لن تدهشنا عندما نلاحظ أن هذا الموقف، في مجمله، ينتمي إلى النزعة الطبيعية الروحية، وهو بسبب غموضه يسمح ببساطة بكل مثل هذه التوافق. وربما كانت هذه الرؤية الروحية للنزعة الطبيعية مصاغة بأفضل صورة في القوانين. يقول أفلاطون: "يقول الناس إن أعظم الأشياء وأكثرها جمالاً هي الأشياء الطبيعية . . . وأن الأقل منها مرتبة هي الأشياء الاصطناعية." فهذا هو موقفه إذن، ولكنه لا يلبث أن يهاجم الماديين الذين يقولون "بأن النار والماء والأرض والهواء، توجد جميعاً بالطبيعة . . . وأن كل القوانين المعيارية غير طبيعية واصطناعية ومستندة إلى خزعبيات غير حقيقية." وهو يبين أولاً، في معارضته لوجهة النظر هذه، أن لا الأجسام ولا العناصر، بل النفس وحدها هي التي "توجد بحق بالطبيعة." (ولقد اقتبست هذه الفقرة عاليه)؛ ويستتج من هذا أن النظام والقانون ينبغي أن يكونا أيضاً بالطبيعة، لأنهما ينبثقان عن النفس؛ "فلو كانت النفس سابقة على الجسد، فالأشياء المعتمدة على النفس (أي الأمور النفسية)، سابقة أيضاً على تلك المعتمدة على الجسد . . . وترتب النفس وتوجه كل الأشياء." وهذا يمد المذهب بالخلفية النظرية، وهو مذهب أن "القوانين والمؤسسات ذات الهدف توجد بالطبيعة، وليس بأي شيء آخر أدنى من الطبيعة، لأنها مفطورة على العلة والفكر الصحيح." وتعدّ هذه عبارة واضحة للنزعة الطبيعية الروحية؛ وهي مخرجة أيضاً بالمعتقدات الوضعية من النوع المحافظ؛ "ولسوف تجد التشريعات المدروسة والحصيفة العون القوي، لأن القوانين مستظلّ ثابتة حال أن يتم تدوينها."

ويمكن أن يفهم من كل هذا أن الحجج المشتقة من النزعة الطبيعية الروحية لدى أفلاطون لم تكن قادرة تماماً على تقديم إجابة عن أي سؤال قد يثار متعلق بالسمة "العادلة" أو "الطبيعية" لأي قانون خصوصي. إذ أن النزعة الطبيعية الروحية شديدة الغموض والالتباس بحيث يصعب تطبيقها على أي مشكلة عملية. فهي لا يمكنها أن تقدم أكثر من بعض الحجج لصالح النزعة المحافظة. وكل شيء، في الممارسة، متروك لحكمة المشرع العظيم (وهو فيلسوف جليل، صورته، وعلى الأخص في القوانين، هي بلا شك صورته الذاتية: انظر أيضاً الفصل الثامن). ومع ذلك، فعلى العكس من نزعة الروحانية، تقدم نظرية أفلاطون عن الاعتماد المتبادل للمجتمع والفرد نتائج ملموسة أكثر؛ وكذلك تفعل نزعة الطبيعة البيولوجية المعادية للمساواة.

7

ولقد سبقت الإشارة إلى أنه بسبب كفايتها الذاتية تبدو الدولة المثالية لأفلاطون كفرد كامل، وبناءً عليه فإن المواطن الفرد إنما هو نسخة غير كاملة للدولة. ووجهة النظر هذه التي تجعل من الدولة نوعاً ما من الكائن العضوي الأعلى أو حوتاً كبيراً تدخل في الغرب ما أطلق عليه اسم النظرية العضوية أو البيولوجية للدولة. وسوف يُستقَد مبدأ هذه النظرية فيما بعد. أما الآن فإنني أود أن ألفت الانتباه أولاً إلى حقيقة أن أفلاطون لم يدافع عن النظرية، وإنما يصوغها بالكاد بشكل صريح. ولكنها متضمنة بوضوح كاف، ففي واقع الأمر، تُعدُّ المماثلة الأساسية بين الدولة والفرد الإنساني، واحدة من الموضوعات النمطية للجمهوروية. ومما هو جدير بالذكر في هذا الصدد، أن المماثلة تقيد في تعميق تحليل الفرد أكثر منها في تحليل الدولة. وربما يكون من الممكن الدفاع عن وجهة النظر التي تقول بأن أفلاطون (وربما تحت تأثير أحيثون) لم يقدم نظرية بيولوجية للدولة بقدر ما قدم نظرية سياسية عن الفرد الإنساني. وأعتقد أن هذا الرأي يتفق تماماً مع مذهبه بأن الفرد أدنى من الدولة، وهو نوع من النسخ غير الكامل لها. وفي المكان ذاته الذي يقدم فيه أفلاطون مماثلته الأساسية هذه، فهو يستخدمها بهذه الطريقة، أي طريقة لتفسير وتوضيح الفرد. . . فيقال، أن المدينة أعظم من الفرد، ولذلك ففحصها أبسط. ويعطي أفلاطون هذا كتعليل له على اقتراح أننا "ينبغي أن نبدأ بحثنا" (أي : في طبيعة العادل) "في المدينة وتتابعها بعد ذلك في الفرد، مع الملاحظة الدائمة لنقاط التماثل. . . أفلا نتوقع بهذه الطريقة أن نتبين بسهولة أكثر ما نبحث عنه؟"

ومن طريقته في إدخال وجهة النظر هذه، يمكننا أن نفهم أن أفلاطون (وربما قراءه) سلم بمماثلته الأساسية جديلاً. وربما يكون هذا علامة على الحنين إلى الوطن، حنين لدولة "عضوية"

موحدة ومتناسقة؛ لمجتمع من نوع أكثر فطرة. (انظر الفصل العاشر.) إذ يقول، ينبغي على دولة المدينة أن تظل صغيرة، وينبغي أن تنمو فحسب طامها لا يتهدد وحدتها. إذ ينبغي على المدينة ككل أن تكون واحدة، بطبيعتها، وليست متعددة. وهكذا يؤكد أفلاطون على "وحدانية" أو "تفرد" مدينته. ولكنه يؤكد أيضاً على "تعددية" الفرد الإنساني. ففي تحليله لروح الفرد، وانقسامها إلى ثلاثة أجزاء: العقل، والطاقة، والغرائز الحيوانية، المناظرة للطبقات الثلاث في مدينته: أولي الأمر، والمحاربين، والعمال (الذين لا يزالون مستمرين في "ملء بطونهم كالسائمة"، (كما قال هيراقليطس)، يمضي أفلاطون إلى حدٍّ مقابلة هذه الأجزاء بالآخرى كما لو كانت "أشخاصاً مختلفين ومتعارضين". يقول جروت: "وهكذا نبلغ بأن الإنسان على الرغم من أنه واحد في الظاهر، إلا أنه في حقيقة الأمر متعدد... وعلى الرغم من أن المصلحة المشتركة الكاملة متعددة بالظاهر، إلا أنها في حقيقة الأمر واحدة". ومن الواضح أن هذا إنما يتناظر مع السمة المثالية للدولة التي يكون فيها الفرد نوعاً من النسخة الناقصة. وتأكيد هذا عن وحدانية وكلية - خصوصاً الدولة أو ربما العالم - يمكن أن يوصف بأنه "تزعة كلية". وأعتقد، أن التزعة الكلية لدى أفلاطون وثيقة الارتباط بالجماعية القبلية المشار إليها في الفصول السابقة. إذ كان أفلاطون يحنُّ لوحدة الحياة القبلية المفقودة. فبدت له حياة التغير، في خضم ثورة اجتماعية، غير حقيقية. فقط الكل الثابت، المجموع الدائم هو الذي يتسم بالحقيقة، وليس الأفراد الزائلة. فمن "الطبيعي" بالنسبة للفرد أن يخدم الكل، وهو ليس مجرد تجميع للأفراد، وإنما وحدة "طبيعية" من رتبة أعلى.

ويقدم أفلاطون العديد من الأوصاف السوسولوجية الممتازة عن هذا النمط "الطبيعي"، أي القبلي والجماعي، للحياة الاجتماعية. فهو يكتب في الجمهورية: "يُصمم القانون ليمهد السبل إلى رفاهية الدولة ككل، مرتباً المواطنين في وحدة واحدة، عن طريق الإقناع والقوة معاً. فهو يجعلهم جميعاً يشاركون في كل منفعة يمكن لأي منهم أن يشارك بها لصالح الجماعة. والقانون بالفعل هو الذي يوفر لرجال الدولة الإطار الصحيح للعقل، ليس بهدف تركهم سائبين، بحيث يمضي كل في طريقه الخاص، ولكن لاستخدامهم جميعاً من أجل لَمِّ شمل المدينة". ويمكن تبيين تزعة جمالية عاطفية، أو تروق إلى الجمال في تزعته الكلية، مثلاً من الملاحظة الآتية في القوانين: "فكل فنان يؤدي الجزء الخاص به لصالح الكل، وليس الكل في صالح الجزء". ونجد أيضاً في نفس الموضع صياغة كلاسيكية بحق لتزعة كلية سياسية: "إنك مخلوق من أجل الكل، وليس الكل من أجلك". فمن خلال هذا الكل، ينبغي على الأفراد المتباينين، وجماعات الأفراد، مع تفاوتهم الطبيعي، أن يؤديوا خدماتهم النوعية وغير المتساوية.

وقد يكون كل ذلك مؤشراً إلى أن نظرية أفلاطون كانت شكلاً من أشكال النظرية العضوية

للدولة، حتى ولو لم يتحدث أحياناً عن الدولة بوصفها تركيباً عضوياً. ولكن لأنه فعل هذا، فلا يوجد شك في أنه يجب أن يوصف بأنه مؤسس، أو بالأحرى، أحد مؤسسي هذه النظرية. وربما اتصف تخريجه لهذه النظرية بالتزعة الشخصية، أو التزعة السيكولوجية، لأنه يصف الدولة ليس بطريقة عامة كشيء لتركيب عضوي أو آخر، وإنما كشيء للقرود الإنساني، وبشكل أدق، للروح الإنسانية. " فسقم الدولة، على وجه الخصوص، أو تفسخ وحدتها، يتأخر سقم الروح الإنسانية أو الطبيعة الإنسانية. وفي الواقع، فإن سقم الدولة ليس فقط مرتبطاً بهذا فحسب، وإنما ناتج مباشر لفساد الطبيعة الإنسانية، وعلى وجه الخصوص لأعضاء الطبقة الحاكمة. فكل مرحلة من المراحل النمطية لتفسخ الدولة ينتج من مرحلة مناظرة لتفسخ الروح الإنسانية أو الطبيعة الإنسانية أو الجنس البشري. ولأن هذا التحلل الأخلاقي يُفسر على أنه مستند إلى التفسخ الجنسي، فإنه يمكننا القول أن العنصر البيولوجي في التزعة الطبيعية لدى أفلاطون، يُضحي، في النهاية الجزء الأكثر أهمية في أساس نزعة التاريخية. لأن تاريخ سقوط الدولة الأولى أو الكاملة ليس إلا تاريخ التفسخ البيولوجي لجنس الإنسان.

8

لقد ذكرنا في الفصل الأخير أن مشكلة بداية التغير والانحطاط تُعدُّ واحدة من الصعوبات الرئيسية للنظرية التاريخية للمجتمع عند أفلاطون، " إذ أن مثل هذه الدولة التي تحمل جرثومة الفساد في أحشائها لا يمكن أن تكون كاملة لهذا السبب. " ويحاول أفلاطون أن يتغلب على هذه الصعوبة بإلقاء اللوم على قانونه التاريخي، البيولوجي الصحيح كلية، وربما حتى الكوني، التطوري المتعلق بالانحلال، أكثر من إلقاءه على الدستور الخصوصي للدولة الأولى أو الكاملة: " فكل شيء كان قد تولّد فلا بد أن يفسد. " بيد أن هذه النظرية العامة لا تمدُّنا بحلٍ مرضٍ تماماً، لأنها لا تفسر لماذا لا يمكن للدولة كاملة حتى بصورة كافية أن تتجنب قانون الفساد. صحيح أن أفلاطون يلمح إلى أن الفساد التاريخي يمكن تجنبه، لو أن حكام الدولة الأولى أو الطبيعية كانوا فلاسفة مدبرين. بيد أنهم لم يكونوا كذلك. فهم لم يتدربوا (كما يطالب بأن يفعل حكام مدينته السماوية) على الرياضيات والجدليات. فلتجنب الانحلال، سيتعين عليهم أن يكونوا مُطلعين على أوليات العلم، على الأسرار العليا لعلم تحسين النسل، على علم " الاحتفاظ بجنس الحراس نقياً "، وذلك لتجنب اختلاط المعادن النبيلة في أوردتهم بمعادن العمال الدنيئة. بيد أن من الصعوبة يمكن أن غيظ اللشام عن هذه الأسرار العليا. ويميّز أفلاطون بحدة بين حقوق الرياضيات، والصوتيات، والفلك، بين مجرد رأي وهمي مصبوغ بالتجربة، ولا يمكن التوصل إلى دقته، ومن

رتبة دنيا، وبين معرفة عقلية خالصة، متحررة من التجربة الحسية ودقيقة. وهو يطبق هذا التمييز أيضاً على مجال تحسين النسل. فالفن الإمبريقي المحض لتربية السلالات لا يمكن أن يكون مُحْكَمًا، أي لا يمكن أن يحتفظ بالجنس نقياً. ويفسر هذا سقوط المدينة الأصلية التي هي خيرة للغاية، أي الشبيهة جداً لصورتها أو مثالها، ذلك أن "مدينة يمثل هذا يصعب أن تهتر." ويستمر أفلاطون في توضيح معالم نظريته في التوليد، وفي العدد، وفي سقوط الإنسان قائلاً: "يبد أن هذا هو الطريق إلى تفسخها."

فهو يخبرنا بأن كل النباتات والحيوانات ينبغي أن تربي سلالاتها في فترات محددة من الزمن إذا ما أردنا تجنب العقم والاضمحلال، وبعض المعرفة بهذه الفترات، المرتبطة بطول حياة الجنس، ستتاح لحكام المدينة الفاضلة، وسوف يطبقونها على تربية سلالات الجنس السائد. ومع ذلك، لن تكون معرفة عقلانية، وإنما إمبريقية فحسب، ستكون "مبنية على" "الحساب المدعم بالإدراك الحسي." (قارن الاقتباس التالي). ولكن كما سبق أن رأينا، لا يمكن أن يكون الإدراك الحسي والتجربة دقيقين وموثوقاً بهما، لأن موضوعاتهما ليست صوراً أو مثلاً خالصة، ولكن لأن عالم الأشياء في تدفق، ولأن الحراس ليس لديهم نوع أفضل من المعرفة، فلا يمكن الاحتفاظ بالسلالة نقية، ويتعين أن يتسلل إليها التحلل الجنسي. ويفسر أفلاطون المسألة كالتالي: "وفيما يتعلق بجنسك الخاص، أي بجنس البشر في مقابل الحيوانات، فإن حكام المدينة الذين دربتهم قد يكونون على قدر كاف من الحكمة، ولكن لأنهم يستخدمون الحساب المدعم بالإدراك الحسي، فلن يتوصلوا بالمصادفة إلى وسيلة للحصول، إما على نسل طيب، أو على لا نسل على الإطلاق." فلأنهم يفتقرون إلى المنهج العقلاني الخالص، فلسوف يخطئون، وسوف ينجبون في يوم ما أطفالاً بطريقة خاطئة. "وفيما يتلو هذا، يوعز أفلاطون، بطريقة غامضة، بأن ثمة وسيلة الآن لتجنب هذا عبر اكتشاف العلم العقلاني الخالص، والرياضي الذي يمتلك في "العدد الأفلاطوني" (عدد يحدد الفترة الصحيحة للجنس البشري) مفتاح القانون الأساسي لتحسين النسل في مستو أعلى للنظريات الأرقى لتحسين النسل. ولكن لأن حراس العصور القديمة كانوا جاهلين بصوفية العدد الفيثاغوري، ومن ثم بهذا المفتاح الذي يؤدي إلى معرفة أرقى في تربية السلالات، لم تستطع الدولة الطبيعية الكاملة تجنب التحلل. وبعد أن تكشف جزئياً سر هذا العدد الغامض، يستطرد أفلاطون: "هذا.. العدد له السيادة على المواليد الأفضل أو الأسوأ: وعندما يوفق حراسكم هؤلاء - وهم جاهلون بهذه المسائل - بين عروس وعريس بطريقة خاطئة، فإن الأطفال الذين سيرزقون بهما لن يكونوا ذوي طبائع حسنة، ولا حظاً معيلاً. وحتى أفضلهم.. سيرهنون على أنهم غير جديرين عندما يرثون قوة آبائهم، وطالما كانوا هم الحراس، فلن ينصتوا إلينا بعد ذلك - في أمور التعليم الموسيقي والرياضة البدنية، وكما يؤكد أفلاطون خصوصاً، في

مراقبة تربية السلالات. "ومن ثمَّ سيعين حكام لا يصلحون تماماً لتحمل أعبائهم كحراس، وهي مراقبة واختيار المعادن في الأجناس (والتي هي أجناس هزيود كما هي أجناسكم)، الذهب والفضة والبرونز والحديد. لذلك سيختلط الحديد بالفضة والبرونز بالذهب ومن هذا الخليط سيولد التغير العَبْثي وعدم الانتظام؛ وعندما تولد هذه سوف يستشري الصراع والعداوة. وهذه هي الكيفية التي ينبغي أن نصف بها أسلاف ومولد النزاع، أينما ينشأ."

هذه هي قصة أفلاطون المتعلقة بالعدد وسقوط الإنسان. إنها أساس نزعتة السومبولوجية التاريخية، وخصوصاً قانونه الأساسي المتعلق بالثورات الاجتماعية الذي ستناقشه في الفصل الأخير. لأن الانحلال الجنسي يفسر أصل الشقاق في الطبقة الحاكمة، ومعها، أصل كل تطور تاريخي. ويؤدّي الشقاق الداخلي للطبيعة الإنسانية، انفصام الروح، إلى انشقاق الطبقة الحاكمة. وكما هو الحال مع هيراقليطس، فإن الحرب، حرب الطبقة، هي الأب والحرك لكل تغير، وللتاريخ الإنساني، الذي لا يعدو أن يكون تاريخ انحطاط المجتمع. ونرى أن نزعة أفلاطون التاريخية المثالية، تستند في النهاية، ليس إلى أساس روحي، بل إلى أساس بيولوجي، فهي تستند إلى نوع من ماوراء البيولوجيا للجنس البشري. ولم يكن أفلاطون هو الطبيعي الوحيد الذي قدم نظرية بيولوجية للدولة فحسب، وإنما كان أيضاً أول من قدم نظرية بيولوجية جنسانية للديناميكا الاجتماعية، للتاريخ السياسي. إذ يقول آدم: "ويصبح عدد أفلاطون - كإطار الذي يوضع فيه - "فلسفة تاريخ" أفلاطون."

وحرى بنا، فيما اعتقد، أن ننهي هذا الموجز للسومبولوجيا الوصفية عند أفلاطون بخلاصة وتقويم.

لقد نجح أفلاطون في إعادة بناء مجتمع قبلي وتضامني إغريقي قديم يتشابه مع ذلك الذي كان سائداً في اسبرطة، وحقيقي بشكل مدهش على الرغم من أنه مثالي بعض الشيء. إن تحليل القوى، وخصوصاً القوى الاقتصادية، التي تهدد استقرار مثل هذا المجتمع، يتيح له وصف السياسة العامة وكذلك المؤسسات الاجتماعية التي تُعدُّ ضرورية لإبطاله. وهو يعطي، فضلاً عن ذلك، إعادة تشييد عقلائي للتطور الاقتصادي والتاريخي للدولة - المدن الإغريقية.

ولقد قلل من هذه الانجازات بغضه الشديد للمجتمع الذي كان يعيش فيه، وجهه الرومانيكي للشكل القبلي القديم للحياة الاجتماعية. وهو ذلك الاتجاه الذي أدى إلى صياغة قانون للتطور التاريخي لا يمكن تأييده، أي: قانون الفساد أو الانحلال الكلي. وهو نفس الاتجاه الذي يعد مسؤولاً أيضاً عن العناصر غير العقلانية، والوهمية، والرومانتيكية التي لولاها لكان تحليله ممتازاً. ومن جهة أخرى، لقد كان اهتمامه الشخصي وتحيُّزه هما اللذان شحذاً بصيرته، وبالتالي جعلاً

إنجازاته ممكنة. فهو قد اشتق نظريته التاريخية من مذهب فلسفي خيالي يذهب إلى أن تغير العالم المنظور ماهر إلا نسخة باهتة من عالم ثابت غير منظور. بيد أن هذه المحاولة البارعة للتوحيد بين تشاؤم تاريخاني وتفاؤل أنطولوجي، إنما تؤدي، عند تنقيحها، إلى صعوبات. ولقد أجبرته هذه الصعوبات على تبني نزعة طبيعية بيولوجية (مع "نزعة سيكولوجية" أي : النظرية التي تذهب إلى أن المجتمع إنما يستند إلى "الطبيعة الإنسانية" لأعضائه.) مؤدية إلى نزعة صوقية وخرافة، تبلغ أوجها في نظرية رياضية منافية للعقل عن تربية السلالات. بل لقد هدأت بالخطر الوحدة المؤثرة لصرحه النظري.

9

و بعودتنا إلى هذا الصرح، يمكن أن نلقي نظرة عابرة على أساس خطته. ويمكن إدراك هذه الخطة عن طريق مهندس معماري عظيم، يعرض ثنائية ميتافيزيقية أساسية في فكر أفلاطون. ففي مجال المنطق، تقدم هذه الثنائية نفسها بوصفها المقابلة بين الكلّي والجزئي. وفي مجال التأمل الرياضي تقدم نفسها بوصفها المقابلة بين الواحد والمتعدد. وفي مجال الاستمولوجيا، فهي المقابلة بين المعرفة العقلية المستندة إلى الفكر الخالص، والرأي المستند إلى تجارب خاصة. وفي مجال الأنطولوجيا، فهي المقابلة بين الواحد، والأصلي، والثابت، والحقيقي، والواقعي، وبين المتعدد، والمتباين، والوهمي، والظاهري؛ بين الكينونة والضرورة الخالصة، أو بدقة أكثر، التغير. وفي مجال الكوزمولوجيا، فهي المقابلة بين ذلك الذي يخلق، وذلك الذي لا بد أن يتحلل. وفي مجال الأخلاق، فهي المقابلة بين الخير، أي ذلك الذي يحفظ ويصون، والشر، أي ذلك الذي يفسد. وفي مجال السياسة، فهي المقابلة بين الواحد التضامني، الدولة، والذي يتعين أن يدرك الكمال، وحكومة الفرد، والحشد الكبير من الناس - الأفراد المتعددين، الإنسان الجزئي الذي ينبغي أن يظل ناقصاً وتابعاً، وأن تكون خصوصيته مكبوتة من أجل وحدة الدولة (انظر الفصل التالي). واعتقد أن هذه الفلسفة الثنائية الكلية قد نشأت عن رغبة ملحة لتفسير التعارض بين رؤية مجتمع مثالي، والحالة الفعلية الكريهة للواقع في المجال الاجتماعي - التعارض بين مجتمع مستقر، وآخر في حالة ثورة.

الفصل السادس: العدل الشمولي

ويمهّد تحليل سوسيولوجيا أفلاطون الطريق إلى تقديم برنامج سياسي. إذ يمكن التعبير عن مطالبه الأساسية بأحد صياغتين، تتناظر الأولى مع نظريته المثالية المتعلقة بالتغير والثبات، والثانية مع نزعة الطبيعة. والصياغة المثالية هي: أوقفوا كل تغير سياسي! فالتغير شر، والثبات مقدس. ويمكن إيقاف كل تغير لو أن الدولة كانت نسخة طبق الأصل لنشأتها؛ أعني لصورة أومثال المدينة. ولو سألنا عن كيفية تحقيق ذلك، لكان في إمكاننا الإجابة عن ذلك بالصياغة ذات النزعة الطبيعية: عودوا إلى الطبيعة! عودوا إلى الدولة الأصلية لأجدادنا، فالدولة البدائية نشأت وفقاً للطبيعة الإنسانية، وهي لذلك مستقرة: عودوا إلى نظام سلطة الأب القبلي لعصر ما قبل السقوط، إلى حكم الطبقة الطبيعية للقلة الحكيمة على الكثرة الجاهلة.

وأعتقد أنه يمكن اشتقاق عناصر البرنامج السياسي لأفلاطون عملياً من هذه المطالب. فهي تستند بدورها، إلى نزعة التاريخية، وهي قد توحدت مع مذاهب السوسيولوجية المتعلقة بشروط استقرار حكم الطبقة. أما العناصر الرئيسية التي أضعها نصب عيني فهي:

(أ) التقسيم الصارم للطبقات: أعني، أنه ينبغي أن تفصل بصرامة الطبقة الحاكمة المؤلفة من رعاة وكلاب حراسة عن القطيع البشري.

(ب) توحد مصير الدولة مع مصير الطبقة الحاكمة؛ والاهتمام المطلق بهذه الطبقة، وبوحدتها، وفي خدمة هذه الوحدة، القواعد الصارمة لتربية السلالات، وتعليم هذه الطبقة، والإشراف الدقيق وتوحيد اهتمامات أعضائها.

ومن هذين العنصرين الأساسيين، يمكن اشتقاق عناصر أخرى، وعلى سبيل المثال:

(ج) يتعين على الطبقة الحاكمة ^{التي} ^{تحتل} ^{القبائل} ^{العسكرية} ^{والتدريب} ^و ^{حق} ^{حمل} ^{السلح}، وتلقي تربية من أي نوع؛ والاستثناء الوحيد من كل هذا، هو المشاركة في الأنشطة الاقتصادية، وخصوصاً تكسب المال.

(د) يتعين أن تكون ثمة رقابة على كل الأنشطة الثقافية للطبقة الحاكمة، ودعاية مستمرة تهدف إلى صَبِّ عقولها وتوحيدها في قوالب. كما ينبغي أن تُمنع أو تُكبت كل بدعة في التربية، والتشريع، والدين.

(هـ) يتعين أن تكون الدولة مكتفية بذاتها. فينبغي أن تطمح إلى حكم اقتصادي مطلق، وإلاّ لأصبح الحكام معتمدين على التجارة أو لأضحوا هم أنفسهم تجاراً. وأول هذين البديلين سيقتوَضُ سلطتهم، أما الثاني فسيدمر وحدتهم واستقرار الدولة.

ويمكن أن يوصَفَ هذا البرنامج بصورة عادلة، فيما اعتقد، بأنه استبدادي. وهو مؤسس بالتأكيد على سوسيولوجيا تاريخية.

ولكن هل هذا كل شيء؟ ألا توجد ملامح أخرى لبرنامج أفلاطون، عناصر لا هي استبدادية، ولا هي مؤسسة على النزعة التاريخية؟ فعاداً عن رغبة أفلاطون المشيوبة للخير والجمال، أو عن حبه للحكمة والحق؟ ماذا عن مطلبه في ضرورة أن يحكم الحكيم، أي الفلاسفة؟ وماذا عن آماله في جعل مواطني دولته صالحين وسعداء بالمثل؟ وماذا عن مطلبه في ضرورة تأسيس الدولة على العدالة؟ حتى الكتاب الذين يستقدون أفلاطون يعتقدون أن مذهبه السياسي، على الرغم من تشابهات معينة، يميز بوضوح عن النزعة الاستبدادية الحديثة، بمراميه هذه، سعادة المواطنين، وحكم العدالة. فكروسمان مثلاً الذي يمكن أن يُقاس اتجاهه النقدي من ملاحظة أن "فلسفة أفلاطون هي الأكثر قسوة، والأشرس هجوماً على الأفكار الليبرالية التي يمكن أن يعرفها التاريخ". - يبدو مازال معتقداً بأن خطة أفلاطون هي "بناء دولة كاملة، ينعم فيها كل مواطن بالسعادة حقاً". ومثال آخر هو جود الذي يناقش التشابهات بين برنامج أفلاطون وبرنامج الفاشية إلى حد ما، ولكنه يؤكد على أن ثمة اختلافات أساسية، لأنه في دولة أفلاطون الفاضلة "يحقق الإنسان العادي... مثل تلك السعادة باعتبارها تتعلق بطبيعته". ولأن دولته شيدت على أفكار عن "خير مطلق ولهدل مطلق".

وعلى الرغم من مثل هذه الحجج، فإنني أعتقد أن برنامج أفلاطون السياسي، الذي هو بعيد عن كونه يسمو خُلُقياً عن النزعة الشمولية، فهو في الأساس مطابق لها. وأعتقد أن الاعتراضات على وجهة النظر هذه إنما تستند إلى أفكار مسبقة قديمة، وعميقة الجذور تصور أفلاطون في شكل مثالي. أما كروسمان فقد فعل الكثير ليوضح ويزيل هذا الميل كما يتضح من عبارته التالية: "قبل الحرب العظمى، نادراً ما كان أفلاطون يتهم بالرجعية كمعارض عنيد لكل مبدأ ليبرالي النزعة. وعلى العكس من ذلك فقد رُفِعَ إلى أعلى الرتب،... وعزل عن الحياة العملية، كحال مدينة الله السامية." ومع ذلك، فإن كروسمان نفسه لم يتحرر من الميل الذي يكشف عن نفسه

بوضوح. والمثير أن هذا الميل ظل سائداً زمناً طويلاً على الرغم من حقيقة أن كلا من جروت وجومبرز قد أوضحا السمة الرجعية لبعض عقائد الجمهورية والقوانين. بل إنهما حتى لم يفهما تضمنات هذه العقائد، ولم يشكاً في أية لحظة أن أفلاطون، كان، في الأساس، إنساني التزعة. ولقد تم تجاهل انتقاداتهما، أو تم تفسيرها بوصفها إخفاقات في فهم وتقييم أفلاطون الذي اعتبره المسيحيون "مسيحياً قبل المسيح"، واعتبره الثوريون ثورياً. ويظل بلا شك هذا النوع من الإيمان القاطع بأفلاطون سائداً. ففيلد، على سبيل المثال، يجد من الضروري تحذير قرائه من "أننا لن نفهم أفلاطون كلية إذا نظرنا إليه كمفكر ثوري". وهذا بطبيعة الحال صحيح تماماً؛ ومن الواضح أن ذلك سوف يكون غير ذي موضوع لو لم يكن الاتجاه إلى جعل أفلاطون مفكراً ثورياً، أو على الأقل تقديمياً، منتشرًا بشكل غير واضح. . . بيد أن فيلد ذاته لديه نفس النوع من الإيمان في أفلاطون، لأنه عندما يمضي إلى القول بأن أفلاطون كان "في معارضة قوية للاتجاهات الحديثة والهدامة" لعصره، فهو يقبل بالتأكيد، وبشكل سريع أكثر من اللازم، شهادة أفلاطون بالتزعة التجريبية لهذه الاتجاهات الحديثة. إن أعداء الحرية وجهوا دائماً إلى المدافعين عنها تهمة التخريب. ولقد نجحوا في كل المرات تقريباً في استمالة السذج وحسني النية.

إن أمثلة المثالي العديم لا تنطرق فحسب إلى تفسيرات كتابات أفلاطون، وإنما إلى الترجمات أيضاً. إن ملاحظات أفلاطون المؤثرة، التي لا تناسب وجهات نظر المترجم عما يجب أن يقوله الشخص ذو التزعة الإنسانية، كثيراً ما تُطمس أو يُساء فهمها. ويبدأ هذا الاتجاه، منذ اللحظة الأولى لترجمة عنوان "الجمهورية" لأفلاطون. إن ما يخطر على بالنا لأول وهلة عند سماع هذا العنوان، أن المؤلف يتبغي أن يكون ليبرالياً، إن لم يكن ثورياً. بيد أن عنوان "الجمهورية" إنما هو، ببساطة تامة، الصورة الانجليزية "الشعبية" للترجمة اللاتينية للفظ اليونانية التي قد لا يكون لها سياقات من هذا النوع، والتي يمكن لترجمتها الانجليزية المناسبة أن تكون "الدستور"، أو "الدولة المدينة"، أو "الدولة". ولقد يُعزى إلى الترجمة التقليدية "الجمهورية" بلا شك الاعتقاد الشائع بأن أفلاطون لا يمكن أن يكون رجعيًا.⁴

وبالنظر إلى كل ما يقوله أفلاطون عن الخير والعدل والأفكار الأخرى المذكورة، فإن أطروحتي بأن مطالبه السياسية هي استبدادية، ومضادة للبشرية تماماً تحتاج إلى الدفاع عنها. ولكي نأخذ على عاتقنا هذا الدفاع، فلسوف نتهي، في الفصول الأربعة التالية، تحليل التزعة التاريخية، ونركز على فحص نقدي للأفكار الأخلاقية المشار إليها، وعلى الدور الذي تلعبه في مطالب أفلاطون السياسية. أما الفصل الحالي، فلسوف أفحص فكرة العدالة، وفي الفصول الثلاثة التالية، المذهب الذي يدعو إلى أن الأحكم والأفضل يجب أن يحكم، وكذلك أفكار الصدق، والحكمة، والخير، والجمال.

ما الذي نعتيه حقيقة عندما نتحدث عن "العدالة"؟ إنني لا أعتقد أن أسئلة حرفية من هذا النوع هامة على وجه الخصوص، أو أن من الممكن تقديم إجابة شافية عنها، لأن مصطلحات من هذا النوع دائماً ما تُستخدم بمعانٍ متعددة. ومع ذلك، أعتقد أن معظمنا، وخصوصاً أولئك ذوي التطلع العام الإنساني، يعنون به شيئاً ما مثل هذا: (أ) توزيع عادل لعبء المواطنة، أي، لحدود الحرية تلك التي هي ضرورية في الحياة الاجتماعية؛ (ب) المعاملة المتساوية للمواطنين أمام القانون، مقترضين بالطبع، أن (ج) القوانين لا هي موضوعة لصالح أو لضرر مواطنين فرادى، أو جماعات، أو طبقات، (د) إنصاف لساحات العدالة؛ و (هـ) مشاركة متساوية للمنافع (وليس فقط للأعباء) التي يمكن أن تقدمها عضوية الدولة للمواطنين. ولو أن أفلاطون كان قد عني بـ "العدالة" أي شيء من هذا النوع، لكان إدعائي بأن برنامجه استبدادي بشكل مطلق سيكون مخطئاً بالتأكيد؛ ولسوف يكون كل أولئك الذين يعتقدون بأن علم السياسة عند أفلاطون مستند إلى أساس إنساني مقبول على حق. بيد أن الحقيقة هي أنه عني بـ "العدالة" شيئاً مختلفاً تماماً.

فماذا عني أفلاطون بـ "العدالة"؟ إنني أقرر بأنه استخدم في الجمهورية المصطلح "عادل" كمرادف لـ "ذلك الذي يكون في مصلحة المدينة الفاضلة". فما هو الذي يكون في مصلحة المدينة الفاضلة؟ أن تبطل كل تغيير، بتكريس انقسام طبقي قوي، وحكم طبقي. ولو كنت على صواب في هذا التأويل، إذن لحق لنا القول إن مطلب أفلاطون للعدالة يترك برنامجه السيامي في مستوى التزعة الاستبدادية، ولحق لنا أن نستتج أننا ينبغي أن نتوخى الحذر من خطر كوننا متأثرين من مجرد كلمات.

العدالة هي الموضوع الرئيسي لمحاورة الجمهورية: وعنوانها الفرعي التقليدي هو، في الحقيقة، "في العدالة". وفي بحثه في طبيعة العدالة، يستخدم أفلاطون المنهج المشار إليه في الفصل الأخير السابق؛ فهو يحاول أولاً أن يبحث عن هذه الفكرة في الدولة، ويسعى عندئذ إلى أن يطبق النتيجة على الفرد. ولا يمكن للمرء أن يقول إن سؤال أفلاطون "ما هي الدولة؟" يعثر بسرعة على إجابة. لأنه متاح فقط في الكتاب الرابع. ولسوف تحلل الاعتبارات التي تؤدي إليه بتفصيل أكثر في هذا الفصل فيما بعد. وهذه هي الاعتبارات باختصار.

تأسست المدينة على الطبيعة الإنسانية، حاجاتها، وحدودها. "ولسوف نتذكر، أننا قد ذكرنا مراراً وتكراراً أن كل إنسان في مدينتنا ينبغي عليه أن يقوم بعمل واحد فقط، أعني، ذلك العمل الذي يتناسب مع طبيعته، وبصورة طبيعية، على أحسن وجه." ويستتج أفلاطون من

هذا أنه ينبغي على كل فرد أن يهتم بعمله الخاص؛ ينبغي على التجار أن يحصر نفسه في التجارة، وعلى الإسكافي في صنع الأحذية. ومع ذلك لن يلحق أذى كبير، لو أن عاملين بدلاً أماكنهما الطبيعيين "يبد أنه ينبغي على أي شخص يكون بالطبيعة عاملاً (أو عضواً في الطبقة التي تتكسب نقوداً أيضاً) . . أن يدبر أمره ليدخل في زمرة طبقة المحاربين؛ أو ينبغي على المحارب أن يدخل في زمرة طبقة الحراس دون أن يكون مستحقاً لها؛ . . حيثُذ فإن هذا النوع من التبديل ومن الدمية الإحتيالية سيعني سقوط المدينة. " ومن هذه الحجّة وثيقة الارتباط بالمبدأ الذي يذهب إلى أن حمل السلاح ينبغي أن يكون إمتيازاً طبقياً، يرسم أفلاطون نتيجة النهائية بأن أي تغير أو خلط في الطبقات الثلاث ينبغي أن يكون منوطاً للعدالة، وأن العكس، من ثم، هو العدالة: " فعندما تهتم كل طبقة في المدينة بعملها الخاص، طبقة مكسبي النقود (التجار)، وأيضاً المساعدين، والحراس، حيثُذ سيكون هذا عدلاً. " ويعاد التأكيد على هذه النتيجة واختصارها أخيراً في عبارة وجيزة: "تكون المدينة عادلة . . لو كانت كل طبقة من طبقاتها الثلاث تواظب على عملها الخاص. " بيد أن هذه العبارة تعني أن أفلاطون يماثل بين العدالة ومبدأ الحكم الطبقي والامتياز الطبقي. لأن مبدأ أن كل طبقة ينبغي أن تواظب على عملها الخاص إنما يعني، باختصار وبغلاظة، أن الدولة تكون عادلة لو حكم الحاكم، ولو عمل العامل، ولو استرق العبد.

ولسوف نرى أن مفهوم أفلاطون للعدالة إنما يختلف اختلافاً يَبْناً عن رؤيتنا المعتادة كما هو محلل عاليه. إذ أن أفلاطون يعتبر امتياز الطبقة "عدلاً"، في حين أننا نعني عادة بالعدالة عدم وجود مثل هذا الامتياز. بيد أن الاختلاف يمضي أبعد من ذلك. إننا نعني بالعدالة نوعاً من المساواة في معاملة الأفراد، في حين أن أفلاطون يعتبر العدالة ليست علاقة بين أفراد، وإنما بوصفها خاصية للدولة ككل، مستندة إلى علاقة بين طبقاتها. فالدولة تكون عادلة لو كانت سليمة البنية، قوية - متحدة - مستقرة.

2

فهل من المحتمل أن أفلاطون كان على صواب؟ وهل يمكن أن تعني "العدالة" ما يقوله؟ ليس في نيتي أن أناقش سؤالاً مثل هذا. فلو كان أي شخص سيتمسك بأن "العدالة" تعني حكماً غير معترض عليه لطبقة واحدة، إذن فسوف أجيب ببساطة بأنني سأذهب نفسي كلية للجرور والظلم. وبعبارة أخرى، فإنني على قناعة بأن لا شيء يستند إلى مجرد كلمات، وإنما كل شيء يستند إلى مطالب عملية أو يستند إلى اقتراحات لتأطير سياستنا التي نقرر أن نبتناها.

ويقف وراء تعريف أفلاطون للعدالة، وبصفة أساسية، مطالبته بحكم طبقه استبدادية، وقراره أن يهد السيل إلى ذلك.

ولكن ألم يكن على حق بمعنى مختلف؟ وهل كانت فكرته عن العدالة ربما متطابقة مع طريقة الإغريق في استخدام هذه اللفظة؟ وهل يمكن أن يكون الإغريق قد عتوا بالعدالة، شيئاً ما كلي الطابع، مثل "سلامة الدولة"، وأنه ليس من الإنصاف مطلقاً، ولا من المنظور التاريخي أن نتوقع من أفلاطون مشاركته لفكرتنا الحديثة عن العدالة، كمساواة المواطنين أمام القانون؟ ولقد أُجيب عن هذا السؤال، حقاً، بالإيجاب، ولقد قدمت الدعوى بأن فكرة أفلاطون ذات النزعة الكلية عن "العدالة الاجتماعية، صفة مميزة لمظهر الإغريق التقليدي لعبقرية الإغريق التي لم تكن مثل الرومان، قانونية بصفة خاصة، وإنما بالأحرى، ميتافيزيقية بصفة خاصة". بيد أن هذا الادعاء لا يمكن تأييده، فالحقيقة أن طريقة الإغريق في استخدام لفظة "العدالة" كانت شبيهة بصورة تدعو إلى الدهشة حقاً لاستخدامنا ذي النزعة الفردانية والمساواتية.

ولكي نبين هذا، يجدر بي أولاً أن أستشهد بأفلاطون نفسه، الذي يتحدث، في محاوره جورجياس (والتي هي أسبق من الجمهورية)، عن وجهة النظر التي تقول إن "العدالة هي المساواة" كوجهة نظر للجموع الغفيرة من الناس، وكوجهة نظر تتفق ليس فقط مع "العرف"، بل أيضاً مع "الطبيعة ذاتها"، ولعلني أستشهد أيضاً بأرسطو، كمعارض آخر لنزعة المساواة، والذي تحت تأثير نزعة أفلاطون الطبيعية، أعدّ ضمن أشياء أخرى نظرية تدعو إلى أن بعض الناس ولدوا بالطبيعة لأن يكونوا عبيداً. وهؤلاء أقل الناس اهتماماً بنشر تأويل مساواتي وفرداني للمصطلح "عدالة". ولكن عند الحديث عن القاضي الذي يصفه بأنه "تشخيص لما هو عادل"، يقول أرسطو أن مهمة القاضي هي أن يستعيد المساواة. "فهو يخبرنا بأن الناس جميعاً يعتقدون أن العدالة هي نوع من المساواة. "مساواة"، تُطبق على الأشخاص على وجه الخصوص. "بل يعتقد (ولكنه هنا خاطئ) أن اللفظة الإغريقية للعدالة" إنما هي مشتقة من "جذر" ويعني "تقسيم متساو". (وهي وجهة النظر التي تذهب إلى أن العدالة، إنما هي نوع من المساواة في تقسيم الغنائم والأمجاد على المواطنين. "تتفق مع وجهة نظر أفلاطون في القوانين، حيث ميز بين نوعين من المساواة في توزيع الغنائم والأمجاد - مساواة "عددية" أو "حسابية" ومساواة "متناسية"، وتراعي الثانية منهما الدرجة التي يحوز فيها الأشخاص المعنيون القضيلة، والأصل الطيب، والثروة - وحيث يقال عن هذه المساواة المتناسية أنها تؤلف العدالة... "العدالة السياسية". وعندما يناقش أرسطو مبادئ الديمقراطية، يقول بأن "العدالة الديمقراطية هي تطبيق مبدأ المساواة الحسابية (التي تختلف عن المساواة المتناسية). وكل هذا ليس بالتأكيد مجرد انطباع شخصي له عن معنى العدالة، ولا هو مجرد وصف للطريقة التي استخدمت بها اللفظة، بعد أفلاطون، تحت تأثير

محاورة جورجياس والقوانين وإنما هي، بالأحرى، تعبير عن استخدام كلي وقديم مثلما هو شائع للفظـة "العدالة".

ويمكننا على ضوء هذا الاستشهاد أن نقول، فيما أعتقد، بأن التأويل الكلي النزعة والمضاد للعدالة في الجمهورية كان بدعة، وأن أفلاطون حاول أن يقدم حكم طبقته الاستبدادية بوصفه عادلاً، في حين أن الناس كانت تعني بـ "العدالة" عامة عكس ذلك تماماً.

وتعدُّ هذه النتيجة مفزعة، وتطرح عدداً من الأسئلة. لماذا زعم أفلاطون، في الجمهورية، أن العدالة تعني عدم المساواة، في حين كانت تعني في الاستخدام العام المساواة؟ بالنسبة لي فالردُّ الوحيد الممكن أنه كان يرغب في عمل دعاية لدولته الاستبدادية بإقناع الناس بأنها الدولة "العادلة". ولكن هل كانت محاولة مثل هذه تستحق اهتمامه، باعتبار أن المهم ليس الكلمات ولكن ما نعتيه بها، بالطبع كانت مستحقة للاهتمام، ويمكن رؤية هذا من حقيقة أنه نجح تماماً في إقناع قرائه، حتى يومنا هذا، بأنه كان يدافع عن العدالة بإخلاص، أي تلك العدالة التي جاهدوا في سبيلها. والحقيقة أنه لهذا السبب نشر الشكَّ والفوضى بين المناصرين للمساواة، والمناصرين للفردية الذين، تحت تأثير مؤلِّفة بدأوا يسألون أنفسهم ما إذا كانت فكرته عن العدالة لم تكن أصدق وأفضل من فكرتهم. لأن لفظـة "العدالة" ترمز بالنسبة لنا إلى هدف يمثل هذه الأهمية، ولأن الكثيرين جداً مستعدون إلى تحمُّل أي شيء في سبيلها، وإلى بذل كل ما في وسعهم لتحقيقها، فإن تجنيد هذه القوى الإنسانية، أو على الأقل شلَّ النزعة المساواتية، كان بكل تأكيد هدفاً يستحق المتابعة من المؤمن بالنزعة الاستبدادية. ولكن ألم يكن أفلاطون مدركاً بأن العدالة قد عنت الكثير بالنسبة للإنسان؟ بلى، كان يدرك ذلك: لأنه يكتب في الجمهورية: "عندما يقترف إنسان جوراً،... أليس من الصحيح أن شجاعته تأتي أن تضطرب؟... ولكن عندما يعتقد أنه قد وقع عليه ظلم، ألا يشحذ قوته ويصبُّ جام غضبه في الحال؟ وأليس من الصحيح بالمثل أنه عندما يقاتل إلى جانب ما يعتقد أنه عادل، يمكنه أن يتحمَّل الجوع والبرد، وأي نوع من أنواع الشدة؟ وألا يظلُّ متمسكاً بقضيته حتى يتتصر، مثابراً في مدينته المبعجلة حتى يحقق هدفه أو يموت؟"

وعندما نقرا ذلك، لا يمكن أن يتطرق إلينا الشك في أن أفلاطون عرف قوة الإيمان، وفوق كل هذا، الإيمان بالعدالة. كما لا يمكن أن يتطرق إلينا الشك في أن الجمهورية قد اتجهت إلى تحريف هذا الإيمان، وحلَّت محله إيماناً معاكساً على طول الخط. وعلى ضوء الاستشهاد المتاح، يبدو لي أن من المحتمل أكثر أن يكون أفلاطون قد عرف بالضبط ما كان يفعل على أحسن وجه. إذ أن النزعة المساواتية كانت من ألد أعدائه، وكان يرتب للقضاء عليها؛ ولا شك في الاعتقاد المخلص

بأن ذلك كان شراً مستطيراً وخطراً محيقاً. بيد أن هجومه على التزعة المساواتية لم يكن هجوماً شريفاً. إذ أن أفلاطون لم يجزؤ على أن يواجه العدو بصراحة.

وأقدم فيما يلي الدليل الذي يدعم هذه الحجة.

3

ولعلّ الجمهورية من أكمل الأعمال التي كُتبت في العدالة. فهي تفحص مختلف وجهات النظر في العدالة، وهي تفعل هذا بطريقة تؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن أفلاطون لم يغفل أيّاً من أكثر النظريات المعروفة لديه أهمية. وفي الواقع، يذكر أفلاطون بوضوح أنه بسبب محاولاته الفاشلة في تعقبها ضمن وجهات النظر الجارية، فمن الضروري إجراء بحث جديد عن العدالة. ومع ذلك بقي مسحه ومناقشته للنظريات الجارية لم يشر على الإطلاق إلى وجهة النظر التي تذهب إلى أن العدالة هي المساواة أمام القانون ("المساواة في الحقوق المدنية والسياسية"). ولا يمكن تفسير هذا التجاهل إلا بطريقتين. إمّا أنه أغفل النظرية المساواتية، أو أنه تجنبها عن قصد. ويبدو الاحتمال الأول بعيداً جداً عن الحدوث إذا نظرنا إلى العناية التي أوليت لتأليف الجمهورية، والضرورة التي دفعت أفلاطون إلى أن يحلّل نظريات معارضية، إذا أراد تقديمها قوياً لنظريته. بيد أن هذه الإمكانية تبدو كذلك غير محتملة أكثر إذا نظرنا إلى الشعبية الواسعة لنظرية المساواة. ومع ذلك لسنا في حاجة إلى الاستناد إلى مجرد حجج محتملة لأنه من الممكن تبيين أن أفلاطون لم يكن عالماً فحسب بالنظرية المساواتية، وإنما كان يعرف جيداً أهميتها عندما كتب الجمهورية. وكما هو مذكور بالفعل في هذا الفصل (في القسم 2)، وكما سيتبين تفصيلاً فيما بعد (في القسم 8)، لقد لعبت التزعة المساواتية دوراً مهماً في محاوره جورجياس الأسبق، حيث قد دافع عنها؛ وعلى الرغم من حقيقة أن مزايا أو عيوب التزعة المساواتية لن تُناقش بجديّة أصلاً في الجمهورية، إلا أن أفلاطون لم يغير رأيه فيما يتعلق بتأثيرها، لأن الجمهورية ذاتها إنما تختير مدى شعبيتها. لقد نوه بها هناك باعتبارها اعتقاداً ديموقراطياً شائعاً جداً، ولكنها عوملت بازدراء فقط، وكل ما نسمع عنها يتلخص في بعض السخريات ووخزات الإبر، وكلها متوافقة تماماً مع الهجوم الحسيس على الديمقراطية الأثينية، وموضوعة في أماكن لا تكون فيه العدالة محور المناقشة. ومن ثمّ يُستبعد أن يكون أفلاطون قد أغفل النظرية المساواتية للعدالة، كما يُستبعد أنه أغفل أهمية مناقشة أية نظرية مؤثرة ومتعارضة على خط مستقيم مع نظريته الخاصة. وحقيقة أنه لم يخرج عن صمته في الجمهورية إلا من خلال القليل من الملاحظات المازحة (والتي لا بدّ أنه وجدها جيدة بلرّة يصعب معها حذفها) لا يمكن تفسيره إلا برفضه الواعي لمناقشته. وبالنظر إلى ذلك كله، لا أفهم كيف يمكن التوفيق بين

طريقة أفلاطون للتأثير على قرائه بالاعتقاد بأن كل النظريات الهامة قد فُحصت، وبين معايير الأمانة العقلية، على الرغم من أننا ينبغي أن نصيغ أن إخفاقه هذا يرجع بلا شك إلى تكريسه الكامل لقضية كان يعتقد بقوة في صلاحها.

ولكي نقيم بالكامل تضمنات صمت أفلاطون المستمر عملياً في هذه المسألة، ينبغي أولاً أن نفهم بوضوح أن الحركة المساواتية كما عرفها أفلاطون تمثلت في ماكان يكرهه، وأن نظريته الخاصة، في الجمهورية، وفي كل الأعمال الأخيرة، كانت رداً إلى حد كبير على التحدي القوي للترعة المساواتية والإنسانية الجديدة. ولكي نبين هذا، سناقش المبادئ الرئيسية للحركة الإنسانية، وعلى النقيض منها المبادئ المناظرة للترعة الاستبدادية الأفلاطونية.

تضع النظرية الإنسانية للعدالة ثلاثة مطالب أو اقتراحات رئيسية، أعني (أ) المبدأ المساواتي الذي يدعو إلى التخلص من الامتيازات "الطبيعية"، (ب) المبدأ العام للفردانية، و (ج) مبدأ أنه ينبغي أن تكون مهمة وهدف الدولة حماية حرية مواطنيها. ولكل من هذه المطالب أو الاقتراحات السياسية يوجد مبدأ أفلاطوني مضاد تماماً، أعني (Ia) مبدأ الامتياز الطبيعي، (ب1) المبدأ العام للكلية أو الجماعية، و (ج1) المبدأ الذي يدعو إلى أنه ينبغي أن تكون مهمة وهدف الفرد المحافظة على، وتقوية، استقرار الدولة. - وسوف أناقش النقاط الثلاث هذه بالترتيب، مكرساً لكل منها إحدى الأقسام من 4 إلى 6 من هذا الفصل.

4

المذهب المساواتي في جوهره هو الطلب الذي بمقتضاه يُعامل مواطنو الدولة بغير تحيز. وهو مطلب ألا يؤثر المولد، أو القرابة، أو الثروة على أولئك الذين يطبقون القانون على المواطنين. وبعبارة أخرى، إنه لا يعترف بأي امتيازات "طبيعية"، على الرغم من أن امتيازات معينة قد تُمنح من قبل المواطنين لأولئك الذين يتقنون فيهم.

ولقد صاغ برقليس قبل مولد أفلاطون بسنوات قليلة مبدأ المساواة بصورة تدعو إلى الإعجاب، في خطبة حفظها لنا ثيوسيديدس. وسوف نقتبسها بشكل أوسع في الفصل العاشر، ولكن نعرض هنا اثنين من عباراتها، يقول برقليس: "تقدم قوانيننا عدالة متساوية للجميع في نزاعاتهم الخاصة، ولكننا لا نتجاهل دعاوى الامتياز. فحتماً يميز مواطن نفسه، إذن فهو مفضل للخدمة العامة، وليس كمسألة امتياز، وإنما كمكافأة للجدارة؛ والفقر ليس عائقاً...". وتعبّر هذه العبارات عن بعض الأهداف الأساسية للحركة المساواتية العظمى التي، كما قد فهمنا، لم

تُحجَمُ عن مهاجمة العبودية. وكانت هذه الحركة ممثلة، في جيل برقليس ذاته، من قبل يوريبيدس، وأنتيفون، وهيبياس، الذين كنا قد اقتبنا منهم في الفصل الأخير، وأيضاً من قبل هيرودوت. وكانت ممثلة، في جيل أفلاطون، من قبل الخيداماس وليكوفرون؛ وكان المؤيد الآخر هو أنتستين الذي كان أحد أصدقاء سقراط المقيمين.

وكان مبدأ أفلاطون للمعادلة مستعارضاً على طول الخط، بالطبع، مع كل هذا. فقد طالب بالامتيازات الطبيعية للقواد الطبيعيين. ولكن كيف نازع المبدأ المساواتي؟ وكيف كرّس مطالبه الخاصة؟

لعلنا نتذكر من الفصل السابق أن بعضاً من أفضل الصياغات المعروفة لمطالب المساواة قد عبر عنها بلغة "الحقوق الطبيعية" المؤثرة ولكن المشكوك في أمرها، وأن بعضاً من ممثليها جادلوا على هذه المطالب بتوضيح المساواة "الطبيعية"، أعني البيولوجية للإنسان. ولقد رأينا أن الحجة غير مقبولة، ذلك أن الناس متساوون من بعض وجوه هامة، وغير متساويين من أخرى، وأنه لا يمكن أن تشتق مطالب معيارية من هذه الواقعة، أو من أي واقعة أخرى. ولذلك فمن المهم أن نلاحظ أن الحجة الطبيعية لم تكن مستخدمة من قبل جميع من يدعون إلى المساواة، وأن برقليس، كواحد منهم، لم يشر حتى إليها.

ويجد أفلاطون بسرعة أن النزعة الطبيعية كانت نقطة ضعف في المذهب المساواتي، ولقد اغتتم فرصة هذا الضعف إلى أبعد حد. أن تخبر الناس أنهم متساوون فلهذا تأثير عاطفي معين. بيد أن هذا التأثير ضئيل بالمقارنة بما تحدثه دعاية تخبرهم أنهم متفوقون على الآخرين، وأن الآخرين أخطأ منهم. هل أنت متساو طبيعياً مع خدامك، مع عبيدك، مع العامل اليدوي الذي لا يُعدُّ أفضل من حيوان؟ والسؤال ذاته مدعاة للسخرية! ويبدو أن أفلاطون كان أول من يقيم احتمالات رد الفعل هذا، ويتصدى لدعوى المساواة الطبيعية بازدراء واحتقار وسخرية. ويفسر هذا لماذا كان قلقاً من أن تلصق الحجة الطبيعية حتى بهؤلاء المعارضين له الذين لم يستخدموها؛ ولذلك فهو في متكسيوس (وهو خطاب لبرقليس في قالب هزلي) يصبر على ربط دعاوى قوانين المساواة والمساواة الطبيعية معا. فهو يقول بطريقة تهكمية: "إن أساس دستورنا هو المساواة في المولد، فنحن جميعاً أخوة، وكل الأطفال من أم واحدة . . . : وإن مساواة المولد الطبيعية إنما تؤدي بنا إلى أن تكافح من أجل المساواة أمام القانون."

وفيما بعد، يلخص أفلاطون في القوانين رده على مذهب المساواة في الصيغة: "قد ينجم عن المعاملة المتساوية لغير المتساويين عسفاً وجوراً." ولقد طوّر هذا من قبل أرسطو في الصيغة: "المساواة للمتساويين، وعدم المساواة لغير المتساويين." وتشير هذه الصيغة إلى ما يمكن أن أطلق عليه الاعتراض المعياري لمذهب المساواة؛ وهو الاعتراض الذي يقرر أن المساواة قد تكون

بمنازة فقط لو أن الناس كانوا متساوين، ولكن ذلك مستحيل بجلاء لأنهم غير متساوين، ولأنهم لا يمكنهم أن يكونوا متساوين. وهذا الاعتراض الذي يبدو في الظاهر واقعياً جداً إنما هو، في الحقيقة، غير واقعي على الإطلاق، لأن الامتيازات السياسية لم تكن مؤسسة أبداً على تباينات طبيعية للشخصية. ولا يبدو أن أفلاطون، حقاً، كان لديه ثقة كبيرة في هذا الاعتراض عند كتابة الجمهورية، لأنه استخدم هنا فقط في إحدى تهكماته على الديمقراطية عندما يقول إنها "توزع المساواة على المتساوين وغير المتساوين بالمثل". وما عدا هذه الملاحظة، فهو يفضل أن يساجل ضد مذهب المساواة، وإنما أن يتجاهله.

وبالاختصار، يمكننا القول إن أفلاطون لم يستخف أبداً بأهمية النظرية المساواتية، المدعومة من قبل رجل مثل برقليس؛ ولكنه، في الجمهورية، لم يتعامل معها على الإطلاق، وهاجمها، ولكن بلا إنصاف وبعلائية.

ولكن كيف حاول أن يؤسس مذهبه المضاد للمساواة، مبدأه المتعلق بالامتياز الطبيعي؟ لقد قدم، في الجمهورية، ثلاث حجج متباينة، رغم أن اثنين منهما مستحقان بالكاد الشهرة. الأولى هي ملاحظة مذهشة مفادها: "لأن كل الفضائل الثلاث الأخرى قد تم فحصها، فإن الفضيلة الرابعة المتبقية التي هي فليهم كل بما يعنيه، ينبغي أن تكون 'العدالة'". إنني محجم عن الاعتقاد بأن هذا كان هو المقصود كحجة، ولكنها يجب أن تكون كذلك، إذ أن سقراط - المتحدث الرئيسي لأفلاطون - يدخلها من خلال السؤال: "هل تعلم كيف أتوصل إلى هذه النتيجة؟" أما الحجة الثانية فهي أكثر أهمية لأنها تعتبر محاولة لبيان أن نزعة المضادة للمساواة يمكن اشتقاقها من وجهة النظر العادية (أي المساواتية) التي تقول إن العدل هو عدم التحيز. يقول سقراط: "وبملاحظة أن حكام المدينة سيكونون أيضاً قضاتها، ألن يكون هدف تشريعهم هو ألا يستحوذ رجل على ما يخص آخر، ويحرمه عما يمتلكه؟" ويكون رد جلوبكون المحاور هو "أجل، فهذا سيكون قصدهم". - "الآن ذلك عدل؟" - "أجل" - وبالتالي، فالاحتفاظ بـ وممارسة ما يخصنا وما هو لنا سيتفق عموماً على أنها "عدالة". وهكذا سوف يتقرر "الاحتفاظ بـ وممارسة كل ما هو ملك لأحد". هو مبدأ التشريع العادل، وفقاً لأفكارنا العادية عن العدالة. وهنا تنتهي الحجة الثانية، مفسحة الطريق للحجة الثالثة (التي سوف نتناولها بالتحليل) والتي تؤدي إلى نتيجة أنه من العدالة أن يحتفظ المرء بمنزلة بمنزلة الاجتماعية (أو أن يؤدي المرء عمله الخاص)، وهي منزلة (أو مصلحة) الطبقة الخاصة أو الطائفة الخاصة للمرء.

والغرض الوحيد لهذه الحجة الثانية هو أن تجعل القارئ يعتقد بأن "العدالة" بالمعنى العادي

للكلمة هي "أنه من العدل الاحتفاظ بـ وعارسة ما نملكه". أي أن أفلاطون، يأمل من قرائه أن يستدلوا على "أنه من الصواب أن يحتفظ المرء ويمارس ما يملكه. فمكاني (أو عملي) هو ملكي. وهكذا من الصواب بالنسبة لي أن احتفظ بمكاني (أو أن أمارس عملي). وهذه تبدو مقنعة مثل الحجة القائلة "من العدل الاحتفاظ بـ وعارسة ما هو ملكنا. وهذه الخطة لسلب نقودك هي خطئي. وهكذا فمن العدل أن أحتفظ بخطئي، وأن أخضعها للممارسة، أي أن أسلب نقودك." ومن الواضح أن الدليل الذي يرغب أفلاطون أن نستنتجه ليس إلا تلاعباً فجاً في معنى لفظ "ملك المرء". (لأن المشكلة هي ما إذا كان يتطلب العدل أن كل شيء هو بمعنى ما "ملكنا"، مثلاً "ملك" طبقتنا، ولذلك ينبغي أن يُعامل، ليس فحسب كملك لنا، وإنما كملك موقوف لنا. أي لا يمكن التصرف فيه. بيد أن أفلاطون ذاته لا يعتقد في مبدأ مثل هذا، لأن من الواضح أنه سيجعل الانتقال إلى الشيوعية متحيزاً. وماذا عن الاحتفاظ بأطفالنا؟) وهذه الحيلة الفجة هي طريقة أفلاطون لتأسيس ما يطلق عليه آدم "نقطة تماس بين وجهة نظره في العدالة... ومعنى اللفظ الشائع." هذه هي الحجة التي يحاول بها الفيلسوف الأعظم لكل عصر أن يقنعنا بها، ألا وهي أنه قد اكتشف الطبيعة الحقة للعدالة.

أما الحجة الثالثة التي يقدمها أفلاطون فهي أكثر جدية. إنها إلتجاء إلى مبدأ الكلية أو الجمعية، وهو مرتبط بالمبدأ الذي يدعو إلى أن غرض الفرد هو أن يحافظ على استقرار الدولة. ولذلك فلسوف يناقش ضمن هذا التحليل فيما بعد، في القسمين 5 و 6.

ولكن قبل أن نعالج هذه الموضوعات، أود أن ألفت الانتباه إلى "التقديم" الذي يضعه أفلاطون قبل وصفه "لاكتشاف" الذي تفحصه هنا. ويتبني أن يوضع في الاعتبار على ضوء الملاحظات التي أجريناها حتى الآن. وفي ضوء هذا، فإن "التقديم المطول" - وهكذا بصيغة أفلاطون نفسه - يبدو كمحاولة بارعة لإعداد القارئ لـ "اكتشاف العدالة" بجعله يعتقد أن ثمة حجة ما موجودة، في حين أنه لا يواجه في الواقع إلا باستعراض الوسائل الدراماتيكية المصممة لتلطيف حواسه النقدية.

أما وقد اكتشف أن الحكمة هي الفضيلة الملائمة للحراس، والبسالة هي الفضيلة الملائمة للمساعدين، فإن "سقراط" يعلن عن عزمه بذل الجهود النهائي لاكتشاف العدالة. فهو يقول: "يتبقى شيان يتعين علينا اكتشافهما في المدينة: الاعتدال، وأخيراً ذلك الشيء الآخر الذي يعد الموضوع الرئيسي لكل بحوثنا، أعني، العدالة." - يقول جلوكون "بالضبط"، والآن يقترح سقراط أن يطرح الاعتدال جانباً بيد أن جلوكون يحتاج، ويدعن سقراط قائلاً إنه "سيكون من الخطأ (أو "الخطئ") أن نرفض. ويهيئ هذا النزاع البسيط القارئ لإعادة تقديم "العدالة"، موحياً

إليه بأن لدى سقراط الوسائل لاكتشافها، ومطمئناً له أن جلوكون يراقب بعناية الأمانة العقلية لأفلاطون في التعامل مع الحجّة التي لا تلزم القارئ إذن أن يراقبها على الإطلاق.

ويستقل سقراط بعد ذلك ليناقد الاعتدال الذي يكتشف أنه الفضيلة الوحيدة الملائمة للعمال (وبهذه المناسبة، فالمسألة التي أثارت جدلاً كبيراً عما إذا كانت "عدالة" أفلاطون يمكن تمييزها عن "اعتداله"، يمكن الإجابة عليها بسهولة. فالعدالة تعني أن يحافظ المرء على مكانته، في حين يعني الاعتدال أن يعرف المرء مكانته أي، وبدقة أكثر، أن يكون راضياً عنها. فما هي الفضيلة الأخرى التي يمكن أن تكون ملائمة للعمال الذين يملأون بطونهم كالسائمة؟) ويسأل سقراط عندما يفرغ من اكتشاف الاعتدال "وماذا عن المبدأ الأخير؟ من الواضح أنه سيكون العدالة". ويجب جلوكون: "أجل، من الواضح".

ويستطرد سقراط قائلاً: "والآن يا عزيزي جلوكون، يجدر بنا، مثل الصيادين، أن نحوطها برعايتنا وأن نراقبها عن كثب، كما يجدر بنا ألا نسمح لها بأن تفلت من أيدينا، وأن نغضي بعيدها، لأن العدالة ينبغي بالتأكيد أن تكون في مكان ما قريب من هذا الموقع. وأفضل لك أن تتوخى الحذر وتفحص المكان. وإذا كنت أول من تراه، إذن فعليك أن تنبهي بصيحة!" ويكون جلوكون بالطبع، مثل القارئ، عاجزاً عن فعل أي شيء من هذا النوع، ويتوسل إلى سقراط أن يأخذ المبادرة. يقول سقراط: "إذن قدّم صلواتك معي، واتبعني." ولكن حتى سقراط يدرك بأن الأرض يصعب اجتيازها، لأنها مغطاة بشجيرات، وهي مظلمة، ومن الصعب أن نستكشف المكان... ولكن يقول سقراط، "علينا أن نغضي في هذا." وبدلاً من الاعتراض "فيما نغضي؟ مع استكشافنا، أعني مع حجتنا؟ ولكننا حتى لم نبدأ. ولم يكن ثمة بصيص من ضوء لمعنى ما قلته حتى الآن." ويرد جلوكون، والقارئ الساذج معه، قائلاً بدواعة: "أجل، علينا أن نغضي." ويتحقق سقراط من أنه قد "نال بصيصاً من ضوء" (ونحن لم نزل)، ويتحمس صائحاً: "أسرع! أسرع! يا جلوكون! يبدو ثمة أثر! واعتقد الآن أن الطريدة لن تفلت منا!" ويجب جلوكون "تلك أخبار سارة". ويقول سقراط: "بشر في لقد تلفظنا بما يسيء لأنفسنا. فما نبحت عنه منذ برهة، كان راقداً تحت أقدامنا طوال الوقت! ولم نره أبداً!" ويصيححات تعجب وتقريرات مكررة من هذا النوع، يستمر سقراط فترة، مقاطعاً جلوكون، الذي يعبر عن مشاعر القراء ويسأل سقراط عما قد وجده. ولكن عندما يقول سقراط فحسب "لقد كنا نتحدث عنه طوال الوقت، دون إدراك أننا كنا نصفه بالفعل." يعبر جلوكون عن نقاذ صير القارئ، ويقول: "هذه مقدمة مطولة بعض الشيء، تذكر أنني أود أن أسمع كل شيء عن ذلك." وحينئذ فقط يتقدم أفلاطون ليقدّم "الحجّتين" اللتين أوجزتهما من قبل.

وقد تؤخذ ملاحظة جلوكون الأخيرة على أنها إشارة إلى أن أفلاطون كان واعياً بما كان يفعله في هذه "المقدمة المطولة". وليس في مقدوري إلا أن أفسرها على أنها محاولة، وقد برهنت على أنها محاولة ناجحة إلى حد كبير لكبت القدرات النقدية للقارئ، وعن طريق عرض دواماتيكي للألعاب النارية اللفظية، وصرف انتباهه عن الخواء العقلي لهذا الجزء المتقن من المحاور. وقد يجد المرء نفسه مدفوعاً للاعتقاد بأن أفلاطون قد عرف مواطن الضعف فيه والسبيل إلى مداراته.

5

إن مشكلة النزعة الفردية والنزعة الجماعية لهما لصيقة الصلة بمشكلة المساواة وعدم المساواة. وقبل المضي قدماً لمناقشتها، ثمة ملاحظات اصطلاحية قليلة تبدو ضرورية. حيث يمكن أن يستخدم المصطلح "المذهب الفردي" individualism (ووفقاً لقاموس أكسفورد) بمعنىين مختلفين: (أ) كمقابل لـ "المذهب الجماعي" collectivism، و (ب) كمقابل للإيثار (أو الغيرية) altruism. وليس ثمة لفظة أخرى للتعبير عن المعنى الأول، ولكن هناك مترادفات عديدة للمعنى الأخير، مثل "الأنانية" (أو حب النفس) egoism، أو "الإثارة" (أو حب الذات) self-ishness، وهذا هو المعنى الذي سوف استخدم فيه المصطلح "فردانية" فيما يلي، وخصوصاً بالمعنى (أ)، ومستخدماً مصطلحاً مثل "الأنانية" أو "الإثارة" لو كان المعنى (ب) هو المقصود. وربما يفيد في هذا الخصوص الجدول المبسط التالي:

(أ) الفردانية individualism كمقابل لـ (أ) الجماعية collectivism.

(ب) الأنانية egoism كمقابل لـ (ب) الغيرية altruism.

والآن فإن هذه المصطلحات الأربعة إنما تصف اتجاهات أو مطالب أو قرارات أو اقتراحات معينة، لشرائع القوانين المعيارية. وعلى الرغم من أنها ملتزمة بالضرورة، إلا أنه من الممكن، فيما أعتقد، توضيحها بسهولة عن طريق أمثلة، وهكذا يمكن أن تُستخدم بإحكام يكفي لغرضنا الحالي. فدعونا نبدأ بالجماعية، لأن هذا الاتجاه مألوف لنا بالفعل من خلال مناقشتنا للنزعة الكلية عند أفلاطون. فمطلبه أنه ينبغي على الفرد أن يخدم مصالح الكل، سواء كان الكون، أو المدينة، أو القبيلة، أو الجنس، أو أي قوام جماعي آخر تم شرحه في الفصل السابق بقليل من الفقرات. فعلياً أن نقسّم إحدى هذه الفقرات مرة أخرى، ولكن بتفصيل أكثر: "يوجد الجزء من أجل الكل، ولكن لا يوجد الكل من أجل الجزء... إنك خلقت من أجل الكل، ولم يُخلق الكل من أجلك." ولا يوضح هذا الاقتباس النزعة الكلية أو الجماعية فحسب، وإنما ينقل أيضاً جاذبيته

الانفعالية القوية التي كان أفلاطون على وعي بها كما يمكن أن يفهم من ديباجة الفقرة. والجاهلية
لشاعر متنوعة، مثل الحنين إلى الانتساب لجماعة أو قبيلة، وأحد عوامل الجاذبية الأخلاقية للغيرة
(وضده) الإثارة أو الأنانية. ويرتأي أفلاطون بأنك إذا لم يكن في مقدورك أن تصحى بمصالحك من
أجل الكل، إذن فأنت أناني.

والآن إذا ألقينا نظرة على جدولنا المبسط سيئين أن هذا ليس كذلك. فالجمعية ليست مقابلاً
للأنانية، ولا هي متماثلة مع الغيرية أو اللاإثارة. وعلى سبيل المثال، أنانية الطبقة هي شيء دارج
جداً (كان أفلاطون يعرف ذلك بشكل جيد جداً) وهذا يبين بوضوح كافٍ أن الجمعية بمعناها هذا
ليست مقابلة للإثارة. ومن ناحية أخرى فالشخص ذو النزعة المضادة للجمعية، أي الشخص
الفرداني، مستعد للتضحية من أجل مساعدة أفراد آخرين. وربما يكون ديكتاتور هو أحد أفضل
الأمثلة على هذا الاتجاه. وسوف يكون من الصعب أن تقرر أيهما أقوى، بغضه الحار لحب
الذات، أو اهتمامه الحار بالأفراد بكل ضعفهم الإنساني؛ ويتوحد هذا الاتجاه مع النفور، ليس
فحسب بما ندعوهم الآن أشخاصاً متجمعين أو مجاميع، وإنما حتى للغيرة المكرسة بغير تصنيع،
إذا توجهت مباشرة إلى جماعات مجهولة الاسم أكثر من أفراد معينين. (وأذكر القارئ بالسيدة
جيلبي Jellyby في المنزل الكتيب Bleak House، "سيلة تفانت في سبيل الخدمات
العامة".) وأعتقد أن هذه التوضيحات، إنما تفسر بوضوح كافٍ معنى مصطلحاتنا الأربعة: وهي
تبين أن أيّاً من هذه المصطلحات الموجودة في جدولنا يمكن أن تتوحد مع كل من المصطلحين
القائمين في الخط الآخر (والتي تعطي أربعة توافيق ممكنة).

والآن من المهم أن نلاحظ أنه عند أفلاطون، وعند معظم الأفلاطونيين، لا يمكن أن توجد
نزعة فردية غيرية (كتلك التي نجدها مثلاً عند ديكتاتور). فالبديل الوحيد للنزعة الجمعية، وفقاً
لأفلاطون، هو الأنانية، وهو يماثل ببساطة بين الغيرية ككل والجمعية، النزعة الفردية ككل
والأنانية. وليست هذه مسألة إصطلاحية، مجرد ألفاظ، لأنه بدلاً من الإمكانات الأربع،
اعترف أفلاطون بإثنتين فقط منها. ولقد أحدث هذا اضطراباً جسيماً في المسائل الأخلاقية،
حتى يومنا هذا.

وعائلة أفلاطون بين النزعة الفردية والأنانية إنما تزوّه سلاح ماضي لدفاعه عن النزعة الجمعية
تماماً مثل هجومه على النزعة الفردية. إذ يمكن أن يتشهد، في دفاعه عن النزعة الجمعية،
بإحساننا الإنساني للأثرة، وبمكته، في هجومه، أن يسم بوصمة العار كل الفردانيين بوصفهم
أنانيين، وبوصفهم غير قادرين على الولاء لأي شيء سوى أنفسهم. وعلى الرغم من أن، هذا
الهجوم، مستهدف من قبل أفلاطون ضد النزعة الفردية بالمعنى الذي تقصده، أعني، ضد حقوق

الأفراد الإنسانيين، يسعى بالطبع فقط إلى هدف مختلف تماماً، ألا وهو الأثانية. بيد أن هذا الاختلاف متجاهل باستمرار من قبل أفلاطون ومعظم الأفلاطونيين.

لماذا حاول أفلاطون أن يهاجم النزعة الفردية؟ اعتقد أنه عرف تماماً ما كان يفعله عندما صوّب مدافعه على هذا الموضوع، لأن النزعة الفردية، ربما حتى أكثر من النزعة المساواتية، كانت معقلاً في دفاعات العقيدة الإنسانية الجديدة. إذ أن تحرير الفرد كان بالفعل هو الثورة الروحية العظمى التي كانت قد أدت إلى انهيار القبيلة وإلى نشأة الديمقراطية. ويُفصح الحُدس السوسيولوجي غير الحريص لأفلاطون عن ذاته بالطريقة نفسها التي يشاهد بها العدو أينما قابله.

فالنزعة الفردية كانت جزءاً من الفكرة البديهية القديمة عن العدالة. ولقد شدّد أرسطو، كما نذكر، على أن العدالة ليست صحة وانسجام الدولة، كما يدّعي أفلاطون، بل هي بالاحرى طريقة معينة لمعاملة الأفراد، وكما يقول: "العدالة شيء يتعلّق بالأشخاص". ولقد كان هذا العنصر الفردي مشدداً عليه من جيل برقليس. فلقد أوضح برقليس أن القوانين ينبغي أن تضمن عدالة متساوية "لكل الناس على السواء في نزاعاتهم الخاصة"، ولكنه مضى أبعد من ذلك، حين قال: "إننا لا نتأثر بدعوتنا إلى مضايقة جارنا، إذا اختار أن يمضي في طريقه الخاص." (قارن هذا بملاحظة أفلاطون بأن الدولة لا تثمر رجالاً "بفرض تركهم أحراراً، يمضي كل منهم في طريقه الخاص...") ويصرُّ برقليس على أن هذه النزعة الفردية ينبغي أن تكون مرتبطة بالغيرية: "لقد تعلّمنا... ألا ننسى أبداً حماية المتضرر"؛ ويبلغ حديثه الذروة بوصف الأثيني الصغير الذي يشبُّ عن الطوق "إنه لئن سعيد، ومعتد على نفسه."

ولقد أمست هذه النزعة الفردية، المتوحّلة مع الغيرية أساس حضارتنا الغربية. فهي العقيدة الرئيسية للمسيحية إذ يذكر الكتاب المقدس "أحب جارك ولا تحب قبيلتك". كما أنه دستور كل المذاهب الأخلاقية التي قد انبعثت من حضارتنا وأنعشتها. وهي أيضاً، على سبيل المثال، المذهب العملي الرئيسي لكانط "تحقق دائماً من أن أفراد الإنسان هم غايات، ولا تستخدمهم كمجرد وسائل لغاياتك". وليس ثمة فكر آخر كان يمثل هذه القوة في النضج الأخلاقي للإنسان.

وكان أفلاطون على صواب عندما رأى في هذا المذهب العدو لمديته الطائفية؛ ولقد بغضه أكثر من أي مذاهب "مخرية" أخرى في عصره. ولكي نرين هذا على أكمل وجه، سأقتبس فقرتين من القوانين تحملان روحاً عدائية مدهشة حقاً للفرد، ولم يتم، فيما اعتقد، تقيمهما إلا قليلاً. أولهما مشهورة بأنها إشارة مرجعية من الجمهورية، وهي تناقش "شيوعية النساء والأطفال"، والملكية فيها. ويصف أفلاطون هنا دستور الجمهورية بأنه "الشكل الأعلى للمدينة". ويخبرنا في

الشكل الأعلى للمدينة هذا، بأن "ثمة ملكية مشاعة للزوجات وللأطفال، ولكل المتاع. وأنه تم عمل كل ما يمكن عمله لاستئصال شأفة كل ما هو خاص وفردى من حياتنا، وحتى تلك الأشياء التي جعلتها الطبيعة ذاتها خاصة وفردية، ثم أضحت بطريقة ما ملكية مشاعة للجميع. بل إن أعيننا وأذاننا وأيدينا ذاتها، التي بها نرى، ونسمع ونشعر، تبدو كما لو كانت لا تخص الأفراد بل الجماعة. فكل الناس مصبوبيون في قالب ليكونوا مجتمعين وبأقصى درجة على تقديم الثناء أو اللوم، بل ويتهجون ويحزنون لنفس الأشياء وفي نفس الوقت. وأن القوانين كلها مصاغة لتوحيد المدينة لأقصى درجة." ويستمر أفلاطون في القول: "لا يمكن لأي إنسان أن يجد معياراً أفضل للتفوق الأعلى لمدينة من المبادئ التي شرحناها توأماً." وهو يصف مثل هذه المدينة بأنها "مقدسة"، وبأنها "النموذج" أو "النمط" أو "الأصل" للمدينة، أعني بأنها صورتها أو مثالها. هذه هي وجهة نظر أفلاطون الخاصة في الجمهورية، معبراً عنها في وقت كان قد فقد فيه الأمل في تحقيق مثله الأعلى السياسي بكل جلاله.

والفقرة الثانية من القوانين أيضاً، تبدو أكثر صراحة كلما أمكن ذلك. ويلزم التأكيد على أن هذه الفقرة إنما تعالج بصورة رئيسية الحملات العسكرية والنظام العسكري، بيد أن أفلاطون لا يدع مجالاً للشك في أن هذه المبادئ العسكرية ذاتها يتعين التمسك بها ليس في الحرب فحسب، وإنما أيضاً "في السلم"، ومن مرحلة الطفولة المبكرة. "ومثل العسكريين المستبدين الآخرين والمعجبين بياسبرطه، يحث أفلاطون على أن تكون كل متطلبات النظام العسكري الهامة متوفرة بكثرة، حتى في السلم، وعلى أنها ينبغي أن تحل الحياة الكلية لكل المواطنين إذ ليس فقط المواطنين الكُمَّل (الذين هم جنود أيضاً) والأطفال، بل وأيضاً الحيوانات نفسها يجب أن تقضي كل حياتها في دولة في حالة تعبئة كلية دائمة. فهو يكتب "إن المبدأ الأعظم بالنسبة إلى الجميع، هو أن أي شخص، سواء أكان ذكراً أم أنثى، لا ينبغي عليه أن يحيا بلا قائد. ولا ينبغي لعقل أي شخص أن يعود على فعل أي شيء، على الإطلاق بمبادرته الخاصة، لا على سبيل الحماسة، ولا على سبيل اللعب. ولكن في أوار الحرب، وفي غمار السلم، عليه أن يوجه ناظره لقائده، وأن يتبعه بإخلاص. وحتى في أصغر المسائل شأواً عليه أن يمثل للقيادة. فعليه، مثلاً ألا يستيقظ، أو يتحرك، أو يغتسل، أو يتناول وجباته... إلّا إذا أمر أن يفعل ذلك... وبعبارة واحدة، عليه أن يعلم نفسه، بمرانٍ طويل، ألا يحلم أبداً بالإتيان بفعل مستقل، وألا يصبح قادراً عليه بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وبهذه الطريقة لا يجب أن يقضي الكل حياته في الجماعة تماماً. ولا يوجد قانون، ولن يوجد قانون أسمى من هذا أو أفضل وأكثر فاعلية في تأمين النجاة والانتصار في الحرب. وفي أوقات السلم، ومن الطفولة المبكرة فصاعداً يجب تغذية هذا القانون، أي هذه العادة لحكم الآخرين، أو لجعلهم محكومين بواسطة آخرين. وكل أثر للفوضى

يجب أن يُقَطَّع بلا رحمة من حياة الناس بأكملها، حياة كل الرجال، بل ومن الحيوانات البرية الخاضعة للإنسان. "

وهذه عبارة قوية. ولم يوجد أبداً شخص يمثل هذه العداوة تجاه الفرد. فقد تجذرت هذه الكراهية بعمق في الثنائية الأساسية لأفلاطون، فقد بغض الفرد وحرته تماماً مثلما بغض تنوع الخيرات الخصوصية، وتنوع العالم المتغير للأشياء الحسية. ففي مجال السياسة، يعدُّ الفرد بالنسبة لأفلاطون هو الشر مجسداً.

ولقد تمَّ تصور هذا الاتجاه المعادي للإنسانية، والمعادي للمسيحية بصورة مثالية وبشكل مستمر. وفسر على أنه إنساني، وغير أناني، وغيري النزعة ومسيحي. حيث يتعت إ. ب. إنجلترا E. B. England على سبيل المثال أولى هاتين الفقرتين من القوانين "التشهير العنيف بحب الذات". وقد استخدم باركر ألفاظاً مشابهة عند مناقشة نظرية أفلاطون في العدالة. فهو يقول: إن هدف أفلاطون كان "أن يحلَّ الوفاق محل حب الذات والنزاع المدني"، وأن "التوافق القديم بين مصالح الدولة ومصالح الفرد قد تجدد مرة أخرى على أيدي أفلاطون، لكنه تجدد بمستوى جديد وأعلى، لأنه قد ارتفع إلى حس واع بالوفاق." ومن الممكن أن تُفسَّر مثل هذه العبارات وعبارات أخرى مثيلة لا حصر لها، إذا تذكرنا مماثلة أفلاطون للنزعة الفردية مع الأثانية. لأن كل هؤلاء الأفلاطونيين يعتقدون أن النزعة المضادة للفردية هي نفسها النزعة المضادة لحب الذات. ويوضح هذا اعتراضاً بأن هذه المماثلة كان لها تأثير الدعاية المعادية للإنسانية، وأنها قد شوشت على التأمل في المسائل الأخلاقية منذ ذلك العصر وحتى يومنا هذا. بيد أنه ينبغي أن نتحقق أيضاً من أن أولئك الذين خُدِعوا من هذه المماثلة ومن الكلمات الرنانة، فأطروا صيت أفلاطون الحسن بوصفه معلماً للأخلاق، وأعلنوا للعالم أن أخلاقياته التي أتى بها إنما هي أقرب طريق إلى المسيحية قبل المسيح، يعتبرون المهتدين للطريق نحو النزعة الشمولية، وعلى وجه الخصوص نحو تأويل شمولي ومعادي للمسيحية. وهذا شيء خطير، إذ كانت هناك عصور خضعت فيها للمسيحية لأفكار شمولية، وكانت هناك محكمة تفتيش، وهذه قد تعود مرة أخرى بصورة مختلفة.

ولذلك، قد يكون من الأفضل أن نذكر بعض الأسباب الإضافية التي جعلت الناس التائين يقتنعون بإنسانية مقاصد أفلاطون. السبب الأول هو أنه عند تمهيد الطريق لمذاهبه الجمعية، يبدأ أفلاطون عادة باقتباس قول مأثور أو حكمة (وفيما يبدو أنها ذات أصل فيثاغوري): "يتشارك الأصدقاء في كل ما يملكون." وهذه، بلا شك، عاطفة خالية من حب الذات، ونبيلة، وعظيمة. فمن ذا الذي يمكن أن يشك في أن عبارة تبدأ من إدعاء حميد مثل هذا سوف تنتهي إلى نتيجة معادية تماماً للإنسانية؟ وثمة نقطة أخرى وهامة هي أن هناك العديد من العواطف الإنسانية الجياشة

مُعبر عنها في محاورات أفلاطون، وخصوصاً في تلك التي كتبت قبل الجمهورية عندما كان لا يزال واقعاً تحت تأثير سقراط. وأذكر خصوصاً مذهب سقراط، المعروض في محاوره جورجياس، والذي هو من الأسوأ أن نمارس الظلم من أن نعانيه. ومن الواضح أن هذا المذهب ليس غيرياً فحسب، وإنما هو أيضاً فرداني؛ لأنه في النظرية الجماعية للعدالة، مثل تلك المعروضة في الجمهورية، يُعدُّ الظلم فعلاً ضد الدولة، وليس ضد شخص بعينه، ولو أن رجلاً قد اقترف فعلاً ظالماً، فالمجموع فقط هو الذي سيعاني منه. ولكنا لا نعثر على أي شيء من هذا النوع في محاوره جورجياس. فنظرية العدالة تُعدُّ شيئاً عادياً تماماً، والأمثلة المتعلقة بالظلم التي طرحها سقراط (والذي ربما يكون هنا لديه الكثير من سقراط الحقيقي) هي من نوع أن رجلاً تلقى ضربة على أذنه فأضرته أو قتلته. فتعليم سقراط بأن من الأفضل أن نعاني من مثل تلك الأفعال من أن نفعلها، إنما هو شبيه فعلاً وإلى حد كبير بتعليم المسيحية، ومذهبه في العدالة يتوافق بصورة بديعة مع روح يرقليس. (ولسوف تجري محاولة لتفسير هذا في الفصل العاشر).

والآن تطوّر الجمهورية مذهباً جديداً للعدالة ليس متافراً مع النزعة الفردية فحسب، وإنما عدائي تماماً تجاهها. ولكن قد يعتقد قارئ ببساطة، أن أفلاطون لا يزال متمسكاً بثبات المذهب الموجود في جورجياس. لأن أفلاطون، في الجمهورية، يلمّح مراراً وتكراراً بالمذهب الذي يقول إن من الأفضل أن نعاني الظلم من أن نقترفه على الرغم من أن هذا ببساطة بلا معنى من وجهة نظر النظرية الجماعية للعدالة المطروحة في هذا العمل. وفضلاً عن ذلك، نسمع في الجمهورية معارضي "سقراط" يعطون صوتهم للنظرية المقابلة التي تذهب إلى أن من الجيد والسهل أن نقترف الظلم، ومن السيء أن نعانيه. ولقد واجه كل إنساني النزعة، بالطبع، مقاومة من انتقاد مثل هذا. وعندما يصوغ أفلاطون مراميه على لسان سقراط: "أحشى أن أقترف إثماً إذا سمحت بمثل هذا الذم للعدالة في حضوري، دون أن أيدل كل ما في وسعي للدفاع عنها." وتتدعّم حيثث ثقة القارئ حسن النية في مرامي أفلاطون الحيرة، ويتأهب لمصاحبتة إلى أي مكان يذهب.

ولقد ازداد تأثير الثقة هذه في أفلاطون كثيراً من حقيقة أنها أعقبت، وتعارضت مع أحاديث ترازيماخوس التهامية والأنايية، والذي وُصف بأنه سياسي أرعن من أسوأ نوع. ويُقاد القارئ، في نفس الوقت، إلى أن يماثل بين الفردانية ووجهات نظر ترازيماخوس، وإلى أن يعتقد بأن أفلاطون، في معركته ضده، إنما يحارب ضد كل الاتجاهات الهدامة والعدمية في عصره. بيد أننا لن نسمح لأنفسنا بالخوف من بيع الفردانية مثل ترازيماخوس (إذ أن ثمة شبه كبير بين صورته وبين بيع الجماعة الحديثة لـ "البشرية") بقبول آخر أكثر واقعية وأكثر خطراً لأنه أقل وضوحاً من البربرية. لأن أفلاطون يحلُّ بالمثل مذهباً بربرياً يدعو إلى أن الصواب هو كل شيء يعضد استقرار الدولة ويأسها.

وبالاختصار، بسبب نزعتها الجماعية المتطرفة، لم يكن أفلاطون حتى مهتماً بتلك المشكلات التي يدعوها الناس عادة مشكلات العدالة، أعني بالميزان المنصف للدعاوى الاحتجاجية للأفراد. ولا كان مهتماً بضبط الدعاوى الفردية مع دعاوى الدولة. لأن الفرد وضع تماماً. يقول أفلاطون: "إنني أشرع من منظور ما هو أفضل للدولة ككل. . . لأنني أضع بحق مصالح الفرد في مستو أقل قيمة." إنه مهتم فقط بالكل الجمعي، والعدالة، بالنسبة له، ليست سوى صحة، ووحدة، واستقرار القوام الجمعي.

6

لقد رأينا، حتى الآن، أن الأخلاق الإنسانية في حاجة إلى تأويل مساواتي وفرداني للعدالة، بيد أننا لم نجعل بعد الرؤية الإنسانية للدولة بالمثل. ولقد رأينا من جهة أخرى، أن نظرية أفلاطون في الدولة تعدُّ شمولية، بيد أننا لم نشرح بعد تطبيق هذه النظرية على أخلاق الفرد. ولسوف نضطلع بهاتين المهمتين الآن، بادئين بالثانية، ولسوف أبدأ بتحليل حجة أفلاطون الثالثة في "اكتشافه" للعدالة، وهي الحجة التي كانت قد أجملت على نحو تقريبي فقط. وحجة أفلاطون الثالثة هي:

يقولسقراط: "ولنر الآن ما إذا كنت تتفق معي أم لا. هل تعتقد بأن المدينة سيلحق بها الأذى إذا بدأ نجار في صنع أحذية وعمل إسكافي بالنجارة؟" - "ليس كثيراً جداً" - "ولكن هل ينبغي على المرء الذي هو بالطبيعة صانع، أو عضو في الطبقة الكاسية للمال. . . أن يحاول الدخول في طبقة المحاربين، أو ينبغي لأحد من طبقة المحاربين أن يدخل في طبقة الحراس دون كونه مستحقاً لها؛ ألا يعني أن هذا النوع من التغيير ومن التخطيط الاحتيالي سيؤدي إلى سقوط المدينة؟" - "بلى بالتأكيد سيؤدي إلى ذلك" - "لدينا في مدينتنا ثلاث طبقات، أفلا تعتقد أن أي تخطيط أو تغيير مثل هذا من طبقة لأخرى يعدُّ جريمة نكراء ضد المدينة، وقد يشهر به بحق على أنه شر مستطير؟" - "بكل تأكيد" - "ولكنك ستعلن بالتأكيد أن الشر المستطير تجاه مدينة الفرد الخاصة يعدُّ ظلماً" - "بالتأكيد" - "إذن هذا هو الظلم بعينه. وعلى العكس من ذلك، ستقول إنه عندما تواظب كل طبقة على عملها الخاص، الطبقة الكاسية للمال، وبالمثل طبقة المساعدين وطبقة الحراس، إذن ستكون هذه هي العدالة".

والآن لو نظرنا في هذه الحجة، لوجدنا (أ) الفرض السوسيولوجي الذي يقرّر أن أي تراخ في النظام الطبقي سيؤدي بالضرورة إلى سقوط المدينة؛ (ب) التردد الثابت لحجة بعينها، بأن ما

يؤذي المدينة هو الظلم؛ و(جـ) والاستدلال على أن المقابل هو العدالة. والآن يمكننا التسليم هنا بالفرض السوسيولوجي (أ) لأن المثل الأعلى لأفلاطون هو كبح التغيير الاجتماعي، ولأنه يعني بلفظ "الأذى" أي شيء قد يؤدي إلى التغيير، ومن المحتمل جداً صحة أن التغيير الاجتماعي يمكن كبحه فقط عن طريق نظام طبقي جامد. وقد نسلّم أيضاً بالاستدلال (جـ) بأن المقابل للظلم هو العدل. ومع ذلك فالأكثر أهمية هو (ب)، إذ بنظرة سريعة على حجة أفلاطون سيئين أن التوجه الكلي لفكره يخضع للسؤال: هل هذا الشيء يؤدي المدينة؟ وهل يلحق أذى جسيماً أم أذى طفيفاً؟ إنه مايفتا يردّد باستمرار أن ما يهدّد بإيذاء المدينة إنما هو الشرير وغير العادل أخلاقياً.

ونرى هنا أن أفلاطون يعترف فقط بمعيار واحد نهائي، مصلحة الدولة. فكل شيء يدعمها إنما هو حسن وقاضل وعادل، وكل شيء يهددها إنما هو سيء وشرير وجائر. والأفعال التي تخدم هذا الهدف تعد أفعالاً أخلاقية، أما الأفعال التي تعرّضها للخطر، فتعدّ غير أخلاقية. وبعبارة أخرى، فإن الدستور الأخلاقي عند أفلاطون نقعي تماماً، إنه دستور النفعية الجمعية أو السياسية. إذ أن معيار الأخلاق هو مصلحة الدولة. فالأخلاق ليست سوى قانون الصحة السياسي.

هذه هي النظرية الجماعية، القبلية، الاستبدادية للأخلاق: "فالخير هو ما يكون في مصلحة جماعتي؛ أو قبيلتي؛ أو مدينتي." ومن السهل أن نرى ما تضمنته هذه الأخلاق بالنسبة للعلاقات الدولية: إن الدولة ذاتها لا يمكن أن تخطيء أبداً في أي من أفعالها، طالما هي قوية، وأن للدولة الحق، ليس فحسب في أن تعتق مواطنيها، طالما أن ذلك يزيد من قوتها، وإنما أيضاً في أن تهاجم دولاً أخرى، بشرط أن تفعل ذلك دون إضعاف نفسها (وهذا الاستدلال، التسليم الصريح بالأخلاقية للدولة، وما يترتب على ذلك من الدفاع عن عدمية أخلاقية في العلاقات الدولية، كان قد رسمه هيجل).

ومن منظور الأخلاق الاستبدادية، ومن منظور المنفعة الجماعية، تُعدّ نظرية أفلاطون للعدالة صحيحة تماماً. أن يحتفظ المرء بمكانه فهذه فضيلة. وهي تلك الفضيلة المدنية التي تتناظر تماماً مع الفضيلة العسكرية للنظام. وتلعب هذه الفضيلة نفس الدور الذي تلعبه "العدالة" في نسق الفضائل عند أفلاطون لأن أسنان التروس في عدة الساعة الضخمة للدولة يمكن أن تظهر "الفضيلة" بطريقتين. الأولى، ينبغي أن تكون مناسبة لمهمتها، من حيث حجمها، وشكلها، وقوتها. إلخ؛ وينبغي ثانياً، أن يمثّل كل منها مكانه الصحيح، وأن يحافظ على ذلك المكان. ولسوف يؤدي النمط الأول للفضائل - الصلاحية لمهمة خصوصية - إلى تمييز وفقاً للمهمة النوعية للترس. فلسوف تكون تروس معينة فاضلة، أعني صالحة، فقط لو كانت ("بطبيعتها") ضخمة، والأخرى لو كانت قوية، والأخرى لو كانت سلسة. بيد أن فضيلة احتفاظ كل منها بمكانه سيكون

عاماً بالنسبة لجميعها. وسيكون ذلك في نفس الوقت فضيلة للكل. وذلك لكونها مُعشقةً سورياً بشكل مناسب - أي لكونها في وفاق. ويطلق أفلاطون على هذه الفضيلة الكلية اسم "العدالة". وهذا الإجراء متسق تماماً ومبرر كلياً من منظور الأخلاق الاستبدادية. فلو لم يكن الفرد إلا سناً في ترس، لما كانت الأخلاق إلا دراسة كيفية ترتيب هذا السن في مكان مناسب في إطار الكل.

وأودُّ أن يكون واضحاً، أنني أعتقد في صدق النزعة الاستبدادية لدى أفلاطون. فمطلبه بالسيادة المطلقة لطبقة واحدة على بقية الطبقات غير قابل للمناقشة، بيد أن مثله لم تكن الاستغلال الأقصى للطبقات العاملة من قبل الطبقة العليا، وإنما كان استقرار الكل. ومع ذلك، فالسبب الذي يقدمه تبريراً للحاجة إلى أن يظل الاستغلال في حدود، إنما هو مرة أخرى سبب تقني بحت. إنه الرغبة في استقرار حكم الطبقة. فهو يبرهن على أنه لو حاول الحراس الحصول على أكثر من اللازم، لانتهى بهم الأمر إلى عدم الحصول على أي شيء. "ولو لم يكونوا قانعين بحياة الاستقرار والأمان... وأغرقتهم قوتهم أن يدعوا لأنفسهم ملكية ثروة المدينة كلها، فإنهم سيكتشفون بالتأكيد كم كان هزيمود حكيماً عندما قال: "النصف أكثر من الكل". بيد أننا ينبغي أن نذكر أنه حتى هذا الاتجاه لتقييد استغلال امتيازات الطبقة إنما يُعدُّ سمة شائعة عموماً للنزعة الاستبدادية. فالنزعة الاستبدادية ليست ببساطة عديمة الأخلاق. إنها أخلاق المجتمع المغلق - الجماعة أو القبيلة؛ فهي ليست أنانية فردية، وإنما هي أنانية جماعية.

وباعتبار أن حجة أفلاطون الثالثة مباشرة ومتسقة، فربما يكون السؤال الذي ينبغي أن يُسأل هو لماذا أحتاج إلى "المقدمة المطولة" وكذلك إلى الحجتين السابقتين؟ ولماذا كل هذا القلق؟ (ولسوف يرد الأفلاطونيون بالطبع بأن هذه الصعوبة إنما توجد فقط في خيالي. وربما يكون ذلك صحيحاً. بيد أن الخاصية اللاعقلانية للعبارات لا قبل لنا بتفسيرها.) والإجابة على هذا السؤال، فيما أعتقد، هي أن علة الساعة الجماعية الأفلاطونية لم تكن لتجذب قراءه لو كان قد عرضها لهم في صورتها المباشرة والبسيطة. لقد كان أفلاطون قلقاً لأنه كان يعرف وكان يخشى القوة الجاذبية الأخلاقية للقوى التي حاول أن يحطمها. فلم يجزؤ أن يتحدثهم، لكنه حاول أن يكسيهم لصالح أغراضه الخاصة. ونحن لن نعرف على الإطلاق ما إذا كنا نرى في كتابات أفلاطون محاولة تهكمية وواعية لتوظيف المشاعر الأخلاقية للنزعة الإنسانية الجديدة لأغراضه الخاصة، أو نرى فيها بالأحرى محاولة درامية لإقناع ضميره الخاص بشرور النزعة الفردية. وانطباعي الشخصي هو أن الاحتمال الأخير هو الصحيح، وأن هذا التعارض الداخلي هو السر الرئيسي لأحاجي أو سحر أفلاطون. وأعتقد أن أفلاطون كانت تحركه الأفكار الجديدة نحو أغوار نفسه، وخصوصاً من خلال الفرداني العظيم سقراط، وقصة استشهاد. وأعتقد أن أفلاطون قد ناضل بكل ما أوتي من ذكاء لا نظير له ضد هذا التأثير على نفسه، وأيضاً على الآخرين، وإن لم يكن ذلك دائماً بصورة

مكتشفة. ويفسر هذا أيضاً لماذا نجد، بين حين وآخر، ووسط كل هذه النزعة الاستبدادية التي يتبناها، بعض الأفكار الإنسانية. كما يفسر لماذا كان ممكناً بالنسبة للفلاسفة أن يصوروا أفلاطون باعتباره إنساني النزعة.

وخير برهان لتأييد هذا التفسير هو الوسيلة التي تعامل بها أفلاطون، أو بالأحرى، أساء بها التعامل، مع النظرية الإنسانية والعقلانية للدولة، وهي تلك النظرية التي كانت قد تطورت لأول مرة في نظريته المتعلقة بالتولد.

ولأجل عرض واضح لهذه النظرية يجب استخدام لغة المطالب السياسية أو المقترحات السياسية (قارن الفصل الخامس القسم 3)، أي أنه لا يجب علينا أن نحاول الإجابة عن السؤال الجوهري: ماهي الدولة، ماهي طبيعتها الحقة، ماهو معناها الحقيقي؟ كما لا يجب محاولة الإجابة عن السؤال التاريخاني: كيف نشأت الدولة، وما هو أصل الالتزام السياسي؟ ولكننا بالأحرى سنضع سؤالنا بهذه الطريقة: ما الذي نطلبه من الدولة؟ وما الذي تقترح اعتباره الهدف الشرعي لنشاط الدولة؟ ولكي نكتشف ماهي مطالبنا السياسية الأساسية، قد نسأل: لماذا نفضل الحياة في ظل دولة حسنة التنظيم عن الحياة بدون دولة، أعني في فوضى؟ هذه هي الطريقة التي تجعل من سؤالنا سؤالاً عقلانياً. وهو سؤال ينبغي على الفتي المخطط أن يحاول الإجابة عليه قبل أن يشرع في بناء أو إعادة بناء أي مؤسسة سياسية. إذ أنه فقط عندما يعرف ماذا يريد سيمكته تقرير ما إذا كانت مؤسسة معينة مهيأة تماماً لوظيفتها أم لا.

والآن إذا طرحنا سؤالاً بهذه الطريقة، فإن إجابة مَنْ يأخذ بالنزعة الإنسانية ستكون: ما أطلب من الدولة هو الحماية، ليس لنفسى فحسب وإنما أيضاً للآخرين. وأنا أطلب الحماية لأجل حريتي الخاصة، وحرية الناس الآخرين. ولا أودُّ أن أحمى تحت رحمة أي شخص لديه قبضة يد أضخم أو بنادق أكبر. وبعبارة أخرى، أودُّ أن أكون محمياً من عدوان يقع عليّ من الناس الآخرين. وأريد أن يكون مفهوم الاختلاف بين العدوان والحماية، وأن تكون الحماية مدعومة من القوة المنظمة للدولة. (الحماية هي حالة من الحالات الراهنة، والمبدأ المقترح يكافئ أن الحالة الراهنة لا يجب أن تتغير بوسائل عنيفة، وإنما وفقاً للقانون فحسب، سواء بالتراضي أو بالتحكيم، إلا إذا لم يكن ثمة إجراء قانوني لإعادة النظر فيها.) وإتني لعلى استعداد تام أن أرى حريتي الخاصة في التصرف متقصّة نوعاً ما من قبل الدولة، بشرط أن أضمن الحماية لما تبقى من تلك الحرية، لأنني أعلم أن بعض القيودات لحرיתי ضرورية، إذ ينبغي، مثلاً، أن أتخلّى عن "حريتي" في الهجوم، لو كنت أريد من الدولة أن توفر الحماية ضد أي هجوم. بيد أنني أطالب بأن تظل الغاية الأساسية للدولة دائماً نصب أعيننا، أعني

حماية تلك الحرية التي لا تؤدي المواطنين الآخرين - وهكذا فإنني أطلب بأن على الدولة تحديد حرية المواطنين بالتساوي بقدر الإمكان، ولكن ليس أبعد مما هو ضروري لتحقيق تحديد متساو للحرية.

ولسوف يكون مطلب الإنساني، والمساواتي، والفرداني شيئاً ما شيئاً بهذا. إنه مطلب يسمح للمهندس الاجتماعي أن يعالج مشكلات أساسية بصورة عقلانية، أعني من وجهة نظر هدف واضح ومحدد بشكل كاف. وقد تُثار العديد من الاعتراضات ضد الزعم بأن هدفاً مثل هذا يمكن أن يصاغ بوضوح وتحديد كافين. فقد قيل إنه بمجرد الاعتراف بضرورة تحديد الحرية، فإن مبدأ الحرية بالكامل ينهار، والسؤال عن ماهية التحديدات الضرورية وماهية الأشياء الطليقة لا يمكن أن يقرر بطريقة عقلانية، وإنما فقط من خلال السلطة. ولكن هذا الاعتراض به بعض التشويش. فهو يخلط بين المسألة الأساسية لما نريده من الدولة وبين صعوبات فنية هامة معينة في وسيلة تحقيق أهدافنا. فمن الصعب بالتأكيد أن نحدد بالضبط درجة الحرية التي يمكن أن تُترك للمواطنين دون تعريض تلك الحرية - التي تعد حمايتها من مهمة الدولة - للخطر. ولكن التجربة تدل على أن شيئاً ما مثل التحقيق التقريبي لهذه الدرجة ممكن، وذلك من خلال وجود دول ديمقراطية. وبالفعل، تعد عملية التحديد التقريبي هذه واحدة من المهام الرئيسية للتشريع في الديمقراطيات. إنها عملية صعبة، ولكن صعوباتها بالتأكيد ليست بهذه الدرجة التي يفرض معها علينا أن نغير من مطالبنا الأساسية. ويإيجاز شديد، فهذه المتطلبات الأساسية هي أن الدولة يجب أن تعتبر مجتمعاً للبراءة الجرمية، أي العدوان. ومن حيث المبدأ، يمكن الرد على الاعتراض الكلي بأنه من الصعب معرفة أين تنتهي الحرية وتبدأ الجريمة، بالقصة الشهيرة للفتوة الذي كان يحتج بأنه، لكونه مواطن حر، فيمكنه أن يسدّد قبضته في أي اتجاه يشاء، وكان الرد الحكيم للقاضي على ذلك: "إن حرية تسديد قبضتك محددة بموضع أنف جارك."

ويمكن أن تُسمى وجهة النظر الخاصة بالدولة كما أوجزتها هنا "بمذهب الحماية". ولقد كان مصطلح "مذهب الحماية" يُستخدم كثيراً لوصف الترععات المضادة للحرية. فمذهب الحماية يعني بالنسبة للاقتصادي نظاماً معيناً لحماية مصالح صناعية معينة من المنافسة؛ وهو يعني بالنسبة للأخلاقي المطلب بأن يفرض موظفو الدولة وصاية أخلاقية على السكان. وعلى الرغم من أن النظرية السياسية التي أدعواها "بمذهب الحماية" غير مرتبطة بأي من هذه الاتجاهات، وعلى الرغم من أنها أساساً نظرية ليبرالية، إلا أنني أعتقد بأن الاسم يمكن أن يُستخدم للإشارة إلى أنه لا دخل له كلية، على الرغم من ليبراليته، بسياسة عدم التدخل الصارم (الذي كثيراً، ولكن ليس بدقة تامة، ما سُمي بـ "عدم التعرض") فالليبرالية وتدخل الدولة لا يتعارض أي منهما مع الآخر. وعلى العكس، فأي نوع من الحرية هو بحق مستحيل إذا لم تكفله الدولة. إذ يلزم قدر

معين من رقابة الدولة على التربية، على سبيل المثال، إذا أردنا حماية الشباب من إهمال قد يؤدي إلى عدم قدرتهم على الدفاع عن حريتهم، وينبغي على الدولة أن تضع نصب أعينها إتاحة كل التسهيلات التعليمية لكل شخص. بيد أن تحكم الدولة الزائد عن الحد في المسائل التربوية يشكل خطراً مميتاً على الحرية، لأنه سيؤدي بالضرورة إلى التعمد. وكما أشرنا من قبل، لا يمكن أن تحل المسألة الهامة والصعبة لحدود الحرية بصيغة قطعية وجافة. أما واقع وجود حالات وسيطة بشكل دائم فيجب الترحيب بها، لأنه بدون إثارة مشكلات سياسية ونضالات سياسية من هذا النوع، فإن استعداد المواطنين للزود عن حريتهم سوف يتلاشى سريعاً، وتتلاشى معه، حريتهم. (وعلى ضوء هذا المنظور، فإن التعارض المزعم بين الحرية والأمن، أي الأمن المكفول بواسطة الدولة، يضحى محض خيال. لأنه لا وجود لحرية، إذا لم تكن مؤمنة بواسطة الدولة، وعلى العكس من ذلك، فالدولة التي يحكمها مواطنون أحرار هي فقط التي يمكن أن تقدم لهم أي قدر معقول من الأمن.)

وبهذا المعنى، فإن النظرية الحمائية للدولة تكون خالية من أية عناصر تاريخية، أو جوهرية. فهي لا تقرر أن الدولة نشأت بوصفها رابطة لاتحاد من الأفراد بغرض الحماية، أو أن أي دولة فعلية في التاريخ كانت تحكم بوعي في وقت ما وفقاً لهذا الغرض. وهي لا تقرر شيئاً عن الطبيعة الجوهرية للدولة، أو عن حق طبيعي للحرية. كما أنها لا تقرر أي شيء عن الوسيلة التي بها تؤدي الدول وظيفتها بالفعل. وإنما هي تطرح مطلباً سياسياً، أو بدقة أكثر، اقتراحاً لتبني سياسة معينة. ومع ذلك، يداخلني شك في أن العديد من العرفيين الذين وصفوا الدولة بأنها تابعة من رابطة لحماية أعضائها، قصدوا أن يعبروا عن هذا المطلب بالتحديد، على الرغم من أنهم فعلوا ذلك بلغة سمجة ومضللة - ألا وهي اللغة التاريخية. وثمة وسيلة للتعبير عن هذا المطلب مضللة بالمثل وهي تقرر أن من الضروري توظيف الدولة لحماية أعضائها؛ أو التي تقرر أن الدولة من حيث تعريفها رابطة من أجل حماية متبادلة. وينبغي لكل هذه النظريات أن تترجم، كما كان الحال، إلى لغة مطالب أو اقتراحات لأفعال سياسية مثل أن يصبح في الإمكان مناقشتها بجدية. وإلا سيصبح من المتعذر تجنب مناقشات لا نهاية لها ذات طابع لفظي فحسب.

ويمكن أن نعطي مثلاً لمثل هذه الترجمة. كان أرسطو قد طرح نقداً لما أسماه التزعة الحمائية، وأعيد طرح هذا من قبل بيرك Burke والعديد من الأفلاطونيين المحدثين. ويقرر هذا النقد أن التزعة الحمائية تنظر نظرة متواضعة للغاية لمهام الدولة، تلك المهام التي (مستخدمين ألفاظ بيرك) "يجب أن ينظر إليها باحترام كبير، لأنها ليست شراكة في أشياء تخدم فقط الوجود الحيواني ككل ذي الطبيعة الوقتية والمفانية". وبعبارة أخرى، يُقال إن الدولة هي شيء أعلى أو أبيل من رابطة ذات أهداف عقلانية، فهي محل تجيل. فلديها واجبات أعلى من مجرد حماية الكائنات البشرية

وحقوقهم. ولديها واجبات أخلاقية. يقول أرسطو: "مهمة الدولة التي تستحق هذا الاسم هي رعاية الفضيلة." ولو حاولنا أن نترجم هذا النقد إلى لغة المطالب السياسية، لوجدنا أن هؤلاء المتقدين لمذهب الحماية يريدون شيئين: أولاً، يرغبون أن يجعلوا الدولة محل تبجيل. ومن وجهة نظرنا، ليس ثمة شيء يُقال ضد هذه الرغبة. إنها مسألة دينية، وينبغي على مُبجِّلِي الدولة أن يحلوا لأنفسهم كيفية التوفيق بين عقيدتهم وعقائدهم الدينية الأخرى، على سبيل المثال، الوصية الأولى. أما المطلب الثاني فسياسي. وهذا المطلب من الناحية العملية، قد يعني ببساطة أنه يجب على موظفي الدولة الاهتمام بأخلاق المواطنين، واستخدام قوتهم ليس لحماية حرية المواطنين بقدر التحكم في حياتهم الأخلاقية. وبعبارة أخرى، هو مطلب أن يتسع نطاق الشرعية القانونية، أي المعايير التي تدعمها الدولة، على حساب الأخلاق، أي على حساب تلك المعايير التي تدعمها قراراتنا الخلقية الذاتية (أي ضميرنا) وليس الدولة. ومثل هذا المطلب أو الاقتراح يمكن مناقشته عقلانياً، إذ يمكن أن يُقال في معارضته أن أولئك الذين يرفعون مثل هذه المطالب ربما لا يرون أن هذا سيكون نهاية المسؤولية الأخلاقية الفردية، وأنه لن يحسن الأخلاق بل سيدمرها. وأنه سيحلُّ المحرمات القبلية والتبعية المستبدة للفرد محل المسؤولية الشخصية. وعلى خلاف هذا الاتجاه ككل، ينبغي أن يؤكد ذو النزعة الفردية أن أخلاق الدول (لو كان ثمة شيء من هذا القبيل) تميل إلى أن تكون أدنى بكثير من أخلاقيات المواطن المتوسط، ولذلك فإنّه من المرغوب فيه إلى حد بعيد أن تخضع أخلاق الدولة لتحكم المواطنين وليس العكس. فما نحتاج إليه وما نريده هو أن تُلغ السياسة بالأخلاق، لا أن نسيء الأخلاق.

ومن وجهة نظر ذي النزعة الحمائية يجب الإشارة إلى أن الدول الديمقراطية الموجودة، على الرغم من كونها بعيدة عن الكمال، فهي تمثل انجازاً عظيماً للغاية في هندسة اجتماعية من النوع الصحيح.

ولقد أُلغي أو قلِّل إلى حد بعيد جداً العديد من صور الجريمة، من الجور على حقوق أفراد الجنس البشري من قبل أفراد آخرين، وتقيم محاكم القانون العدل بإنصاف وبصورة ناجحة في نزاعات المصالح الصعبة. ويعتقد الكثير أن مدَّ هذه الطرق لتشمل الجريمة الدولية أو النزاع الدولي هو فقط من قبيل الحلم اليوتوبي، ولكن ليس بعيد جداً ذلك الوقت الذي بدت فيه مؤسسة حفظ السلام المدني كحلم طوباوي لهؤلاء الذين عانوا من تهديدات المجرمين، في دول يحافظ فيها بصورة ناجحة تماماً على السلام المدني. وأعتقد أن المشكلات الهندسية للتحكم في الجريمة الدولية ليست بهذه الصعوبة حقيقة، إذا ما تمت مواجهتها بطريقة مباشرة وعقلانية. وإذا عرض الموضوع بوضوح، فلن يكون من الصعب اتفاق الناس على أن مؤسسات الحماية ضرورية، على كلا المستويين الإقليمي والعالمي. ودعَّ عبَّاد الدولة يستمرون في عبادة الدولة، ولكن أطلب أن يُسمح

للتكنولوجيين في المؤسسات ليس فقط تحسين الآلات الداخلية، ولكن أيضاً بناء مؤسسة تعمل على درء الجريمة الدولية.

7

وإذا ما عدنا إلى تاريخ هذه الحركات، لوجدنا أن النظرية الحمائية للدولة ربما قد طُرحت لأول مرة من قبل السوفسطائي ليكوفرون، تلميذ جورجياس. فلقد أشير بالفعل إلى أنه كان (مثل الخيداماس، تلميذ جورجياس أيضاً) أحد أول المهاجمين لنظرية الامتياز الطبقي. وقد سجل أرسطو أنه كان يتبع النظرية التي أطلقت عليها اسم "مذهب الحماية"، ولكن حديثه يوحي بأنه قد يكون أول من قال بها. ونعلم من نفس المصدر أنه قد صاغها بوضوح ينذر أن نجد له مثيلاً عند أي من تابعيه.

ويخبرنا أرسطو أن ليكوفرون نظر إلى قانون الدولة باعتباره "ميثاقاً للعدالة ارتضاه الناس فيما بينهم". (وأنه يفتقد القوة التي تجعل من المواطنين صالحين أو عادلين). ويخبرنا فضلاً عن ذلك أن ليكوفرون تطلّع إلى الدولة بوصفها أداة لحماية مواطنيها من الأفعال الجائرة (وللسماح لهم بالتعامل الآمن، وخصوصاً التبادل)، مطالباً بأن تكون الدولة رابطة تعاونية لدرة الجريمة. "ومن المثير أن لا توجد إشارة في تقسيم أرسطو أن ليكوفرون عبر عن نظريته بصورة تاريخانية، أي بوصفها نظرية متعلقة بالأصل التاريخي للدولة القائمة على عقد اجتماعي. بل على العكس، نستشف بوضوح من نص أرسطو أن نظرية ليكوفرون كانت تتعلّق فقط بغاية الدولة؛ لأن أرسطو يجادل بأن ليكوفرون لم يكن يرى أن الغاية الأساسية للدولة أن تجعل مواطنيها أفاضل. ويشير هذا إلى أن ليكوفرون قد فسر هذه الغاية تفسيراً عقلانياً، متنبياً، من وجهة النظر التقنية، مطالب مذهب المساواة، والمذهب الفردي ومذهب الحماية. وبهذه الصورة، تُعتبر نظرية ليكوفرون آمنة تماماً من الاعتراضات التي واجهت النظرية التاريخانية التقليدية للعقد الاجتماعي، وكثيراً ما يُقال مثلما هو الحال عند باركر، أن نظرية العقد كانت قد تلاقت معها وجهات نظر المفكرين المُحدثين نقطة بنقطة. وقد يكون ذلك صحيحاً، بيد أنه سيتبين من مجمل وجهات نظر بيركر أنها لا تتفق بالتأكيد مع نظرية ليكوفرون الذي كان بيركر يرى فيه (وفي هذه النقطة فإنني أميل إلى الاتفاق معه) المؤسس المحتمل للصورة الأولية للنظرية التي سُميت فيما بعد نظرية العقد. ويمكن تلخيص النقاط التي تعرّض لها باركر فيما يلي: (أ) لم يكن أبداً، تاريخياً، ثمة عقد؛ (ب) لم تكن الدولة أبداً، تاريخياً، مؤسسة؛ (ج) لا تُعدّ القوانين عرفية، وإنما تنشأ من تقليد، من قوة مهيمنة، وربما من فطرة إلخ؛ فهي عبارة عن عادات قبل أن تتحوّل إلى شرائع؛ (د) لا تكمن قوة القوانين في

العقوبات، في القوة الحامية للدولة التي تساندها، وإنما في استعداد الفرد لإطاعتها، أي في الإرادة الأخلاقية للفرد.

وسنرى حالاً أن الاعتراضات (أ)، (ب)، (ج) التي تعتبر في حد ذاتها صحيحة بشكل معقول (على الرغم من وجود بعض العقود) تخص النظرية فقط في صورتها التاريخية، وليست ذات قيمة بالنسبة لصياغة ليكوفرون. ولذلك لنا في حاجة إلى أن نضعها في اعتبارنا على الإطلاق. ومع ذلك، يستحق الاعتراض (د) النظر فيه عن قرب. فما عسى أن يكون معناه؟ والنظرية محل الهجوم تؤكد على "الإرادة"، أو بتعبير أفضل على "قرار الفرد" أكثر من أية نظرية أخرى؛ فالواقع، أن لفظة "عقد" تفترض قبولاً بـ "الإرادة الحرة"، وهي تفترض، ربما أكثر من أية نظرية أخرى، أن قوة القوانين إنما تكمن في استعداد الفرد على أن يقبلها وأن يطيعها. فكيف يمكن إذن أن يقيم (د) اعتراضاً على نظرية العقد؟ يبدو أن التفسير الوحيد هو أن ياركر لم يعتقد أن العقد إنما يصدر من "الإرادة الأخلاقية" للفرد، وإنما بالأحرى من إرادة أنانية؛ ويبدو هذا التفسير أكثر تواءماً مع نقد أفلاطون. بيد أن المرء ليس في حاجة إلى أن يكون أنانياً لكي يكون ذا نزعة حمائية. فالحمائية لا تعني بالضرورة الذات، فالعديد من الناس يؤمن على حياته بغرض حماية الآخرين، وليس أنفسهم، وبالمثل فقد يطلبون حماية الدولة أساساً للآخرين، وبدرجة أقل (وقد لا يكون بأية درجة على الإطلاق) لأنفسهم. إن الفكرة الأساسية لمذهب الحماية هي: حماية الضعيف لكونه مهدد من القوي. وهذا المطلب لم يكن مرفوعاً فقط من الضعيف، وإنما أيضاً وغالباً من القوي. وأقل ما يقال عنه، ومن التضليل أن نفترض هنا، إنه مطلب أناني ولا أخلاقي.

ومذهب الحماية عند ليكوفرون بريء، فيما اعتقد، من كل هذه الاعتراضات. فهو التعبير الأكثر ملاءمة للحركة الإنسانية والمساواتية للعصر البرقليسي. ومع ذلك، فقد سلب منا، وسلم للأجيال التالية فقط بصورة مشوهة، كالنظرية التاريخية لأصل الدولة في عقد اجتماعي؛ أو جوهراتية تزعم أن الطبيعة الحقة للدولة إنما هي طبيعة العرف، وكنظرية الإيثار، المستندة إلى افتراض أن طبيعة الإنسان لا أخلاقية في الأساس. وكل هذا بسبب التأثير الطاغوي لسلطة أفلاطون.

من الممكن أن يداخلنا بعض الشك في أن يكون أفلاطون قد علم بنظرية ليكوفرون تمام العلم،

لأنه كان (على الأرجح) المعاصر الأصغر للكوفرون. ويمكن بالفعل مطابقة هذه النظرية بسهولة بأخرى مذكورة لأول مرة في جورجياس، ثم فيما بعد في الجمهورية. (ولا يذكر أفلاطون مؤلفها في أي من الموضعين، وهو إجراء غالباً ما يتبناه أفلاطون عندما يكون خصمه حياً). ولقد عير عن هذه النظرية خالقيس في محاورة جورجياس، وهو ذو نزعة عدمية أخلاقية، مثله في ذلك مثل ترازيماخوس في الجمهورية. أما في الجمهورية فقد عير عن ذلك جلوكون. ولا يماثل المتحدث في كل حالة بين نفسه وبين النظرية التي يقدمها.

ومن نواح عديدة تُعتبر الفقرتان متوازيتين. فكلاهما يقدم النظرية بصورة تاريخانية؛ أعني باعتبارها نظرية في أصل "العدالة". وكلاهما يقدمها كما لو كانت مقدماتها المنطقية آتانية، بل وحتى عدمية بالضرورة؛ أعني كما لو كانت النظرة الجمالية للدولة يساندها فقط هؤلاء الذين يؤدون ممارسة الجور، ولكنهم من الضعف يمكن لعمل ذلك، وهم بالتالي يطالبون القوي بالآ يفعل كذلك؛ وهو تقديم غير منصف بالتأكيد، لأن المقدمة الضرورية الوحيدة للنظرية هي المطالبة بأن تكبت الجريمة، أو الجور. وحتى الآن تمضي الفقرتان في جورجياس وفي الجمهورية متوازيتين، وهو التوازي الذي كثيراً ما كان ماثراً للتعليقات. بيد أن ثمة اختلاف شديد بينهما كان قد أُغفل، على حد علمي، من قبل المعلقين. وهذا هو الاختلاف؛ في جورجياس كان الذي طرح النظرية هو خالقيس باعتباره أحد الذين يعارضونها؛ ولأنه يعارض سقراط أيضاً، فقد بدا بالتبعية، أن أفلاطون لم يهاجم النظرية الحمائية، بل بالأحرى، دافع عنها. وحقا، لو أمعنا النظر لتبين أن سقراط يساند العديد من قسماتها ضد خالقيس العدمي. ولكن في الجمهورية تُطرح نفس النظرية من قبل جلوكون باعتبارها تحسناً أو تطويراً لرؤى ترازيماخوس، أعني العدمي الذي يحتل هنا مكان خالقيس؛ وبعبارة أخرى، طُرحت النظرية بوصفها نظرية عدمية، وقدم سقراط بوصفه البطل، المظهر الذي يحطم هذا المذهب الأناني الشيطاني. وهكذا فإن الفقرات التي وجد فيها معظم المعلقين تشابهاً بين توجهات جورجياس والجمهورية، إنما تُظهر، في واقع الأمر، اختلافاً كاملاً في التوجه. وعلى الرغم من طرح خالقيس العدائي، إلا أن اتجاه محاورة جورجياس مشجع لمذهب الحماية، أما الجمهورية فإنها معارضة بشدة.

ونعرض هنا فقرة لحديث خالقيس في جورجياس: "القوانين من صنع الغالية العظمى من الناس تلك التي تتكون أساساً من الرجال الضعفاء. وهم يصنعون القوانين... لكي يحموا أنفسهم ومصالحهم. وهكذا فإنهم يرددون الرجال الأقوى... وكل الآخرين الذين قد يصبحون أفضل منهم، عن فعل ذلك؛... وهم يعنون بلقطة "الجور" محاولة أن يحصل الرجل على الأفضل من جاره؛ ولكونهم يدركون انحطاطهم، فيلزم أن أقول، إنهم يكونون في متسهي السعادة لو أمكنهم الحصول على المساواة". وإذا نظرنا هذا العرض، وحذفنا منه ما هو ناتج عن

احتقار وعداء خاليقليس الصريحين، فإننا نعثر حيثذ على كل عناصر نظرية ليكوفرون : مذهب المساواة، والمذهب الفردي، والحماية من الجور. وحتى الاستشهاد بـ "الأقوياء" و "الضعفاء" الذين يدركون انحطاطهم إنما يتفق والنظرة الحمائية تمام الاتفاق، بشرط السماح بعنصر كاريكاتوري. وليس من غير المتوقَّع على الإطلاق أن مذهب ليكوفرون قد أقام دعوة صريحة بأن على الدولة أن تحمي الضعيف، وهي دعوة أبسط ما يُقال فيها بالطبع أنها خيصة (ولقد عبَّر عن الأمل في أن تحقق هذه الدعوة ذات يوم التعليم المسيحي الذي يقول: "ولسوف يرثُ الحليمُ الأرض").

وخاليقليس نفسه لم يكن يحب مذهب الحماية؛ وإنما كان يفضل الحقوق "الطبيعية" للأقوى. ومن الأهمية بمكان أن سقراط، في حجته ضد خاليقليس، يتقدَّم لإنقاذ مذهب الحماية، وذلك لأنه يربطه بأطروحاته المركزية التي تقول بأن من الأفضل أن نعاني الجور من أن نمارسه. فهو يقول، على سبيل المثال: "أليست الأغلبية مع الرأي، بأن العدالة هي المساواة؟ كما كنت تقول منذ عهد قريب؟ وأيضاً أن من المعيب أكثر أن نمارس الجور من أن نعانيه؟" ويستطرد فيما بعده: "... الطبيعة ذاتها، وليس العرف فحسب، تثبت أن ممارسة الجور معيب أكثر من معاناته، وأن العدالة هي المساواة." (وعلى الرغم من اتجاهاته الفردانية والمساواتية الحمائية، تعرض أيضاً لمحاورة جورجياس بعض الميول التي تعتبر ضد الديمقراطية. وربما يكون التفسير هو أن أفلاطون عندما كان يكتب محاورة جورجياس لم يكن قد طورَ بعد نظرياته الاستبدادية، وعلى الرغم من أن ميوله كانت بالفعل ضد الديمقراطية، إلا أنه كان لا يزال واقعاً تحت تأثير سقراط. فكيف يمكن لأي شخص أن يعتقد بأن محاورة جورجياس والجمهورية يمكن أن يكونا معاً في نفس الوقت تقديرات صحيحة لأراء سقراط، إنني عاجز عن فهم ذلك.)

دعونا الآن نعود إلى الجمهورية، حيث يقلِّم جلوكون مذهب الحماية بوصفه أكثر إلحاحاً من الناحية المنطقية، وكذلك الأخلاقية، وهو صورة طبق الأصل من عدمية ترازيماخوس. يقول جلوكون: "وموضوعي هو أصل العدالة، وماهيتها الحقيقية، وطبقاً للبعض فإيقاع الجور بالآخرين يُعتبر شيئاً ممتازاً بطبيعة الحال، ولكن المعاناة منه شيء سيء. ولكنهم يتمسكون بأن سوء المعاناة من الجور يتجاوز كثيراً إمكانية الرغبة في تطبيقه ولذلك فالرجال سيوقعون الجور على بعضهم البعض لفترة ما، وسيعانون منه بطبيعة الحال، وسيعرفون جيداً مذاق كل منهما. ولكن في النهاية يقررون أنهم ليسوا أقوياء بقدر كافٍ لصدّه، أو للاستمتاع بتطبيقه، أن من الأكيد بالنسبة لهم الانضمام إلى عقدٍ يضمن لكل منهم في مواجهة الآخر أن لا أحد يجب أن يمارس الجور أو يعانيه... وهذه هي الطريقة التي تأسست عليها القوانين... ووفقاً لتلك النظرية، هذه هي طبيعة وأصل العدالة".

ومهما كان المدى الذي يضيء إليه مضمونها العقلاني، فهو بوضوح نفس النظرية، والطريقة التي تمثل بها تشابه أيضاً تفصيلاً مع حديث خاليقليس في محاوره جورجياس. ومع ذلك، لقد أجرى أفلاطون تعديلاً كاملاً للتوجه. فالنظرية الحمائية الآن لم تعد مدافع عنها ضد الادعاء بأنها مبنية على الأنانية التهكمية، وإنما على العكس من ذلك. أما مشاعرنا الإنسانية وسخطنا الأخلاقي اللذين أثارتتهما عدمية ترازيماخوس بالفعل، فتستخدم لتحويلنا إلى أعداء للترعة الحمائية. فقد جعل أفلاطون هذه النظرية التي أشير إلى سميتها الإنسانية في جورجياس، جعلها تبدو كنزعة مضادة للإنسانية، وبالفعل كتاج للمذهب المنبوذ والبعيد كل البعد عن الإقناع والذي يرى أن الجور إنما هو شيء حسن للغاية... لمن يمكنه الإفلات منه. وهو لم يتردد في أن يضرب في هذه النقطة على الوتر الحساس. ففي ملحق شامل للفقرة المقتبسة يتوسع جلوكون بتفصيل كبير في الفروض الضرورية المزعومة أو مقدمات الترعة الحمائية. وهو يشير ضمن هذا، على سبيل المثال، إلى وجهة النظر التي ترى أن تطبيق الجور هو "أفضل الأشياء جميعاً". ذلك أن العدالة تُقام فقط لأن العديد من الناس من الضعف الشديد بحيث يعجزون عن اقتراف الجرائم، وأنه بالنسبة إلى المواطن الفرد ستكون حياة الجريمة هي الأكثر فائدة. ويصادق "سقراط"؛ أعني أفلاطون صراحة على أصالة تأويل جلوكون للنظرية المعروضة. وبهذه الطريقة، يبدو أن أفلاطون قد نجح في استمالة معظم قرائه، وجميع الأفلاطونيين بطبيعة الحال، إلى أن النظرية الحمائية المطورة هنا تطابق الترعة الأنانية الوحشية والتهكمية لترازيماخوس؛ وإلى، وهو الأكثر أهمية، أن كل صور الترعة الفردية تتوخى نفس الشيء، أعني، الأنانية. بيد أنه لم يستعمل المعجيين به فحسب، وإنما نجح أيضاً في استمالة المناوئين له، وخصوصاً المشايخين لنظرية العقد. فبدءاً من كارنيدس Carneades، وحتى هوبز، لم يتبن أحد عرض أفلاطون التاريخاني المشؤوم فحسب، وإنما أيضاً تأكيدات يأن أساس نظريتهم هو صورة من صور العدمية الأخلاقية.

وعلىنا الآن أن نفهم أن تحسين الأساس الأناني المزعوم للنظرية يمثل كل حجة أفلاطون ضد الترعة الحمائية، ونظراً للحجم المخصص لهذا التحسين فيمكننا أن نفترض بكل اطمئنان أن سكوته لم يكن السبب في عدم إعطائه حجة أفضل، إنما في الحقيقة لم تكن لديه أية حجة. فيجب استبعاد النظرية الحمائية على أساس من مشاعرنا الأخلاقية بوصفها إساءة لفكرة العدالة، وإلحاسنا بالعفة.

هذه هي طريقة أفلاطون في التعامل مع النظرية التي لم تكن منافسة خطيرة فحسب لمذهبه الخاص، وإنما أيضاً ممثلة للعقيدة الإنسانية والفردية الحديثة، أعني الخصم لكل شيء عزيز عند أفلاطون. وهي طريقة بارعة؛ تبرهن عليها نجاحها المدهش. ولكنتي لن أكون عادلاً إن لم أعترف

بصراحة أن طريقة أفلاطون تبدو لي غير شريفة، لأن النظرية المهاجمة لا تحتاج إلى أي فرض لا أخلاقي أكثر من أن الجور هو الشر، أعني أنه ينبغي تحاشيه ووضعه تحت الرقابة. ولقد علم أفلاطون تمام العلم أن النظرية لم تكن مستندة إلى الأثبات، لأنه قدّمها في محاوره جورجياس ليس باعتبارها متماثلة مع النظرية العدمية التي منها "اشتقت" في محاوره الجمهورية، وإنما بوصفها معارضة لها.

وبالاختصار، يمكننا القول إن نظرية أفلاطون في العدالة، وكما قدّمت في الجمهورية والأعمال المتأخرة، تُعدُّ محاولة واعية للحصول على أفضل الاتجاهات المساواتية، والفرذانية، والجماعية في عصره، وليعيد تأسيس الادعاءات القبليّة بتطوير نظرية أخلاقية استبدادية، ولقد كان، في نفس الوقت، متأثراً بشدة بالآخلاقيات الإنسانية الحديثة، ولكن بدلاً من جدال النزعة المساواتية بالحجج، نجده قد تجنّب حتى مناقشتها. ولقد دوّن بنجاح المشاعر الإنسانية التي عرف قوتها تمام المعرفة، لمصلحة حكم الطبقة الاستبدادي لجنس ميطر أرفع منزلة بالطبيعة.

ولقد زعم أن هذه الامتيازات الطبقيّة ضرورية لدعم استقرار الدولة. لذلك فهي تكون جوهر العدالة. وهذا الزعم مستند، في النهاية إلى الحجة التي تقول إن العدالة مفيدة لقوة، وصحة، واستقرار الدولة؛ وهي حجة تشابه كثيراً مع التعريف الاستبدادي الحديث؛ العدل هو كل ما يكون نافعا لقوة أمتي، أو طبقتي، أو حزبي.

يبد أن القصة كلها لم تنته بعد. فبتأكيدنا على الامتياز الطبقي، تثير نظرية أفلاطون في العدالة مشكلة في قلب النظرية السياسية، ألا وهي "من الذي يحكم؟" وكان ردّه على هذا السؤال أن الأحكم والأفضل هو الذي ينبغي أن يحكم. أليست هذه إجابة ممتازة تعلل سمة نظريته؟

الفصل السابع: مبدأ القيادة

على الحكيم أن يقود ويحكم، أما الجاهل فعليه أن يقدم له فروض الطاعة.

أفلاطون

ولقد اضطررنا اعتبارات معينة على تفسيرنا لبرنامج أفلاطون السياسي إلى بحث الدور الذي تلعبه بعض الأفكار الأخلاقية مثل العدالة، والخير، والجمال، والحكمة، والحقيقة، والسعادة في إطار هذا البرنامج. ويستمر هذا الفصل والفصلان التاليان في هذا التحليل، وسوف نولي الدور الذي تلعبه فكرة الحكمة في الفلسفة السياسية عند أفلاطون عنايتنا بعد ذلك.

لقد رأينا أن فكرة أفلاطون للعدالة تلتزم، في أساس، أن يحكم الحكام الطبيعيون، وأن يستعبد العبيد الطبيعيون. ومن المطالب التاريخانية أنه يتعين على الدولة، من أجل كيح كل تغير، أن تكون نسخة من مثاليها أو من طبيعتها الحققة. وتشير نظرية العدالة هذه بوضوح شديد إلى أن أفلاطون قد رأى أن المشكلة الرئيسية في السياسة تكمن في السؤال: من الذي سيحكم الدولة؟

I

ولعلني على قناعة بأنه من خلال التعبير عن مشكلة علم السياسة بالصيغة "من الذي سيحكم؟" أو "إرادة من ستكون الأسمى؟"، إلخ، قد خلق أفلاطون ارتباكاً مزمناً في الفلسفة السياسية. وهو يتناظر بحق الارتباك الذي خلقه في مجال الفلسفة الخلقية، بمثاليته، كما نوقش ذلك في الفصل السابق، بين التزعين الجمعية، والغيرية. ومن الواضح أنه، بعد طرح السؤال "من الذي سيحكم؟" يكون من الصعب تجنب بعض الإجابات مثل "الأفضل" أو "الأحكم" أو "المقطور على الحكم" أو "الذي يتقن فن الحكم" (أو ربما "الإرادة العامة" أو "الجنس المسيطر" أو "العمال الصناعيون" أو "الشعب"). ولكن مثل هذه الإجابات، على الرغم من مظهرها المقنع،

لا تفيد على الإطلاق، كما سأحاول أن أبين، أولئك الذين يدافعون عن حكم "الأسوأ" أو "الأكثر حمقا" أو "المفطور على العبودية".

أولاً وقبل كل شيء، فإجابة مثل هذه قد تقنعنا بأن مشكلة أساسية في النظرية السيامية قد تم حلها. في حين أننا لو تناولنا النظرية السيامية من زاوية مختلفة، لاكتشفنا عندئذ أننا بعيدين كل البعد عن حل أية مشكلات أساسية، واننا قد قفزنا فقط عليها بافتراض أن السؤال "من الذي سيحكم" هو السؤال الأساسي. ذلك لأنه حتى بالنسبة لأولئك الذين يشاركون افتراض أفلاطون هذا، يوافقون على أن الحكام السياسيين ليسوا على الدوام "أخياراً" أو "حكماً" بصورة كافية. (ولنا بحاجة إلى القلق حول المعنى الدقيق لهذه المصطلحات.) ولأنه ليس من السهل على الإطلاق الحصول على حكومة يمكن الاعتماد ضمناً على خيريتها وحكمتها. ولو أخذ هذا على عواهنه لكان من اللازم أن نسأل عما إذا كان الفكر السياسي ينبغي أن يواجه منذ البداية احتمال مجيء حكومة سيئة؛ وعما إذا كان ينبغي الاستعداد لأسوأ أنواع الزعماء، والأمل في الأفضل. غير أن ذلك يؤدي بنا إلى منحى جديد من مشكلة السياسة، لأن ذلك يجبرنا على أن نستبدل بالسؤال: "من الذي سيحكم؟" السؤال الجديد: "كيف يمكننا أن ننظم بصورة ما المؤسسات السيامية بحيث نمنع الحكام الأشرار أو غير الأكفاء من التسبب في الكثير من الضرر؟".

أما أولئك الذين يعتقدون أن السؤال القديم أساسي، فإنهم يفترضون ضمناً أن السلطة السياسية (بصورة أساسية) لا يمكن مراجعتها. كما أنهم يفترضون أن شخصاً ما لديه السلطة - إما في صورة فرد أو جمع من الأفراد، كطبقة. ويفترضون أن ذلك الفرد الذي تيسر له السلطة يستطيع، في القريب العاجل، أن يفعل ما يشاء، ويستطيع، بصفة خاصة، أن يقوي من سلطته، ومن ثم يقترب بها بمزيد من السلطة غير المحدودة وغير المسيطر عليها. ويفترضون أن السلطة السياسية هي، بصفة أساسية، سيادة. على أن هذا الزعم، إن صح له الطرح، فإن الأمر، من ثم، الذي يتعلق بالسؤال "من الذي يحق له أن يكون صاحب السيادة؟" يبقى هو السؤال الوحيد ذو الأهمية.

ولسوف أطلق على هذا الفرض اسم نظرية السيادة (طليقة اليد)، مستخدماً هذا التعبير ليس للدلالة على أي نظرية خصوصية من نظريات السيادة المتعددة المقدمة بخصوصية أكثر من قبل كتاب مثل بودان، أو روسو، أو هيجل، وإنما للدلالة على فرض أكثر عمومية بأن السلطة السياسية هي بصورة عملية طليقة اليد، أو للمطلب الذي ينادي بأن تكون كذلك؛ ويتضمن هذا أن السؤال الرئيسي المتبقي هو أن تؤول هذه السلطة إلى من هو الأفضل. ونظرية السيادة هذه

مفترضة ضمناً في منحى أفلاطون، وقد لعبت دورها منذ ذلك الحين. وهي مفترضة ضمناً كذلك، مثلاً، عند أولئك الكتاب المحدثين الذين يعتقدون بأن المشكلة الرئيسية هي: من الذي يحقُّ له أن يملّي إرادته؟ الرأسماليون أم العمال؟

وأودُّ أن أوضح، دون الدخول في نقد تفصيلي، أن ثمة اعتراضات جدية على القبول المتسرع والضمني لهذه النظرية. فإياً كانت الميزات التأملية التي قد يبدو أنها تتصف بها، فهي بالتأكيد فرض غير واقعي على الإطلاق. إذ لا توجد مطلقاً سلطة سياسية طليقة اليد، وطالما ظل الإنسان إنساناً (وطالما أن العالم الجديد الشجاع لم يصبح بعد حقيقياً)، فلا يمكن أن توجد سلطة سياسية مطلقة لا رادع لها. فمادام لا يستطيع رجل واحد أن يجمع في يده قوة جسدية كافية للسيطرة على كل ماعداه من الناس الآخرين، فإنه لهذا السبب ينبغي أن يعتمد على مساعديه. وحتى أعتى الطغاة إنما يعتمد على شرطته السرية، وعلى أتباعه وجلاديه. ويعني هذا الاعتقاد أن سلطته، مهما بلغت سطوتها، ليست طليقة اليد، وأنه مضطر إلى تقديم امتيازات، والإذعان لبعض التنازلات، والإيقاع بجماعة ضد أخرى.. كما أنه يعني أن ثمة قوى سياسية أخرى، سلطات أخرى بجانب سلطاته، وأنه يستطيع أن يمارس حكمه فقط باستخدامها ومساندتها. ويبين هذا أن حتى حالات السيادة القصوى ليست حالات سيادة خالصة على الإطلاق. فهي ليست حالات يمكن لإرادة أو مصلحة رجل بمفرده (أو، إذا كان الأمر على هذا النحو، إرادة أو مصلحة جماعة بمفردها) أن تحقق هدفه مباشرة، دون التخلي عن بعض منها لكي يجند السلطات التي لا يستطيع قهرها.. وفي الغالبية العظمى من الحالات يمضي حدود السلطة السياسية أبعد من ذلك بكثير.

لقد شددت على هذه النقاط الأمبيريقية، ليس بسبب رغبتني في أن أستخدمها كحجة، وإنما فقط لكي أتجنب الاعتراضات. ودعوتي هي أن كل نظرية في السيادة إنما تنهرب من مواجهة مسألة غاية في الأهمية - وأعني بالمسألة، ما إذا كان يتعين علينا أن نجاهد في سبيل رقابة دستورية على الحكام، وذلك عن طريق موازنة سلطاتهم مقابل سلطات أخرى. ونظرية القيود والموازنات هذه تدعو على الأقل إلى تأمل حذر. وعلى قدر ما يمكنني فهمه، فإن الاعتراضات الوحيدة على هذه الدعوى هي (أ) أن رقابة مثل هذه مستحيلة عملياً، أو (ب) لا يمكن تصورها أساساً لأن السلطة السياسية سلطة سيادة في المحل الأول. ويمكن تفنيد هذين الاعتراضين الدجماطيقين، فيما أعتقد، بالوقائع؛ ومعهما يسقط عدد من وجهات نظر مؤثرة أخرى (مثل، النظرية التي تدعي أن البديل الوحيد لديكتاتورية طبقة واحدة هو ديكتاتورية طبقة أخرى).

ولسنا في حاجة، لكي نثير مسألة الرقابة الدستورية على الحكام، أن نفترض أكثر من أن الحكومات ليست دائماً خيرة أو حكيمة. ولكن لأنني سبق لي قول شيء ما عن الوقائع التاريخية،

فإنني أعتقد بأنه يتعين عليّ الاعتراف بأنني أشعر بميل نحو الماضي قليلاً فيما وراء هذا الاعتراض. ولعلني أميل إلى الاعتقاد بأن الحكام نادراً ما كانوا فوق المعدل الأخلاقي أو العقلي، وإنما كانوا دائماً نَحْتَهُ. كما أنني أعتقد بأن من المعقول أن نتبنى، في السياسة، مبدأ التأهب، في أغلب الأحيان، للأسوأ، كما يمكننا بالمثل، بل وينبغي، بالطبع، أن نحاول في نفس الوقت أن نحصل على الأفضل. ويبدو لي أن من الجنون أن نعلق جهودنا السياسية على أمل واهٍ بأننا سنوفق في الحصول على حكام ممتازين، أو حتى ذوي أهلية. ومع ذلك، وعلى الرغم مما يعتدل في نفسي من إحساس قوي في هذه المسائل، إلا أنني لازلت أصر على أن نقدي لنظرية السيادة لا يستند إلى هذه الآراء الشخصية.

فما عدا هذه الآراء الشخصية، وما عدا الحجج الإمبيريقية المشار إليها عاليه ضد النظرية العامة للسيادة، يوجد كذلك نوع من الحجة المنطقية التي يمكن الاستعانة بها لبيان عدم اتساق أي صورة من الصور الخصوصية؛ وبدقة أكثر، يمكن إعطاء هذه الحجة المنطقية صوراً مختلفة ولكن متشابهة، وذلك لمعارضة النظرية التي تذهب إلى أن الأحكام يجب أن يحكم، أو تلك النظريات التي تذهب إلى أن الأصلح أو القانون أو الأغلبية، إلخ يجب أن يحكم. وإحدى الصور الخصوصية لهذه الحجة المنطقية موجهة ضد الترجمة الساذجة جداً للترعة الليبرالية، وللديموقراطية، وللمبدأ الذي يزعم أن الأغلبية هي التي ينبغي أن تحكم، وهي شبيهة إلى حد ما بـ "محالية الحرية" المعروفة تماماً والتي سبق أن استعان بها أفلاطون في بادئ الأمر وبنجاح منقطع النظير. ففي انتقاده للديموقراطية، وفي عرضه لقصة الطاغية، يثير أفلاطون ضمناً السؤال التالي: ماذا يحدث لو أن إرادة الناس أجمعت على أنهم لا يجب أن يحكموا وأن يتولّى الحكم بدلاً منهم طاغية؟ يمكن للرجل الحر، فيما يقترح أفلاطون، أن يمارس حريته المطلقة، أولاً بتحدي القوانين، وأخيراً بتحدي الحرية ذاتها والمناداة بتصيب طاغية. ولا تُعدّ هذه الإمكانية تخيلية تماماً؛ فقد حدثت عدداً من المرات، وقد وضعت، في كل مرة حدثت فيها، جميع أولئك الذين يتبنون، كقاعدة أساسية لعقيدتهم السياسية، مبدأ أغلبية الحكم أو صورة شبيهة بمبدأ السيادة، في وضع عقلي ميتوس منه. . فللمبدأ الذي تبنيه، من جهة، بأن يعارضوا أي مبدأ آخر عدا أغلبية الحكم، ومن ثم الطغيان الجديد؛ ويطالبهم نفس المبدأ، من جهة أخرى، بأن يقبلوا أي قرار يتم التوصل إليه عن طريق الأغلبية، ومن ثم حكم الطاغية الجديد. وبالطبع، سيؤدي هذا التناقض في نظرياتهم إلى شلّهم التام عن الحركة.

وديموقراطيون الذين يطالبون برقابة دستورية على الحكام من قبل المحكومين، وخصوصاً حق عزل الحكومة إذا صوتت أغلبية على ذلك، إنما ينبغي لهذا السبب أن يؤسسوا مطالبهم هذه على أسس أفضل من نظرية سيادة متناقضة مع ذاتها. (ولسوف نبين باختصار أن هذا ممكن في القسم الثاني من هذا الفصل. .)

ولقد رأينا أن أفلاطون، اقترب من اكتشاف محاليات الحرية والديموقراطية. بيد أن أفلاطون وأتباعه أغفلوا أن كل الصور الأخرى لنظرية السيادة إنما يتج عنها تناقضات مماثلة. . إن كل نظريات السيادة تعتبر متناقضة. فقد نتخب، على سبيل المثال، الحاكم "الأكثر حكمة" أو "الأفضل" بيد أن "الأكثر حكمة" قد يجد بحكمته أنه ليس هو الذي ينبغي عليه أن يحكم، وإنما الذي ينبغي عليه أن يحكم هو "الأفضل". وربما يقرر "الأفضل" بسخائه وجوده أن الذي ينبغي عليه أن يحكم هو "الأغلبية". ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه حتى هذه الصورة من نظرية السيادة والتي تطالب "بسيادة القانون" إنما تواجه نفس الاعتراض. وهذا مفهوم، في الواقع، منذ أقدم العصور، كما تبين ملاحظة هيراقليطس: "يمكن أن يطالب القانون، أيضاً، بضرورة أن تُطاع إرادة رجل واحد."

ويمكن للمرء، فيما اعتقد، أن يقرر، إجمالاً لهذا النقد المختصر، أن نظرية السيادة في موقف ضعيف، من الناحيتين الإمبيريقية والمنطقية معاً، وأقل ما يمكن المطالبة به هو أنه لا ينبغي تبنيها دون تأمل دقيق للإمكانيات الأخرى.

2

وليس من العسير حقاً، أن نبين أنه يمكن تطوير نظرية للرقابة الديموقراطية دون الوقوع في محالية السيادة. إذ لا تتطرق النظرية التي تدور بخلفي، كما كان الحال من قبل، من مذهب الجودة أو الاستقامة الناتين لحكم الأغلبية، وإنما بالأحرى من الاستناد إلى الطغيان؛ أو بدقة أكثر، إنها تركز إلى القرار، أو إلى تبني الاقتراح، وتجنب الطغيان ومقاومته.

ذلك أنه يمكن التمييز بين نوعين رئيسيين من الحكومة. يتألف النوع الأول من حكومات يمكننا أن نتخلص منها دون إراقة للدماء - حتى عن طريق، مثلاً، انتخابات عامة، فيقال، إن المؤسسات الاجتماعية تنتج وسائل يمكن بها التخلص من الحكام عن طريق المحكومين، وأن تكفل التقاليد الاجتماعية أن هذه المؤسسات لن تتحطم ببساطة من قبل أولئك الذين في يدهم السلطة. ويتألف النوع الثاني من حكومات لا يمكن للمحكومين أن يتخلصوا منها إلا

بشورة ناجحة، وذلك في معظم الحالات وليس في كلها. واقترح أن يوضع مصطلح "ديموقراطية" كعنوان مختزل، على الحكومة من النوع الأول، ومصطلح "طغيان" أو "ديكتاتورية" على النوع الثاني. وينطبق هذا إلى حد كبير، فيما اعتقد، على الاستخدام التقليدي. بيد أنني أود أن أوضح أن لا شيء من حجتي يعتمد على اختيار هذه العناوين، فإذا أراد شخص أن يعكس هذا الاستخدام (كما يحدث كثيراً في أيامنا هذه)، عليّ أن أقول ببساطة إنني مع ما يسميه "طغياناً" وضد ما يسميه "ديموقراطية"؛ كما يتعين عليّ أن أتبدل، باعتبار أن ذلك غير ملائم، أي محاولة لكشف ما تعنيه "ديموقراطية" بصورة "حقيقية" أو "جوهرية" عن طريق، مثلاً، ترجمة المصطلح "حكم الشعب". (لأنه على الرغم من أن "الشعب" قد يؤثر على أفعال حكامه بالتهديد بالعزل، إلا أنه لن يحكم نفسه أبداً بأي معنى عيني، عملي).

قلو استخدمنا العناوين كما هو مقترح، لكان في مقدورنا الآن أن نصف المقترح الذي يدعو إلى خلق وتطوير، وحماية المؤسسات السياسية من أجل تجنب الطغيان، بأنه مبدأ السياسة الديمقراطية. ولا يعني هذا المبدأ أنه يمكن تطوير مؤسسات من هذا النوع على الإطلاق بلا عيب أو خطأ، أو تضمن أن السياسات المتبناة من قبل حكومة ديمقراطية ستكون على صواب أو صالحة أو حكيمة - أو حتى أفضل أو أحكم بالضرورة من السياسات المتبناة من قبل طاغية محب للخير. (ولأن مثل هذه التأكيدات ليست مطروحة، فيمكن تجنب محالية الديمقراطية.) ومع ذلك، فما يمكن أن يكون متضمناً في تبني المبدأ الديمقراطي هو الاعتقاد الراسخ بأن الرضى حتى بسياسة رديئة في ظل مجتمع ديمقراطي (طالما كان في مقدورنا أن نعمل على التغيير السلمي) أفضل من الخضوع لطيغان، مهما كان حكيماً أو محباً للخير. وفي ضوء هذا، لا تستند النظرية الديمقراطية إلى مبدأ الحكم للأغلبية، وإنما بالأحرى اعتبار أن النظم المتعددة التي تدعو إلى المساواة في مجال الرقابة الديمقراطية، وذلك مثل الانتخابات العامة والحكومة النيابية، ليست سوى دفاعات مؤسسية مختبرة جيداً ومؤثرة بشكل معقول ضد الطغيان، في إطار تقليد واسع الانتشار بعلم الثقة في النظم التي تمارس الطغيان. كما أن هذه الدفاعات قابلة للتحسين بل هي تزودنا بطرق تحسينها هذا.

وذلك الذي يقبل بالمبدأ الديمقراطي بهذا المعنى يصبح غير مضطر إلى النظر إلى نتائج الاقتراع الديمقراطي على أنها تعبير سيادي عما هو صحيح. وعلى الرغم من أنه سيقبل بقرار الأغلبية، لكي يجعل المؤسسات الديمقراطية تؤدي عملها، إلا أنه يشعر بأنه حر في معارضته بأساليب ديمقراطية، وفي السعي نحو مراجعته. وإذا عاش ليرى ذلك اليوم الذي يدمر فيه اقتراع

الأغلبية المؤسسات الديمقراطية، فإن هذه التجربة الحزبية ستخبره فقط بأنه لا توجد طريقة مضمونة لتجنب الطغيان. بيد أن ذلك لن يضعف قراره بضرورة مقاومة الطغيان، أو يظهر نظريته في صورة متناقضة.

3

وبعودتنا إلى أفلاطون، سنكتشف أنه بتأكيد على مشكلة "من الذي يحكم"، يفترض ضمناً النظرية العامة للسيادة. أما مسألة الرقابة المؤسساتية على الحكام، والتوازن المؤسساتي بين سلطاتهم، فقد استبعدت، لهذا السبب، دون أن تُثار على الإطلاق. ولقد تحول الاهتمام من المؤسسات إلى المسائل التي تخص الأفراد، وتضحي المشكلة الأكثر إلحاحاً الآن هي مشكلة اختيار القادة الطبيعيين، ومشكلة إعدادهم لتولي القيادة.

وبالنظر إلى هذه الحقيقة يعتقد بعض الناس أن رفاهية الدولة، في نظرية أفلاطون، تُعدُّ مسألة أخلاقية وروحية في نهاية الأمر، وأنها تستند إلى أشخاص وإلى مسؤولية شخصية أكثر من استنادها إلى تشييد مؤسسات غير شخصية. وإنني لأعتقد أن هذه النظرة للترعة الأفلاطونية تُعدُّ نظرة سطحية. إذ أن جميع الأمور السياسية طويلة الأجل تعتبر مؤسساتية. ولا مهرب من ذلك، ولا حتى بالنسبة إلى أفلاطون. فمبدأ القيادة لا يُحلُّ مشكلات ذات طابع شخصي محل مشكلات ذات طابع مؤسساتي، وإنما استحدث فقط مشكلات مؤسساتية جديدة. بل إنه، كما سنرى، يحمل المؤسسات عبء القيام بمهمة تتعدى ما يمكن أن يكون مطلوباً بصورة معقولة من مجرد مؤسسة، أعني، مهمة اختيار قادة المستقبل. لذا قد يكون من الخطأ الاعتقاد بأن التعارض بين نظرية التوازنات ونظرية السيادة إنما يتناظر ذلك التعارض الذي يقوم بين نزعة مؤسساتية وأخرى شخصية. ومبدأ القيادة عند أفلاطون بعيد كل البعد عن تبني نزعة شخصية خالصة، لأنه يتضمن أداء المؤسسات، وربما يُقال حقاً أن وجود نزعة شخصية خالصة أمر مستحيل. بيد أنه ينبغي أن يُقال إن وجود نزعة دستورية خالصة أمر مستحيل أيضاً. حيث إن تشييد المؤسسات لا يتضمن فحسب قرارات شخصية هامة، بل إن توظيف حتى أفضل المؤسسات (مثل ألوان الضبط والتوازنات الديمقراطية) سيقى على الدوام معتمداً، إلى حد كبير، على الأشخاص الذين يتولون أمرها. فالمؤسسات شبيهة بالقلاع، يتوجب أن يُراعى حسن تصميمها وتجهيزها بالرجال.

وغالباً ما تُغفل مسألة التمييز بين العنصر الشخصي والعنصر المؤسساتي في موقف اجتماعي من قبل منتقدي الديمقراطية، لأنهم وجدوا أن هذه المؤسسات لا تمتنع بالضرورة دولة أو نظاماً سياسياً من أن يخرق بعض المعايير الأخلاقية أو بعض المطالب السياسية التي ربما تكون ملحة بل

وممتازة. يد أن هذه الانتقادات تخطئ في توجيه هجومها؛ فهي لا تدرك ما قد يُتوقع من المؤسسات الديمقراطية أن تفعله، وما عسى أن يكون بديلاً عن المؤسسات الديمقراطية. فالديموقراطية (مُستخدماً هذا النعت بالمعنى المقترح عالياً) إنما تقدم إطاراً مؤسساتياً لإصلاح المؤسسات السياسية. وهي تتيح إصلاح المؤسسات بدون استخدام العنف، وبالتالي باستخدام العقل في تصميم مؤسسات جديدة أو تعديل أخرى قديمة. وهي لا يمكن أن تقدم تعليلاً. إذ أن مسألة المستوى الثقافي والأخلاقي لمواطنيها تعد مشكلة شخصية بدرجة كبيرة. (واعتقد أن الفكرة التي تذهب إلى أن هذه المشكلة يمكن الإمساك بها، تبعاً، عن طريق إجراء تحسينات مؤسساتية وضبط تعليمي، فكرة مخطئة؛ وسوف أذكر فيما بعد بعض مبررات اعتقادي هذا). من الخطأ اليقن أن نلوم الديمقراطية بسبب عيوب سياسية لدولة ديمقراطية. وإنما ينبغي، بدلاً من ذلك، أن نلوم أنفسنا، أو بعبارة أخرى، أن نلوم مواطني الدولة الديمقراطية. ففي دولة غير ديمقراطية، تكون الوسيلة الوحيدة لإنجاز إصلاحات معقولة، استخدام العنف لإسقاط الحكومة، وإدخال إطار ديمقراطي. وأولئك الذين يتفقون الديمقراطية على أي أرضية "أخلاقية" يخفقون في التمييز بين مشكلات شخصية وأخرى مؤسساتية. وإصلاح الوضع هو من مسؤوليتنا. إن المؤسسات الديمقراطية لا يمكن أن تطور نفسها إلى الأفضل، وإنما تعود مسألة التطوير هذه دائماً إلى الأشخاص أكثر منها إلى المؤسسات. ولكن إذا أردنا إدخال تحسينات، فعلياً أن نوضح أي المؤسسات نرغب في تحسينها.

وثمة تمييز آخر في نطاق المشكلات السياسية يناظر ذلك الذي يكون بين أشخاص ومؤسسات. إنه ذلك الذي يكون بين مشكلات اليوم ومشكلات المستقبل. ففي حين تكون مشكلات اليوم ذات طابع شخصي إلى حد كبير، يتعين أن يكون بناء المستقبل ذا طابع مؤسساتي بالضرورة. فلو كان مدخلنا إلى حل المشكلة السياسية هو بالسؤال "من الذي يحكم"، ولو كنا نتبنى مبدأ القيادة عند أفلاطون - وهو المبدأ الذي يقرر أن الأفضل هو الذي ينبغي أن يحكم - إذن فإن مشكلة المستقبل ينبغي أن تأخذ صورة تصميم مؤسسات من أجل اختيار قادة المستقبل.

وهذه واحدة من أكثر المشكلات أهمية في نظرية التربية عند أفلاطون. ولن أتردد في مداخلة عنها أن أقول إن أفلاطون أفسد وأربك بشدة نظرية وممارسة التربية بربطها بنظريته في القيادة. والضرر الناتج أقدم من ذلك الذي وقع على علم الأخلاق بالمطابقة بين الجماعية والإيثار، وعلى النظرية السياسية بإدخال مبدأ السيادة. ولا يزال فرض أفلاطون بأنه يتعين أن تكون مهمة التربية (أو بدقة أكثر، مهمة المؤسسات التعليمية) هي أن تختار قادة المستقبل، وأن تُدرّبهم على القيادة، هو الادّعاء المسلّم به على نطاق واسع حتى يومنا هذا. ويتحمّل هذه المؤسسات بأعباء تتعدى

نطاق أي مؤسسة، يكون أفلاطون مسؤولاً جزئياً عن حالتها البائسة. ولكن قبل الدخول في مناقشة عامة لوجهة نظره المتعلقة بمهمة التعليم، أودُّ أن أعرض بتفصيل أكثر، نظريته في القيادة: القيادة للحكيم.

4

أعتقد أن من المرجَّح أكثر أن تكون نظرية أفلاطون هذه مدينة في عدد من عناصرها إلى تأثير سقراط. وإتني لعلني قناعة بأن أحد معتقدات سقراط الأساسية كانت عقلانيته الأخلاقية. ولعلَّني بهذا استتج (أ) مماثلته بين الجودة والحكمة، أي نظريته التي تذهب إلى أنه لا يوجد شخص يتصرف ضد معرفته الأفضل، وبأن الاقتدار إلى المعرفة مسؤول عن كل الأخطاء الأخلاقية، (ب) نظريته بأن التمييز الأخلاقي يمكن تعليمه، وأنه لا يتطلب أية استعدادات خلقية خاصة فيما عدا الذكاء الإنساني العام.

كان سقراط أخلاقياً ومفعماً بالحماسة. وكان نموذجاً للرجل الذي يتخذ أية صورة من صور الحكم بسبب عيوبه (وفي الواقع، فإن مثل هذا النقد يكون ضرورياً وناقماً بالنسبة لأي حكم، على الرغم من أنه يكون ممكناً فقط تحت مظلة حكم ديمقراطي). بيد أنه أقرَّ بأهمية الولاء لقوانين الدولة. وكما تصادف فقد أمضى معظم حياته تحت شكل من أشكال الحكم الديمقراطي، وكديموقراطي صالح وجد أن من واجبه أن يفضح عدم أهلية وإدعاء بعض القادة الديموقراطيين في عصره. وقد عارض، في نفس الوقت، أي شكل من أشكال الطغيان؛ ولو أخذنا في الاعتبار سلوكه الشجاع تحت حكم الطغاة الثلاثين لن تكون لدينا حجة لافتراض أن انتقاده للقيادة الديموقراطية كان مدفوعاً بأي ميول معارضة للديموقراطية. ومن المرجح أنه طالب (مثله في ذلك مثل أفلاطون) بأن الأفضل ينبغي أن يحكم، والذي قد يعني، من وجهة نظره، الأكثر حكمة، أو أولئك الذين قد عرفوا شيئاً ما من العدالة. ولكن يتعين علينا أن نتذكر أنه عني بالعدالة عدالة المساواة (كما أشارت إلى ذلك صفحات مقبلة من محاوره جورجياس في الفصل الأخير)، وأنه لم يكن ذو نزعة مساواتية فحسب، وإنما كان أيضاً ذو نزعة فردانية - وربما الرسول الأعظم لعلم الأخلاق ذي النزعة الفردية لكل عصر. ولعلَّنا ندرك أنه، إذا كان قد طالب بأن على الرجال الأكثر حكمة أن يحكموا، فقد شدَّد بوضوح على أنه لم يقصد من ذلك الرجال المتعلمين، فقد كان، في الواقع، نزاعاً إلى الشك في كل علم احترافي، سواء كان ذلك في الماضي، أو علم الرجال المتعلمين في جيله، السوفسطائيين. . . وإنما كانت الحكمة التي قصدتها من نوع مختلف. كانت ببساطة إدراك؛ ما أقل ما أعرفه! فقد علمنا، أن أولئك الذين لم يعرفوا هذا، فهم لم يعرفوا شيئاً على الإطلاق. . . (وهذه هي الروح العلمية الحقة. ولا يزال يعتقد بعض الناس، كما اعتقد أفلاطون

عندما نصب نفسه حكيماً عالماً بالفيثاغورية، أنه يتعين تفسير اتجاه سقراط اللأدري بالافتقار إلى نجاح علم عصره. بيد أن هذا إنما يبين فحسب أنهم لا يفهمون هذه الروح، وأنهم لا يزالون خاضعين للاتجاه السحري قبل السقراطي تجاه العلم، وتجاه العالم الذي يعتبرونه نوعاً من الكاهن الممجّد الحكيم، المتعلم، المطلع. . . إنهم يحكمون عليه بكم المعرفة التي في حوزته بدلاً من اتخاذ إدراكه لما لا يعرفه كمقياس لمستواه العلمي، وأمانته العقلية معاً كما ذهب إلى ذلك سقراط.)

ومن الأهمية بمكان، أن نفهم أن العقلانية السقراطية هذه تعدّ مساواتية بلا جدال. لقد اعتقد سقراط أن كل شخص قادر على التعلّم، ففي محاوره مينون، نراه يعلم عبداً صغيراً ترجمة ما نسميه الآن مبرهنة فيثاغورس، في محاولة للبرهان على أن أيّ عبد غير متعلم لديه القدرة على أن يفهم حتى المسائل المجردة. كما أن عقلانيته ضدّ النزعة السلطوية أيضاً. . . فوفقاً لسقراط ربما يمكن تعليم إحدى المهارات، مثلاً الخطابة، بطريقة دوغماطيقية بواسطة خبير. . . بيد أن الحكمة، والمعرفة الحقة، والفضيلة أيضاً يمكن تعليمهم فقط بطريقة يصفها بأنها صورة من صور فن التوليد. ويمكن مساعدة أولئك المتلهفين إلى التعلّم على تحرير أنفسهم من أفكارهم المسبقة. . . فيمكنهم تعلّم التقدير الذاتي، وأن الحقيقة لا يمكن بلوغها بسهولة. . . ولكن عليهم أيضاً أن يتعلموا كيف يقررون ويركتون، بصورة نقدية، إلى قراراتهم وإلى بصيرتهم. وبالنظر إلى تعليم مثل هذا، يتضح كم يختلف المطلب السقراطي (إذا كان قد أثار هذا المطلب في وقت ما) الذي يدعو إلى أن الأفضل، أعني المستقيم عقلياً ينبغي أن يحكم، عن المطلب السلطوي الذي يدعو إلى أن المتعلم أكثر، أو عن المطلب الأرستقراطي الذي يدعو إلى أن الأفضل، أي، النبيل أكثر، يتعين أن يحكم. (ويمكن تفسير اعتقاد "سقراط" بأنه حتى الشجاعة حكمة، على أنه نقد مباشر للعقيدة الأرستقراطية للبطل الذي ولد نبلاً. . .)

بيد أن عقلانية سقراط الأخلاقية هذه سلاح ذو حدين. حيث إن لها مظهرها المساواتي والديموقراطي الذي كان قد طوره أثنستين فيما بعد. بيد أن لها أيضاً مظهر قد تنشأ عنه اتجاهات قوية معارضة للديموقراطية. . . حيث إن تشديدها على الحاجة إلى الاستشارة، والتعليم، قد يُساء فهمها ببساطة على أنها مطلب لنزعة سلطوية. وهذا مرتبط بمسألة يبدو أنها قد حيرت سقراط كثيراً؛ وهي مسألة أن أولئك الذين لم ينالوا قسطاً وافياً من التربية، وهم بالتالي ليسوا حكماء بدرجة كافية ليعرفوا نواقصهم، هم الذين في أمسّ الحاجة إلى التربية. فالاستعداد للتربية يبرهن في حد ذاته على امتلاك الحكمة، وفي الواقع، كل الحكمة التي إدّعاها سقراط لنفسه. إذ أن من يكون على استعداد للتعلّم، يعرف أن ما يعرفه هو أقلّ القليل. أما من لم يحصل على تربية، فإنه يبدو في حاجة إلى سلطة توقظه، حيث لا يتوقع منه أن يكون ناقداً لذاته. بيد أن هذا العنصر الواحد للنزعة السلطوية كان متوازناً بصورة مذهشة في تعليم سقراط عن طريق التأكيد على أن

السلطة لا ينبغي أن تطالب بأكثر من ذلك. إذ يمكن للمعلم الحق أن يشبّه لذاته فقط عن طريق عرض ذلك النقد الذاتي الذي يفترض إليه غير المتعلم "أية سلطة في حوزتي إنما ترجع فقط إلى معرفتي أن ما أعرفه قليل". ؛ هذه هي الوسيلة التي قد يكون سقراط برّ بها رسالته لإيقاظ الناس من سباتهم الدجماطيقي. إن هذه الرسالة التعليمية التي آمن بها هي أيضاً رسالة سياسية، فقد أحسّ بأن الوسيلة التي بها تتحقّق الحياة السياسية للمدينة هي أن تعلّم المواطنين أن يتقنوا أنفسهم. وبهذا المعنى إدعى أنه "السياسي الوحيد لعصره"، وعلى التقيض من أولئك الآخرين الذين يملقون الناس بدلاً من تأييد مصالحهم الحقّة.

ولقد أمكن ببساطة أن تشوّه هذه المماثلة السقراطية للنشاط التعليمي والسياسي في المطلب الأفلاطوني والأرسطي بأنه يتعيّن على الدولة أن تولي عنايتها بالحياة الخلّقيّة لمواطنيها. كما يمكن أن تستخدم ببساطة لبرهان مقنع محضوف بالمخاطر بأن كل رقابة ديموقراطية إنما هي فاسدة أخلاقياً. لأنه كيف يتسنى لأولئك الذين يتّاط بهم مهمة التعليم أن يحكموا من قبل غير المتعلمين؟ كيف يتسنى أن يُراقب الأفضل من قبل الأقل منه مرتبة؟ بيد أن هذه الحجة تعد، بالطبع، غير سقراطية على الإطلاق. فهي تفترض سلطة للحكيم وللرجل المتعلم، وتغضي أبعد كثيراً من فكرة سقراط المتواضعة المتعلقة بسلطة المعلم، بوصفها مؤسسة فقط على وعيه بحدوده الخاصة. إن سلطة الدولة في هذه المسائل عرضة لأن تبلغ هدفها، وهو في الواقع، على التقيض التام من هدف سقراط. إنها عرضة لأن تشيع جوا من الرضى الذاتي الدجماطيقي، ومن الغرور العقلي الواسع بدلاً من عدم الرضى ذي الطابع النقدي والتطلع نحو التحسين. ولا أعتقد أنه من الضروري التشديد على هذا الخطر الذي نادراً ما يتحقق بوضوح... فحتى مؤلف مثل كروسمان الذي فهم، فيما أعتقد، الروح السقراطية الحقّة، يتفق مع أفلاطون فيما يسميه نقد أفلاطون الثالث للأثينين؛ "فالتربية التي يجب أن تكون مسؤولية الدولة الرئيسية، قد تُركت إلى التروّة الفردية... وهذه مرة أخرى مهمة كان يجب أن يؤتمن عليها فقط رجل معروف بالاستقامة. إن مستقبل أي دولة إنما يستند على الجيل الأصغر، ولذلك فمن الجنون أن تترك عقول الأطفال ليشكلها النوق الفردي، وقوة الظروف. ولقد سببت سياسة عدم تدخل الدولة كارثة مماثلة فيما يتعلّق بالمعلمين ونُظّار المدارس والمحاضرين السوفسطائيين...". بيد أن سياسة عدم تدخل الدولة الأثينية، التي انتقدها كلا من كروسمان وأفلاطون، كان لها نتيجة لا تُقدّر بثمن من حيث تمكين محاضرين معينين من السوفسطائيين من ممارسة التعليم، وعلى رأسهم أعظمهم جميعاً، سقراط. وعندما سقطت هذه السياسة فيما بعد، كانت النتيجة موت سقراط. وينبغي أن يكون هذا تنبيهاً بأن رقابة الدولة في مثل هذه الأمور يُعدّ خطيراً، وأن النداء من أجل "رجل الاستقامة الحق" قد يؤدّي ببساطة إلى إلغاء الأفضل. (وبعدُ الإلغاء الحالي لبرتراند رسل حالة لصيقة الصلة

بالموضوع.) ولكن فيما يتعلق بالمبادئ الأساسية، لدينا هنا مثال عن فكرة مسبقة ضاربة جذورها أن السبيل الوحيد لسياسة عدم التدخل* هو مسؤولية الدولة الكاملة... وإني لعلني قناعة بالتأكد بأن مسؤولية الدولة أن ترى مواطنيها يتلقون تربية تمكّنهم من المشاركة في حياة المجتمع، ومن الاستفادة من أية فرصة لتنمية مصالحهم الخاصة وموابعهم؛ كما يتعين على الدولة بالتأكيد أن تفهم (كما يشدد كروسمان بحق) أن عدم قدرة الفرد على الدفع لا ينبغي أن تحرمه من الدراسات العليا. وهذا يخص، فيما أعتمد، وظائف الدولة الحمائية. ومع ذلك فالقول إن "مستقبل الدولة إنما يعتمد على الجيل الأصغر، وأنه لأجل ذلك من الجنون أن نسمح لعقول الاطفال أن تتشكل وفقاً للذوق الفردي"، يبدو لي أنه يفتح باباً واسعاً إلى الشمولية. إذ لا ينبغي أن نستشهد باستخفاف بمصلحة الدولة كي ندافع عن تدابير قد تعرض للخطر أكثر أشكال الحرية قيمة، ألا وهي الحرية الفكرية. وعلى الرغم من أنني لا أدافع عن "سياسة عدم التدخل فيما يتعلق بالمعلمين ونظائر المدارس"، إلا أنني أعتمد بأن هذه السياسة أهم بما لا يقاس لسياسة ديكتاتورية تعطي موظفي الدولة كامل القوة لتشكيل العقول، ولمراقبة تدريس العلوم، وهي بذلك تساند السلطة المربية للخير بسلطة الدولة، مخربة العلم بالممارسة المعتادة لتدريسه بوصفه عقيدة سلطوية، ومحطمة الروح العلمية للبحث، روح البحث عن الحقيقة، كمقابل للاعتقاد في ملكيتها (أي الحقيقة).

ولقد حاولت أن أبين أن عقلانية سقراط كانت ذات نزعة مساواتية وفردانية أساساً، وأن عنصر الشمولية المتضمنة فيها كان قد اختزل إلى أدنى حد بتواضع سقراط الفكري واتجاهه العلمي. أما عقلانية أفلاطون فهي تختلف عنها أشد الاختلاف. حيث إن "سقراط" الأفلاطوني في الجمهورية هو تجسيد للنزعة السلطوية الكاملة. (فحتى ملاحظته التي تنقص من قدر نفسه لم تستد إلى معرفة ينوحي القصور فيه، وإنما بالأحرى إلى طريقة تهكمية لتقرير تفوقه.) لم يكن هدفه التربوي إيقاظ ملكة النقد الذاتي على وجه العموم. وإنما هو بالأحرى، تلقين - تشكيل العقول والأرواح التي (وأكرر اقتباساً من القوانين) "تضحي بطول العادة، غير قادرة تماماً على فعل أي شيء باستقلالية".

وفكرة سقراط العظيمة عن المساواة والتحرر أنه من الممكن الجدل مع العبد، وأن هناك ربطاً عقلياً بين الرجل والرجل، وسيلة كونية للفهم المتبادل، أقصد "العقل"، هذه الفكرة قد استبدلت بمطلب الاحتمار التربوي للطبقة الحاكمة مقترناً بأشد أنواع الرقابة إحكاماً، حتى على المناقشات الشفهية.

* وخصوصاً عدم تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية إلا بمقدار ما يكون ذلك التدخل ضرورياً لصيانة الأمن وحقوق الملكية الشخصية. (الترجم)

ولقد شدد سقراط على أنه لم يكن في حوزته الحقيقة، وإنما على أنه كان مُتَقَبِّلاً، وباحثاً، ومحِبّاً للحقيقة. ولقد تمَّ التعبير عن هذا، كما أوضحه، باللفظ "فيلسوف"، أي، المحب للحكمة، والباحث عنها، كمقابل لـ "السوفسطائي"، أي الرجل الحكيم مهتياً. ولو أنه إدعى في أي وقت أنه يتعَيَّن على رجال الدولة أن يكونوا فلاسفة، لكان قد عَنَى بذلك فقط أن، يُلقى عليهم بمسؤولية زائدة، ألا وهي أن يكونوا باحثين عن الحقيقة، وواعين بحدودهم.

كيف اهتدى أفلاطون إلى هذا المذهب؟ يبدو، من الوهلة الأولى، أنه لم يعدك على الإطلاق، عندما طالب بأن تؤول سلطة الدولة إلى الفلاسفة، وخصوصاً لأنه عرّف الفلاسفة، مثله في ذلك مثل سقراط، بأنهم محبون للحقيقة. بيد أن التغير الذي أحدثه أفلاطون يُعَدُّ في الحقيقة مروعاً. فمحبه لم يعد الباحث الأكثر تواضعاً، وإنما هو المالك المتخترس للحقيقة. فالمجادل الملترب، هو القادر على الحدس العقلي، أعني على الرؤية، والاتصال بالصور أو المثل السماوية الخالدة. والذي يحتل مكانة عالية فوق البشر العاديين جميعاً، هو "شبيه بإله؛ إن لم يكن... مقدساً"، في كل من حكمته وقوته. إذ أن فيلسوف أفلاطون المثالي يقترب من كلية العلم وكلية القدرة معاً. إنه الفيلسوف - الملك. ومن الصعوبة بمكان، فيما اعتقد، أن نتصور تعارضاً أكبر من ذلك الذي بين المثال السقراطي والأفلاطوني للفيلسوف. إنه التعارض بين عالمين - عالم التواضع المتفرد العقلاني، وعالم الشمولي نصف الإله.

ويشير مطلب أفلاطون الذي يدعو إلى أن الرجل الحكيم، مالك الحقيقة، يجب أن يحكم، "الفيلسوف المؤهل تماماً" - يشير في الواقع مشكلة اختيار وتربية الحكام. وقد يمكن أن تحل هذه المشكلة ببساطة، وفقاً لنظرية شخصية خالصة (كمقابل لنظرية مؤسساتية) عن طريق إعلان أن الحاكم الحكيم سيكون في حكمته حكيماً بالقدر الكافي كي يختار الرجل الأفضل لخلافته. ومع ذلك، لن يكون هذا مدخلاً مرضياً تماماً للمشكلة... فالكثير جداً سيعتمد على ظروف يتعذر التحكم فيها، فقد يحطم حادث في المستقبل إستقرار الدولة. ولكن يجب أن تؤدي محاولة التحكم في الظروف، والتنبؤ بما قد يحدث، والاستعداد له، إلى استبعاد الحل الشخصي الخالص، وأن نستبدل به حلاً مؤسساتياً... وكما ذكر بالفعل، ينبغي دائماً أن تقود محاولة التخطيط للمستقبل إلى التزعة المؤسساتية.

5

ويمكن أن توصف المؤسسة التي يتعَيَّن أن نعني بقيادة المستقبل بأنها الإدارة التعليمية للدولة. فهي المؤسسة الأكثر أهمية بكثير، من وجهة نظر سياسية خالصة، في مجتمع أفلاطون... إنها

تمسك بمفاتيح القوة... ولهذا السبب وحده يتعين أن يكون واضحاً أن المراتب الأعلى للتربية على الأقل يجب أن تخضع للتحكم المباشر من قبل الحكام. ولكن ثمة أسباب أخرى إضافية لذلك. أهمها، كما يقول كروسمان، أن "الخير فقط و... الرجل الذي اختبرت أمانته"، وهما اللذان من وجهة نظر أفلاطون يعينان فقط الخبير الأكثر حكمة، أي الحكام أنفسهم، يمكن أن توكل إليهم عن ثقة مهمة الإعداد النهائي لحكماء المستقبل بإدخالهم في الأسرار العليا للحكمة. ويتحقق ذلك قبل كل شيء بالنسبة للجدل، أي فن الحُدى العقلي، وتصور الأصول الالهية، والصور أو المثل، وكشف النقاب عن السر الأعظم الذي يكمن خلف ظواهر الحياة اليومية للإنسان العادي.

فما هي مطالب أفلاطون المؤسسية فيما يتعلق بهذه الصورة العليا من التربية؟ إنها حقاً مذهلة. فهو يطالب بأن يقبل فقط هؤلاء الذين تخطوا المراحل الأولى من العمر. "عندما تبدأ قوتهم الجسدية في الأقول، وعندما يكونون فوق عمر السواجبات العامة والعسكرية، حيثئذ، فقط حيثئذ، ينبغي أن يُسمح لهم أن يدخلوا ساحة يشاءون المجال المقدس... أي، مجال الدراسات الجدلية العليا. وتعليل أفلاطون لهذه القاعدة المدهشة واضح بشكل كافٍ فهو يخشى قوة الفكر: "كل الأشياء العظيمة خطيرة". إنها الملاحظة التي بها يدخل العقيدة بأنه يخشى من تأثير الفكر الفلسفي الذي قد يُمارس على العقول التي ليست على شفا العمر المتقدم في السن. (وهو يضع ذلك على لسان سقراط، الذي مات دفاعاً عن حقه في المناقشة الحرة مع الأصغر سناً.) ولكن هذا هو بالضبط ما ينبغي أن نتوقعه إذا تذكرنا أن هدف أفلاطون الأساسي كان إيقاف التغيير السياسي. وفي شبابهم سيقا تل أعضاء الطبقة العليا، أما عندما يطعنون في السن بحيث لا يمكنهم التفكير باستقلالية، فإنهم سيتحولون إلى طلاب ديمقراطيين يتشربون الحكمة والسلطة لكي يصبحوا بدورهم حكماء، وليسلموا حكمتهم ومذهب الجماعة والشمولية إلى أجيال المستقبل.

ومن المثير أن أفلاطون، في فقرة تالية وأكثر إحكاماً، تحاول أن ترسم الحكام في أنصع صورة، يعدل اقتراحه. فهو يسمح الآن لحكماء المستقبل أن يبدأوا دراساتهم الجدلية الاعدادية في سن الثلاثين، مشدداً بالطبع على "الحاجة إلى الحذر الشديد"، وأخطار "التمرد أو العصيان الذي يفسد العديد من الجدليين"، وهو يطالب بأن "يتحلَّى أولئك الذين قد يسمح لهم باستخدام الحجج بخصال "الانضباط والاتزان". ويساعد هذا التغيير بالتأكيد على تحسين الصورة... بيد أن الاتجاه الأساسي لم يتغير... ذلك لأننا نسمع، عند متابعة هذه الفقرة، أن قادة المستقبل لا ينبغي أن يبدأوا في الدراسات الفلسفية العليا - في الرؤية الجدلية لجوهر الخير - قبل أن يصلوا، بعد مرورهم بالعديد من الاختبارات والاعراضات، إلى سن الخمسين..

هذه هي تعاليم الجمهورية. ويبدو أن محاوره بارمنيدس تشتمل على رسالة مشابهة، لأن سقراط هنا يوصف بأنه رجل شاب ألمعي وضع نفسه في مأزق خطير بعد أن عمل بنجاح على سبيل الهواية بالفلسفة الخالصة، عندما طُلب منه أن يقدم تعليلاً لمشكلات نظرية المثل الأكثر دقة. وقد طرده بارمنيدس العجوز معاتباً إياه عتاباً رقيقاً بأنه يجب عليه أن يدرب نفسه ببراعة أكثر على فن التفكير المجرد قبل أن يغامر مرة أخرى بالدخول في مجال الدراسات الفلسفية العليا. ويبدو كما لو أننا قد تلقينا هنا (ضمن أشياء أخرى) إجابة أفلاطون - "فحتى سقراط كان فيما مضى صغيراً جداً على فن الجدل." - لتلاميذه الذين أزعجوه من بداية اعتبارها مبتسرة. فما هو السبب الذي جعل أفلاطون لا يرغب في أن يكون لقادته روح المبادرة أو الأصالة؟ الإجابة، فيما اعتقد، واضحة. إنه يكره التغير ولا يريد أن يفهم أن تصحيح الأوضاع قد يصبح ضرورياً... بيد أن هذا التفسير لانهجاء أفلاطون لا يمضي بعيداً بدرجة كافية، فنحن نواجه هنا، في الواقع، بصعوبة أساسية لمبدأ القائد. فالفكرة الحقيقية لاختيار أو تعليم قادة المستقبل متناقضة ذاتياً. وقد يمكنك حل المشكلة، وإلى درجة ما، في مجال التفوق الجسدي. إذ ربما لا نواجه صعوبة في التحقق من اللياقة البدنية أو الشجاعة الجسدية. ولكن سر التفوق العقلي هو روح النقد، إنه الاستقلال العقلي. ويؤدي هذا إلى صعوبات ينبغي أن نبرهن على أنها لا يمكن تذليلها بالنسبة لأي نوع من أنواع النزعة السلطوية. فالسلطوي سيختار عموماً أولئك الذين يطيعونه، ويصدقونه، ويستجيبون لتأثيره. ولكن بفعله هذا يكون قد حصر نفسه في اختيار أشخاص متوسطي القدرة. لأنه يستبعد أولئك الذين يتمردون، ويتشككون، ويتجرأون على مقاومة تأثيره. فلا يمكن لسلطة أن تسمح أبداً بأن يكون الشجعان عقلياً، أي أولئك الذين يتجرأون على تحدي سلطتها، هم النموذج الأكثر قيمة. فلنوف تظل السلطات، بالطبع، مقتنعة دائماً بقدرتها على اكتشاف روح المبادأة. ولكن ما يعنونه بهذا هو فقط إدراك سريع لتوايهم، ولنسوف يظلون إلى الأبد غير قادرين على فهم الاختلاف. (وربما ندرك هنا سر الصعوبة الخاصة باختيار القادة العسكريين الأكفاء. إن مطالب النظام العسكري تضخم الصعوبات التي تناقش، بينما طرق التقدم العسكري تؤدي عادة إلى عزل هؤلاء الذين يتجرأون على التفكير لأنفسهم فيستبعدون عادة. فلا شيء أقل صحة، فيما يتعلق بالمبادأة العقلية، من الفكرة التي تدعو إلى أن أولئك الذين يكونون مخلصين في الطاعة سيكونون أيضاً مخلصين في القيادة. وتنشأ صعوبات مماثلة إلى حد بعيد في الأحزاب السياسية: "فالرجل المطيع" لقائد الحزب نادراً ما يكون الخليفة الكفؤ...).

ولعل الأمر يفضي بنا هنا، فيما اعتقد، إلى نتيجة على جانب ما من الأهمية، وإلى نتيجة أخرى يمكن تعميمها. إنه لمن الصعوبة بمكان تصميم مؤسسات من أجل اختيار البارزين. فقد يعمل الانتخاب المؤسسي بطريقة مرضية للغاية لتحقيق بعض تلك الأهداف التي كان أفلاطون قد

ذكرها، أي كبح التغيير. ولكنه لن يعمل أبداً بطريقة مرضية، إذا طلبنا أكثر من ذلك، فهو سيميل دائماً إلى استبعاد روح المبادرة والأصالة، ويتعميم أكثر، الكفاءات غير العادية وغير التقليدية. ولا يعدُّ هذا نقداً للترعة المؤسساتية السياسية، وإنما هو فقط يعيد تأكيد ما سبق أن قيل من أنه ينبغي علينا دائماً أن نهين أنفسنا لأسوأ القوادر، على الرغم من أننا نحاول، بالطبع، أن نحصل على أفضلهم. وكذلك يعد هذا نقداً للاتجاه الذي يسعى إلى إلقاء العبء على المؤسسات، وخصوصاً المؤسسات التربوية، بتكليفها بالمهمة المستحيلة لانتخاب الأفضل، ولا يجب أبداً أن يكون ذلك مهمتها. إذ يحول هذا الاتجاه نظامنا التربوي إلى مقرر عرقي ويتحول مقرر الدراسات إلى حاجز عرقي. فبدلاً من تشجيع الطالب على تكريس نفسه لدراساته من أجل التحصيل، وبدلاً من تشجيعه على الحب الحقيقي لموضوعه والبحث، فإننا نشجعه على الدراسة من أجل مستقبله الشخصي. ونقوده إلى أن يكتسب فقط تلك المعرفة التي تكون نافعة في اجتيازه للعقبات التي ينبغي أن يزيلها من أجل تقدمه. وبعبارة أخرى، حتى في مجال العلم، تكون مناهجتنا للانتخاب مستندة إلى مناشدة طموح شخصي ذي شكل فج إلى حد ما. (وهو رد فعل طبيعي لهذه المناشدة إذا كان الطالب التواق للعلم يُنظر إليه بارتياح من قبل زملائه.)

أما المطلب المستحيل للانتخاب المؤسساتي للقادة العقلانيين فيعرض للخطر ليس فقط مصير العلم، بل أيضاً الذكاء.

ولقد قيل بحق، أن أفلاطون كان المخترع لمدارسنا الثانوية، ولجامعاتنا. ولا أعرف الحجة الأفضل لوجهة نظر تفاؤلية للجنس البشري، ولا برهان أفضل لحبهم الجارف للحقيقة وآداب السلوك، ولأصالتهم وصلابتهم وصحتهم، من حقيقة أن هذا النظام التربوي المخرب لم يدمرهم تماماً. فعلى الرغم من خيانة العديد من قادتهم، يوجد فعلاً عدد، من الكبار والصغار، المهذبين والأذكياء، والمتكئين على أعمالهم. يقول صمويل بتر Samuel Butler: "إنني أتعجب أحياناً كيف كان ذلك العمل المزعج المرتكب غير محسوس بشكل أوضح، وأن الرجال والنساء، الشباب والشابات قد نشأوا حساسين وخيرين كما كانوا، على الرغم من المحاولات التي بذلت عن عمد لطمس وإعاقة نموهم. فالبعض تلقى الأذى دون ريب، مما نتج منه معاناتهم حتى نهاية حياتهم، ولكن الكثير منهم بنا صغيراً وليس أسوأ، أما البعض الآخر فكان الأفضل. ويرجع السبب في ذلك على ما يبدو إلى أن الغريزة الطبيعية للشبان في أغلب الأحوال قد تمردت بشكل مطلق ضد تدريبهم، وأنه مهما فعل المعلمون فلن يستطيعوا أبداً أن يرغموهم على الانتباه له."

وربما يشار هنا إلى أن أفلاطون، في الممارسة، لم يرهن على أنه ناجح تماماً بوصفه ناخباً للقادة السياسيين. إنني لا أقصد حقيقة النتيجة المخيبة للآمال لتجربته مع ديونيس الأصغر طاغية

سيراكوزا، بقدر ما أقصد مشاركة أكاديمية أفلاطون في حملة ديو Dio الناجحة ضد كاليوس Callipus الذي أضحى من أكثر رفاق ديو مدعاة للثقة. ويعد أن نصب ديو نفسه طاغية على سيراكوزا أمر يقتل هيراقليطس، حليفه (وربما منافسه). وبالاختصار بعد ذلك بقليل قُتل هو نفسه من قبل كاليوس الذي اغتصب عرش الطاغية، وفقدته بعد ثلاثة عشر شهرا (ولقد قُتل بدوره من قبل الفيلسوف الفيثاغوري ليتين Leptines). بيد أن هذه الحادثة لم تكن الأولى من نوعها في مهنة أفلاطون كمعلم... إذ نصب كليركس Clearchus، أحد أتباع أفلاطون وإيزوقراط نفسه طاغية على هيراقليا بعد تظاهره بأنه قائد ديموقراطي، ولقد قتله قريبه، كيون Chion، وهو عضو آخر في أكاديمية أفلاطون. (ولا يمكننا أن نعرف كيف تطورت أحوال كيون، الذي يصنفه البعض بأنه مثالي، لأنه سرعان ما قتل). إن هذه التجارب، وتجارب أخرى قليلة مماثلة لأفلاطون (الذي نياها بعد تسعة عشر طاغية على الأقل من بين تلاميذه وشركائه السابقين). إنما تلقي الضوء على الصعوبات الخاصة المرتبطة باختيار الرجال الذين يُقَلَّدون السلطة بقوة مطلقة. فمن الصعوبة بمكان أن نعر على رجل لن تتعرض شخصيته للفساد من جراء ذلك. وكما يقول اللورد أكتون - كل قوة تفسد، والقوة المطلقة تفسد على نحو مطلق.

بالاختصار، كان برنامج أفلاطون السياسي مؤسسي أكثر منه شخصاني، ولقد تمنى أن يوقف التغير السياسي، وكان على التحكم أن يكون تربوياً ومؤسسياً على نظرة سلطوية في التعليم - على سلطة الخبير الأكثر علماً و "الرجل المختبرة أمانته". " هذا هو ما فعله أفلاطون بمطلب سقراط بأن يكون السياسي المسؤول مجباً للحق وللحكمة أكثر من كونه خبيراً، وأنه يكون حكيماً فقط لو أنه عرف حدوده.

الفصل الثامن: الملك الفيلسوف

ولسوف تشيد الدولة التَّصَبُّبُ التذكارية . . . كي تحتفل بذكراهم،
ولسوف تقدّم لهم الأضحية كأنصاف آلهة، . . . كرجال منعمين بنعمة
إلهية، وأشباه آلهة.

أفلاطون

إن التعارض بين العقيدة الأفلاطونية والسقراطية أكبر مما قد يبيته حتى الآن. فلقد قلت إن أفلاطون تابع سقراط في تعريفه للفيلسوف. إذ نقرأ في الجمهورية: "على مَنْ نطلق اسم الفلاسفة الصادقين؟ - على أولئك الذين يحبون الصدق." كما نقرأ في الجمهورية أنه هو نفسه ليس صادقاً كل الصدق عندما يصوغ هذه العبارة. وهو لم يعتقد حقيقة فيها، لأنه يعلن بفظاظة في مواضع أخرى أن أحد الامتيازات الملكية للملك أن يفيد تمام الفائدة من استخدام الكذب والخداع: "فمن مهام حكام المدينة، قبل غيرهم، أن يقولوا الكذب، خادعين كلاً من أعدائهم ومواطنيهم على حد سواء من أجل مصلحة المدينة، ولا ينبغي لأي شخص أن يمس هذا الامتياز."

يقول أفلاطون "لمصلحة المدينة". ونجد مرة أخرى أن الاحتكام إلى مبدأ المنفعة الجمعية هو الاعتبار الأخلاقي النهائي. إذ تهيمن الأخلاق الاستبدادية على كل شيء، حتى على تعريف مثال الفيلسوف. ولا تكاد نكون في حاجة إلى ذكر أنه، عن طريق نفس مبدأ المنفعة السياسية، يُرغم المحكوم على قول الحقيقة. "قلو قبض الحاكم على أي شخص آخر بتهمة بالكذب . . . حيث سيعاقبه على إدخال عادة تؤذي سمعة المدينة وتعرضها للخطر. . . فقط بهذا المعنى غير المتوقع بعض الشيء، يكون الحكام الأفلاطونيون - الملوك الفلاسفة - محيين للحقيقة."

1

ويوضح أفلاطون تطبيق مبدأ هذا الخاص بالمنفعة الجمعية على مشكلة المصادقية بمثال

الطبيب . والمثال مختار بعناية ، لأن أفلاطون يحب أن يتصور رسالته السياسية على أنها المداوية أو المنقذة للجسد العليل للمجتمع . ويصرف النظر عن هذا ، فإن التداوي الذي يعزوه للدواء إنما يلقي الضوء على السمة الاستبدادية لمدينة أفلاطون ، حيث مصلحة الدولة تسيطر على حياة المواطن من المهد إلى اللحد . ويفسر أفلاطون الدواء بوصفه شكلاً من أشكال السياسة ، أو كما يعبر عن ذلك بنفسه ، أنه " ينظر إلى اسقيلبوس ، إله الطب ، بوصفه سياسياً . " فهو يوضح أن فن الطب لا يجب أن تكون مهمته إطالة الحياة ولكن فقط مصلحة الدولة . " في جميع المجتمعات المحكومة بطريقة ملائمة ، يكون لكل رجل عمله الخاص المحدد له في الدولة . وهذا ما ينبغي عليه أن يفعله ، وليس لدى المرء الوقت الذي يتفق فيه حياته في الوقوع فريسة المرض وتلقي العلاج . وبناء على ذلك " " ليس من حق الطبيب أن يهر على صحة رجل لا يمكنه أن يؤدي واجباته العادية ؛ لأن مثل هذا الرجل عديم النفع لنفسه وللدولة . " ويضاف إلى هذا اعتبار أن مثل هذا الرجل قد يكون له " أطفال من المحتمل أن يكونوا مرضى بالمثل . " ومن الممكن أن يصبحوا أيضاً عبثاً على الدولة . (إن أفلاطون ، في عمره المتقدم ، يذكر الطب بمزاج شخصي أكثر ، على الرغم من بغضه المتزايد للترعة الفردية . فهو يشكو الطبيب الذي يتعامل حتى مع المواطنين الأحرار كما لو كانوا عبيداً ، " مصدراً أوامره كطاغية ، إرادته بمثابة قانون ، ويندفع بعندته نحو المريض - العبد التالي " ، وهو يدعو إلى معاملة طيبة أكثر تهذيباً وصبراً ، على الأقل ، بالنسبة إلى أولئك الذين ليسوا عبيداً) . وفيما يتعلق بحق استعمال الكذب والخداع ينبئ أفلاطون إلى أن هذا " نافع كطب فقط " ، بيد أن حاكم الدولة ، كما يشدد أفلاطون ، لا يتعين عليه أن يتصرف مثل بعض أولئك " الأطباء العاديين " الذين ليس لديهم الشجاعة لأعطاء أدوية قوية . فالملك الفيلسوف ، المحب للحقيقة ، بوصفه فيلسوفاً ، يتعين عليه ، كملك ، أن يكون " رجلاً أكثر شجاعة " ، لأنه يتعين عليه أن يكون عازماً على " إعطاء المزيد والمزيد من الأكاذيب والخدع " ، ويسارع أفلاطون إلى إضافة " لمصلحة المحكوم " ، والذي يعني ، كما سبق أن عرفنا ، وكما علمنا هنا مرة أخرى من إشارة أفلاطون إلى الطب ، " لمصلحة الدولة " . (لاحظ كانط ذات مرة بروح مغايرة تماماً أن العبارة " المصادقية هي أفضل سياسة " فلا نزاع حولها) .

فما نوع الأكاذيب التي فكر فيها أفلاطون وهو يحض حكامه على استخدام دواء قوي؟ يؤكد كروسمان بحق أن أفلاطون يعني " الدعاية ، فن التحكم في سلوك . . . الغالبية العظمى من المحكومين . " ولقد فكر أفلاطون بالتأكيد في هذا أول الأمر ؛ ولكن عندما يقترح كروسمان أن المراد من أكاذيب الدعاية كان فقط الاستهلاك المحلي للمحكومين ، في حين يتعين على الحكام أن يكونوا أهل فكر مستيرين بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، فلا يمكنني عندئذ أن أوافقه على ذلك . وأعتقد ، بالأحرى ، أن قطع صلة أفلاطون الكاملة بأي شيء يمثل لعقلانية سقراط ليس

واضحاً في أي مكان أكثر من المكان الذي يعبر فيه مرتين عن أمله بأنه قد أمكن استمالة حتى الحكام أنفسهم، على الأقل بعد أجيال قليلة، من أن يؤمنوا بكذبه الدعائي الأعظم، أعني تمييزه العنصري، وخرافته المتعلقة بالدم والوطن، المعروفة بخرافة المعادن في الإنسان والمولودين في الأرض. ونرى هنا أن مبادئ أفلاطون النفعية والاستبدادية تهيمن على كل شيء، حتى على امتياز الحاكم بمعرفة الحقيقة ومطالبته بذكرها. والباعث على رغبة أفلاطون بأنه يتعين على الحكام أنفسهم أن يعتقدوا في الكذب الدعائي هو أمله في زيادة تأثيره المأمون، أي تقوية حكم العرق السيد*، وفي الأساس، كبح كل تغير مياسي.

2

ويقدم أفلاطون خرافته المتعلقة بالدم والوطن بتسليم قط بأنها احتيال. يقول سقراط في الجمهورية: "حسن إذن، هل في مقدورنا يأتري اختلاق إحدى الأكاذيب البسيطة التي ذكرناها بالفعل لتوثقنا؟ وإذا كنا محظوظين فإننا نستطيع بكذبة واحدة كبيرة إقناع حتى الحكام أنفسهم - ولكن بلا شك بقية المدينة." ومن المهم أن نلاحظ استخدام اللفظ "يقنع". أن نقنع شخصاً ما بالاعتقاد في كذبه يعني، بإحكام أكثر، أن نضلّله أو نخدعه، وقد يكون من المناسب أكثر للتهكمية الصريحة للفقرة أن نترجم "يمكننا إذا كنا محظوظين، أن نخدع حتى الحكام أنفسهم". ولكن أفلاطون يستخدم اللفظ "إقناع" كثيراً جداً، وورودها هنا يلقي بعض الضوء على الفقرات الأخرى. وقد يكون من الضروري أن نحذر من امكانية وجود بعض الأكاذيب الدعائية في ذهن أفلاطون في فقرات مماثلة، ولا سيما حيث يدافع عن فكرته بأن رجل الدولة يجب أن يحكم "بوسيلتي الإقناع والقوة معاً".

وبعد إعلان "كذبه الكبير" يعرض أفلاطون، أولاً مقدمة مطولة تشبه إلى حد ما المقدمة المطولة التي تسبق اكتشافه للعدالة، وذلك بدلاً من الانتقال مباشرة إلى رواية أسطوره؛ وهذا مؤشر، فيما اعتقد، على شعوره بعدم الارتياح. فيبدو أنه لم يكن يتوقع من الاقتراح التالي أن يجد تعاطفاً كبيراً من قرائه. والأسطورة ذاتها تقدم فكرتين. الأولى هي أن تقوي الدفاع عن الوطن الأم؛ وهي الفكرة التي تدعو إلى أن يكون محاربو المدينة من أهلها "مولودين في أرض وطنهم" ومستعدين للدفاع عن بلدهم التي هي أهمهم. هذه الفكرة القديمة والمعروفة تماماً ليست بالتأكيد سبب تردد أفلاطون (على الرغم من أن صياغته تدفعنا إلى ذلك ببراعة) ومع ذلك

* شعب يزعم أنه متفوق عرقياً على غيره من الشعوب، وأنه بالتالي مؤهل لحكمها واستعبادها. (المترجم)

فالفكرة الثانية، أي "بقية القصة" هي أسطورة التمييز العنصري: "لقد وضع الله . . . الذهب في أولئك القادرين على الحكم، ووضع الفضة في المساعدين، والحديد والنحاس في الفلاحين والطبقات المنتجة الأخرى." وهذه المعادن وراثية، ومن ثم فهي خصائص عنصرية. وفي هذه الفقرة التي يدخل فيها أفلاطون بتردد ولأول مرة تمييزه العنصري، يسمح بإمكانية أن يولد أطفال باختلاط معدن آخر يختلف عن معادن ذويهم، ويجب الاعتراف بأنه هنا إنما يعلن القاعدة التالية: "إذا ولد الأبطال في إحدى الطبقات الأدنى، بخليط من الذهب والفضة فإنهم سيوظفون حراساً، و . . . مساعدين." بيد أنه يلغي هذا التنازل في فقرات لاحقة من الجمهورية (وأيضاً من القوانين)، وبصفة خاصة في قصة سقوط الإنسان وفي قصة العدد. والتي أشرنا إليهما جزئياً في الفصل الخامس عليه. وتعلم من هذه الفقرة أنه يتعين أن يستبعد أي خليط من أحد المعادن الدنيا من الطبقات العليا. ولذلك فإن إمكانية الخليط والتغيرات المتأخرة في المترلة أو المرتبة إنما تعني فقط الأطفال المولودين في طبقة النبلاء، ولكن من بهم تخلف يجب أن يدفعوا إلى أسفل، لا أن يُرفع أي من المولودين في الطبقات الدنيا إلى أعلى. والطريقة التي يؤدي بها أي خلط للمعادن إلى الدمار موصوفة في ختام فقرة قصة سقوط الإنسان: "ولسوف يمتزج الحديد بالفضة، والبرونز بالذهب، ولسوف يولد من هذا الاختلاط التنوع وعدم الانتظام المناقي للعقل؛ وعندما يولد هؤلاء سينجبون الصراع والعداء. وهذه هي الكيفية التي ينبغي أن نصف بها سلسلة النسب وميلاد النزاع أينما نشأ." إن هذا هو المدخل الذي ينبغي أن ننظر من خلاله إلى انتهاء أسطورة المولودين في الأرض بنبوءة تهكمية لآخر خيالي "إن المدينة يجب أن تهلك عندما يكون حارسها الحديد والنحاس".

وأعتقد أن امتناع أفلاطون عن التصريح بعنصريته مباشرة في أكثر صورها تطرفاً، يشير إلى أنه كان يعلم كم كان ذلك سيكون متعارضاً مع الاتجاهات الديموقراطية والإنسانية في عصره.

وإذا اعتبرنا أن تسليم أفلاطون الأعمى بأن أسطوريته المتعلقة بالدم والوطن كانت أكذوبة دعائية، حيث يمثّل موقف المعلقين من الأسطورة لغزاً محيراً إلى حد ما. إذ يكتب آدم على سبيل المثال: "بدونها، سيكون التخطيط الحالي للمدينة غير مكتمل. فنحن نحتاج إلى بعض الضمانات لبقاء المدينة دوماً . . . ؛ وما من شيء يساعدنا على مساندة الأخلاقيات والروح الدينية السائدة في تربية أفلاطون أكثر من اكتشافه أن الضمان هو في الإيمان أكثر منه في العقل". ولعلني أوافق (على الرغم من أن هذا ليس ما يعنيه آدم تماماً) على أنه ما من شيء يساعدنا على مساندة الأخلاقيات الشمولية لأفلاطون أكثر من دفاعه عن الأكاذيب الدعائية. ولكتني لا أفهم تماماً كيف يمكن للمعلق الديني والمثالي أن يعلن، ضمناً، أن الدين والإيمان يكونان على مستوى الكذب الانتهازي. لأن تعليق آدم، في واقع الأمر، يذكرنا بترعة هوبز العرفية، بوجهة النظر

التي تقرّر أن معتقدات الدين، رغم أنها غير صحيحة، إلا أنها أكثر الوسائل السياسية نفعا ولا غنى عنها. ويبين لنا هذا الاعتبار أن أفلاطون، كان، في النهاية، عرقيا أكثر مما يمكن أن يعتقده المرء. إنه حتى لا يتورّع عن تأسيس إيمان ديني بـ "العرف" (ويتعيّن علينا أن نقلّره على الصراحة التي اعترف بها أن ذلك مجرد اختلاق). بينما بروتاغوراس العرفي الشهير كان يعتقد على الأقل أن القوانين، التي هي من صنعنا، قد صيغت بمعاونة إلهام إلهي. ومن الصعوبة بمكان أن نفهم لماذا يخفق أولئك المعلقين على أفلاطون - الذين أثّروا عليه في حربه ضد عرقية السوفسطائيين المدمّرة، ولتأسيسه نزعة طبيعية روحية مستندة في نهاية الأمر إلى الدين - في استهجانه لجعل العرف، أو بالأحرى الاختلاق، الأساس النهائي للدين. ففي الواقع، أن موقف أفلاطون من الدين، كما يتضح من "كذبة الملهم" يطابق عملياً موقف كريتياس، عمه المحبب إلى نفسه، والقائد اللامع للمطغاة الثلاثين الذين أسسوا النظام الدموي المخزي في أثينا بعد الحرب البلوبونيزية. فلقد كان كريتياس، الشاعر، أول من مجّد الأكاذيب الدعائية، التي ابتدعها والتي وصفها في أبيات قوية ممتدحا الرجل الحكيم والبارع الذي ابتدع الدين، لكي "يقنع" الناس، أي يتوعدهم للدخول في الطاعة.

"وحيتذ، حضرَ فيما يبدو، ذلكَ الرجلُ الحكيمُ البارِعُ،

المخترعُ الأولُ للخوفِ من الآلهةِ ..

وحاكّ من نسيجِ خياله قصةً، مذهباً، هو الأكثرُ من نوعه إغراءً،

حاجباً الحقيقةَ بأستارٍ من المعرفةِ الكاذبةِ.

فأنبأنا بمقرّ الآلهةِ المرهوبةِ،

فوقَ، في الأقيّةِ الزرقاءِ الدوّارةِ، التي منها تُدَوّي الرعودُ،

وتتوهجُ أضواءُ البرقِ المخيفةِ، تبهّرُ العيونَ ...

وهكذا فإنّه يطوّقُ الرجالَ بقيودٍ من الخوفِ، يحيطهمُ بآلهةٍ في مقاماتٍ طليقةٍ،

ويتعاونيذِهِ سبيَ عقولهم، وثبّطَ عزيمتهم

وتحوّلتِ الفوضى إلى قانونٍ ونظامٍ .

فالدين، في رأي كريتياس، ليس سوى فرية كبرى لرجل دولة عظيم وذكي. وآراء أفلاطون تشبه ذلك تماماً بصورة ملفقة للنظر، في كل من مقدمة الأسطورة في الجمهورية (حيث يعترف

بمحافظة أن الأسطورة فرية) وفي القوانين حيث يقول إن تنصيب الطقوس والآلهة يعد "مادة خصبة لفكر عظيم". ولكن هل هذه هي كل الحقيقة عن موقف أفلاطون الديني؟ وهل كان مجرد انتهازي في هذا المجال؟ وهل كانت الروح المختلفة تماماً في أعماله الأولى مجرد إحياءات سقراطية؟ ليس ثمة وسيلة بالطبع لحسم هذه المسألة بيقين، على الرغم من أنني أشعر، حدساً، أنه قد يكون ثمة شعور ديني حقيقي أكثر يظهر أحياناً في الأعمال المتأخرة. بيد أنني أعتقد أنه حيثما تطرّق أفلاطون إلى الأمور الدينية في علاقتها بالسياسة، فإن انتهازيته السياسية تزيح كل المشاعر الأخرى جانباً. وهكذا يطالب أفلاطون، في القوانين بتوقيع أشد عقوبة حتى على الأشراف أو الوجهاء، إذا ما انحرفت آراؤهم المتعلقة بالآلهة عن تلك التي قررتها الدولة. فيجب أن تُحاكم أرواحهم أمام مجلس ليلى من المحققين، وإذا لم ينكروا، أو إذا كرروا الإساءة، فإن تهمة الكفر تعني الموت. فهل نسي أن سقراط كان قد سقط ضحية لهذه التهمة ذاتها؟.

ولقد أشار أفلاطون في مذهبه الديني المركزي إلى أن الملهم لهذه المطالب هو بصفة رئيسية مصلحة الدولة أكثر منه الاهتمام بالإيمان الديني ذاته.

فهو يعلمنا في القوانين، أن الآلهة تعاقب بشدة كل أولئك الذين على الجانب الخاطئ في الصراع بين الخير والشر. وهو صراع يُفسّر على أنه بين النزعة الجمعية والنزعة الفردية. وهو يصر على أن الآلهة، تولي اهتماماً إيجابياً بالإنسان، فهي ليست متفرجة سلبية. كما أن من المستحيل استرضائها، فلا الابتهالات ولا الأضحية بقادرة على زحزحتها قيد أنملة عن فرض العقاب. والمصلحة السياسية خلف هذه التعاليم واضحة، بل إنها وضحت أكثر في مطلب أفلاطون بأنه يجب على الدولة أن تحظر كل شك في أي جزء من هذه العقيدة الدينية - السياسية، وعلى وجه الخصوص في عقيدة أن الآلهة لا تمتنع أبداً عن العقاب.

وبالطبع، فإن انتهازية أفلاطون ونظريته في الكذب تجعلان من الصعوبة بمكان أن نؤوّل ما يقوله. فإلى أي مدى كان يؤمن بنظريته في العدالة؟ وهل هو نفسه قد كان ملحدًا، على الرغم من مطلبه عقاب الملحدين الآخرين (الأقل شأنًا)؟ على الرغم من أننا لا يمكن أن نأمل في العثور على إجابة شافية عن أي من هذه الأسئلة، إلا أنه من الصعوبة بمكان، فيما أعتقد، ومن غير السليم منهجياً إلاّ نفسير الشك لصالحه، وخصوصاً أنه لا يمكن الشك، فيما أعتقد، في الاخلاص المبدئي لمعتقد أنه ثمة حاجة ماسة إلى كبح كل تغير. (ولسوف أعود إلى هذا في الفصل العاشر). ولا يمكننا أن نشك، من جهة أخرى، في أن أفلاطون إنما يخضع للحب السقراطي للحقيقة، وهو المبدأ الأكثر أهمية الذي يدعو إلى تقوية حكم طبقة الأمياد.

ومع ذلك، من الأهمية بمكان، أن نلاحظ أن نظرية الحقيقة عند أفلاطون تُعدُّ أقل تطرفاً بعض

الشيء من نظريته في العدالة. فالعدالة، كما رأينا، تُعرَّف، عملياً، بوصفها تلك التي تخدم دولته المستقبلية. ولقد كان من الممكن، بالطبع، أن يعرف مفهوم الحقيقة بنفس الطريقة النفعية أو البراجماتية. فلقد كان في مقدور أفلاطون أن يقول إن الأسطورة حقيقية، لأن أي شيء يخدم مصلحة دولتي يتعين تصديقه، ومن ثم يتعين أن يُنعت بأنه "حقيقي"؛ ولا ينبغي أن يكون ثمة معيار آخر للحقيقة.

ولقد اتخذت، في النظرية، خطوة مماثلة بالفعل من قبل أتباع هيجل البراجماتيين، كما اتخذت، في الممارسة، من قبل هيجل نفسه وأتباعه العنصريين. بيد أن أفلاطون بروح سقراطية اعترف بصراحة أنه كان كاذباً. والخطوة التي اتخذت من قبل مدرسة هيجل لم تكن لتخطر أبداً، فيما اعتقد، على بال أي من رفاق سقراط.

3

ونكتفي بهذا القدر عن الدور الذي لعبته فكرة الحقيقة في مدينة أفلاطون الفاضلة. ولكن بعيداً عن العدالة والحقيقة، لا زال علينا أن نفحص بعض الأفكار الإضافية مثل الخير، والجمال، والسعادة، إذا كنا راغبين في أن نزيل الاعتراضات التي أُثِّرت في الفصل السادس، على تأويلنا لبرنامج أفلاطون السياسي بأنه شمولي صرف، وبأنه مستند إلى نزعة تاريخانية. ويمكن أن يُصاغ مدخل لمناقشة هذه الأفكار، وأيضاً فكرة الحكمة، التي كانت قد نوقشت جزئياً في الفصل السابق، بالنظر في النتيجة السلبية إلى حد ما التي توصلنا إليها من مناقشتنا لفكرة الحقيقة. لأن هذه النتيجة تثير مشكلة جديدة: لماذا يطالب أفلاطون بأنه يجب على الفلاسفة أن يكونوا ملوكاً، أو على الملوك أن يكونوا فلاسفة، إذا كان يعرف الفيلسوف بأنه محب للحقيقة، مصرّاً، من جهة أخرى، على أنه يتعين على الملك أن يكون "شجاعاً أكثر" وأن يتعين بالكذب؟.

الإجابة الوحيدة على هذا السؤال هي، بالطبع، أن أفلاطون يعني، في الواقع، شيئاً مختلفاً تماماً عندما يستخدم اللفظ "فيلسوف". ولقد رأينا، حقاً، في الفصل السابق أن فيلسوفه ليس الباحث المخلص عن الحكمة، بل المالك المتخطرس لها. فهو رجل متعلم، عاقل، ولذلك، فما يطالب به أفلاطون هو حكم الطبقة المتعلمة - السوفوقراسية *sophocracy*، لو جاز لي أن أستخدم هذا التعبير. ولكي يتسنى لنا فهم مطلبه هذا، يتعين علينا أن نحاول العثور على نوع الوظائف التي تفري حاكم مدينة أفلاطون أن يكون مالكا للمعرفة، أو "فيلسوفاً مؤهلاً تمام التأهيل" كما يقول أفلاطون. ويمكن تقسيم الوظائف محل النظر إلى مجموعتين رئيسيتين، أعني تلك المرتبطة بتأسيس الدولة، وتلك المرتبطة بالحفاظ عليها.

أولى الوظائف وأكثرها أهمية للملك الفيلسوف هي أنه المنشئ والمشرع للمدينة. ولعله يكون واضحاً لماذا يحتاج أفلاطون فيلسوفا لهذه المهمة. فحتى تكون الدولة مستقرة، ينبغي أن تكون نسخة طبق الأصل للصورة أو المثال المقدس للدولة. بيد أن الفيلسوف وحده هو الخاذق كلية في أرقى العلوم، وفي الجدل، وهو القادر على أن يرى، وعلى أن يستجيع الأصل المقدس. وتلقى هذه النقطة الكثير من الاهتمام في ذلك الجزء من الجمهورية الذي يعرض فيه أفلاطون حججه عن سيادة الفلاسفة. فالفلاسفة "يحبون أن يروا الحقيقة"، والمحِب الصادق يجب دائماً أن يرى الكل، وليس مجرد الأجزاء. وهكذا فهو لا يحب، كما يفعل الناس العاديون، الأشياء المدسوسة "أصواتها وألوانها وأشكالها الجميلة"، وإنما هو يريد "أن يرى"، وأن يبدي إعجابه بالطبيعة الحقّة للجمال" - صورة أو مثال الجمال. وبهذه الطريقة يعطي أفلاطون للمصطلح فيلسوف معنى جديداً، بأنه المحِبُّ والرائي للعالم المقدس، للصور والمثل. فالفيلسوف، في حد ذاته، هو الرجل الذي قد يصبح المؤسس للمدينة الفاضلة: "والفيلسوف الذي يتأشى إلى الإلهي المقدس قد يغمره الحافز لتحقيق رؤياه السماوية"، للمدينة المثالية، ولمواطنيه المثاليين. فهو مثل المخطط أو الرسام الذي "يتخذ من الإلهي نموذجاً له" فالفلاسفة الحقيقيون وحدهم هم الذين يمكنهم "وضع التصميم الأساسي للمدينة"، لأنهم وحدهم الذين يمكنهم أن يروا الأصل، وأن ينسخوه، "بجعل أعينهم تطوف ذهاباً وإياباً، من النموذج إلى الصورة، والعودة من الصورة إلى النموذج".

ومثل الرسام يجب أن يتلقى الفيلسوف العون من نور الخير والحكمة. وسوف نضيف ملاحظات قليلة لهاتين الفكرتين وعن دلالتهما بالنسبة للفيلسوف في وظيفته كمؤسس للمدينة.

ومثال أفلاطون للخير هو الأعلى في مرتبة الصور. إنه شمس العالم السماوي للصور أو المثل، الذي لا يسكب النور على كل الأعضاء الآخرين فحسب، وإنما هو المصدر الأول لوجودها. وهو أيضاً المصدر أو السبب لكل معرفة ولكل حقيقة. وهكذا فلا غنى للجنتلي عن قوة رؤية، وتقدير، ومعرفة الخير. ولأنه الشمس ومصدر الضوء في عالم الصور، فإنه يمكن الفيلسوف - الرسام من أن يدرك أجسامه. ولذلك فإن وظيفته هي الأكثر أهمية بالنسبة لمؤسس المدينة. بيد أن هذه المعلومة الصورية الخالصة هي كل ما يحصل عليه. إذ لا يلعب مثال أفلاطون للخير في أي مكان دوراً أخلاقياً أو سياسياً مباشراً أكثر، ولم نسمع أبداً أي المآثر تكون خيرة، أو تتج الخير بصرف النظر عن مجموعة المبادئ الأخلاقية الجمعية المعروفة جيداً التي أدخلت تعاليمها دون استعانة بمثال الخير. ولا تثرى معلوماتنا الملاحظات التي تقرّر أن الخير هو الغاية، وأنه مرغوب من كل إنسان. ولاتزال هذه الصعوبة الفارغة ملحوظة أكثر في محاوره فيلوبوس حيث

يعرّف الخير بمثال "الاعتدال" أو "الوسط". وعندما أقرأ التقرير الذي يقول إن أفلاطون، في محاضراته الشهيرة "في الخير"، خيَّب أمل المستمع غير المتعلّم بتعريفه الخير "كقمة المحدد المدرك بوصفه وحدة"، فإن تعاطفي حيثئذ يكون مع المستمع. ويقول أفلاطون بصراحة في الجمهورية أنه لا يستطيع أن يفسّر ما يعنيه بـ "الخير". والاقتراح العملي الوحيد الذي نحصل عليه دائماً هو المشار إليه في بداية الفصل الرابع - بأن الخير هو كل شيء يصون، والشر هو كل شيء يؤدي إلى الفساد أو الانحطاط. (ومع ذلك لا يبدو أن "الخير" هنا هو مثال الخير، وإنما هو بالأحرى خاصية للأشياء التي يجعلها تشبه المثل). وبناء على ذلك، الخير هو حالة الأشياء غير المتغيرة، المكبوتة، إنها حالة الأشياء الساكنة.

ولا يبدو أن هذا يحملنا بعيداً عن نزعة أفلاطون الشمولية، ويؤدي تحليل أفلاطون لـ "مثال الحكمة" إلى نتائج مخيبة للآمال بالمثل. فالحكمة، كما رأينا، لا تعني بالنسبة لأفلاطون التبصر السقراطي بالحدود الخاصة بالمرء، كما لا تعني ما قد يتوقّعه معظمنا، من اهتمام ودود وتفهم مفيد، للإنسانية والشؤون الإنسانية. فرجال أفلاطون الحكماء مشغولون بالبال إلى حد كبير بمشكلات العالم العلوي، "ليس لديهم الوقت كي يتدنوا وينظروا في شؤون الناس...، إنهم يتطلّعون ويحكمون قبضتهم على كل ماهو مرتّب وعلى كل ماهو مقاس". إنه نوع التربية الصحيح الذي يجعل الرجل حكيماً: "فالطبايع الفلسفية محبة لذلك النوع من التعلم الذي يكشف لها الحقيقة، حقيقة أبدية لا تشغل بمسائل التشوّ والانعطاط". ولا يبدو أن معالجة أفلاطون للحكمة يمكن أن تحملنا أبعد من مثال كبح التغير.

5

على الرغم من أن تحليل وظائف مؤسس المدينة لم يكشف عن أي عناصر أخلاقية جديدة في مذهب أفلاطون، فإنه قد يبيّن أن ثمة تعليلاً محدداً عن داعي أن يكون مؤسس الدولة فيلسوفاً. بيد أن هذا لا يرر تماماً المطلب الذي يدعو إلى السيادة الدائمة للفيلسوف. وإنما هو يوضح فحسب لماذا يجب أن يكون الفيلسوف المشرّع الأول، ولكنه لا يوضح لماذا نحتاج إليه كحاكم دائم، لاسيما أن لا أحد من الحكام التاليين يجب أن يُدخل أي تغيير. ومن أجل تبرير كامل للمطلب الذي يدعو إلى أن الفلاسفة يجب أن يحكموا، يلزم أن نتقل إلى تحليل المهام المرتبطة بالحفاظ على المدينة.

لعلنا نعلم من نظريات أفلاطون الاجتماعية أن الدولة متى تأسست ستظل مستقرة طالما لم يحدث انشقاق في وحدة الطبقة المسيطرة. لذلك، فإن تربية تلك الطبقة هي الوظيفة الحافظة

الكبرى للسيادة، وهي الوظيفة التي يتعين أن تبقى طالما بقيت الدولة، فإلى أي مدى تبرر مطلب أنه يجب على الفيلسوف أن يكون حاكماً؟ لكي نجيب على هذا السؤال، علينا أن نعيّر مرة أخرى، في هذه الوظيفة، بين نشاطين مختلفين: الإشراف على التعليم، والإشراف على تحسين النسل.

فلماذا يتعين أن يكون مدير التربية فيلسوفاً؟ ولماذا لا يكفي، متى تأسست الدولة ونظامها التربوي، أن نعين جنراً محنكاً، ملكاً - جندياً للإشراف عليها؟ من الواضح أن الإجابة التي تقرر أن النظام التربوي يجب أن يخرج لنا ليس فقط جنداً بل وفلاسفة، وهو بالتالي يحتاج إلى جند يشرفون عليه، غير مرضية؛ لأنه لو لم يكن ثمة حاجة إلى الفلاسفة كمدرّاء للتربية وكحكام دائمين، لما كانت لنا حاجة في نظام تعليمي لتخريج فلاسفة جدد. إذ أن متطلبات النظام التربوي لا تستطيع أن تبرر في حد ذاتها الحاجة إلى فلاسفة في دولة أفلاطون، أو الفرض بأن الحكام يجب أن يكونوا فلاسفة. ولسوف يكون هذا مختلفاً، بالطبع، لو كان لدى تربية أفلاطون هدفاً فردانياً، بقطع النظر عن هدفه خدمة مصالح الدولة، أن يكون الهدف، مثلاً، هو تطوير المؤهلات الفلسفية من أجل مصلحتها الخاصة. ولكن عندما نرى، كما رأينا في الفصل السابق، كم كان أفلاطون مرتعياً من السماح بالفكر المستقل؛ وعندما نرى الآن أن الهدف النظري النهائي لهذا التعليم الفلسفي كان مجرد "معرفة مثال الخير" العاجزة عن إعطاء سبب واضح لهذا المثال، حيث نبدأ في إدراك أن هذا لا يمكن أن يكون التفسير. ويقوى هذا الانطباع إذا تذكرنا الفصل الرابع، حيث إننا رأينا أن أفلاطون طالب أيضاً بقيود في التربية "الموسيقية" الأثينية. وينبغي أن تُفسر الأهمية الكبرى التي يعلّقها أفلاطون على التعليم الفلسفي للحكام بأسباب أخرى - بأسباب يتعين أن تكون سياسية محضة.

والسبب الرئيسي الذي يمكن أن أراه هو إزدیاد الحاجة إلى أقصى حد لسلطة الحكام. فلو كان تعليم المساعدين موظفاً بصورة مناسبة، فلسوف يكون ثمة الكثير من الجند الصالحين. ومن ثم قد لا تكون المؤهلات العسكرية البارزة كافية لتأسيس سلطة لا يمكن تحديها وغير قابلة للتحدي. وينبغي أن يكون هذا مستنداً إلى إدعاءات أعلى. فيستند أفلاطون إلى إدعاءات القوى الخارقة للطبيعة الأسطورية التي ينميها في قواده. فهم ليسوا مثل الناس الآخرين - إنهم يتمتعون إلى عالم آخر، إنهم يتصلون بالسماء. وهكذا يبدو أن الملك الفيلسوف هو، جزئياً، نسخة من ملك - كاهن قبلي، من المؤسسة التي قد أشرنا إليها في معرض حديثنا عن هيراقليطس. (ويبدو أن مؤسسة الملوك - الكهنة القبليين أو رجال الطب أو الشامانيين*، لها تأثير على الطائفة الفيثاغورية القديمة بمحرماتها القبيلة الساذجة بصورة تدعو إلى الدهشة. ويبدو أن معظم تلك المحرمات كانت

* الكهنة الذين يعالجون المرضى بالسكر. (المترجم)

قد أسقطت من قبل أفلاطون. ولكن ظلّ إدعاء الفيثاغوريين بأماس سلطتهم الفائقة للطبيعة (باقياً). وهكذا فإن التربية الفلسفية لأفلاطون لديها وظيفة سياسية محددة. إنها تضع علامة على الحكام وتقيم حاجزاً بين الحكام والمحكومين. (ولقد ظنّت هذه هي الوظيفة الرئيسية للتربية "العليا" حتى عصرنا هذا). ولقد اكتسبت الحكمة الأفلاطونية على نطاق واسع من أجل ترسيخ طبقة سياسية حاكمة مستقرة، يمكن أن توصف بأنها "طب" سياسي، مانحة قوى أسطورية للملكية، رجال الطب.

يبد أن هذه لا يمكن أن تكون الإجابة الكاملة عن سؤالنا المتعلق بوظائف الفيلسوف في الدولة. وإنما تعني، بالأحرى، أن السؤال عن سبب الاحتياج إلى فيلسوف قد تغير فقط، وأنا مستضطر الآن إلى إثارة سؤال مماثل عن الوظائف السياسية العملية للشامان أو لرجل الطب، وربما قد يكون لدى أفلاطون هدف محدد ما عندما صمم تدريبه الفلسفي المتخصص، ويتعين علينا أن نبحث عن وظيفة دائمة للحاكم، عاتلة للوظيفة الوقتية للمشرع، ويبدو أن الأمل الوحيد في اكتشاف مثل هذه الوظيفة موجود في مجال تحسين نسل الجنس المسيطر.

6

إن أفضل طريقة لاكتشاف لماذا نحتاج إلى فيلسوف حاكم بصفة دائمة، هي أن نسأل السؤال: ماذا يحدث، وفقاً لأفلاطون، لدولة لا تُحكم بصفة دائمة من قبل فيلسوف؟ ولقد قدّم أفلاطون إجابة واضحة لهذا السؤال. إذا كان حراس المدينة، حتى مدينة بالغة الكمال، جاهلين بمجموعة المعارف والتقاليد الفيثاغورية وبالعدد الأفلاطوني، فإن سلامة الحراس يجب أن تتدهور ومعها الدولة.

وكما أن العدد الأفلاطوني العرقي أو الزواجي يزودنا بإطار لعلم اجتماعه الوصفي، وهو الإطار الذي يؤطر به فلسفته للتاريخ (كما يقول آدم)، فإنه أيضاً يضع إطاراً لمطلب أفلاطون السياسي الذي يدعو إلى سيادة الفلاسفة. وعندما قيل في الفصل الرابع عن الجذور الاجتماعية والسياسية لرعاة أو مربّي سلالات القطيع في مدينة أفلاطون، ربما تكون مستعدين تماماً لأن تكشف أن ملكه إنما هو ملكٌ مربّي. ولكن ربما لا يزال من المدهش إلى حد ما أن ينتهي الأمر بفيلسوفه أن يكون مربياً فلسفياً. إذ لم تكن الحاجة إلى التربية العلمية، والرياضية - الديالكتيكية، والفلسفية أقل من الحجج القائمة خلف الادعاء بسيادة الفلاسفة.

ولقد تبين من الفصل الرابع إلى أي حد كان التشديد على، والتوسع في مشكلة الحصول على

نل تقي لكلاّب الحراسة البشريين، وذلك في الأجزاء الأولى من الجمهورية. بيد أننا لم نصادف حتى الآن أي سبب معقول عن لماذا يتعيّن أن يكون الفيلسوف الأصل والمؤهل تماماً هو وحده المربيّ الحاذق والسياسي الناجح. ومع ذلك، فكما يعرف كل مُربٍّ لسلالات الكلاب أو الخيل أو الطيور أن تحسين التسل بطريقة عقلانية مستحيل بدون نموذج، أو هدف يرشده في مجهوداته، أو مثال يحاول الاقتراب منه بوسائل التزاوج والانتقاء. وبدون معيار مثل هذا، لن يستطيع أن يتحدث عن الفرق بين "ذرية جيدة" و"ذرية رديئة". بيد أن هذا المعيار نفسه ينطبق تماماً على المثال الأفلاطوني للجنس الذي يعترم تربية سلالاته.

فكما يستطيع الفيلسوف الحق وحده أي الجدلي، أن يرى، وفقاً لأفلاطون، الأصل السماوي للمدينة، فإن الديالكتيكي وحده هو الذي يستطيع أن يرى ذلك الأصل السماوي الآخر - صورة أو مثال الإنسان. وهو القادر وحده على استنساخ هذا النموذج، على إنزاله من السماء إلى الأرض، وعلى تحقيقه هنا. إنه مثال ملوكي، مثال الإنسان هنا. وهو لا يمثل، كما اعتقد البعض، ما هو مشترك بين كل الناس؛ كما أنه ليس تصوراً كونياً لـ "الإنسان". وإنما هو، بالأحرى، الأصل الإلهي للإنسان، الإنسان الخارق غير المتغير؛ وهو إغريقي خارق، ومسيد خارق. ويتعيّن على الفيلسوف محاولة أن يحقق على الأرض ما يصفه أفلاطون بجنس الرجال "الأكثر ثباتاً، والأكثر رجولة، وفي حدود الامكانيات، الأجل تكوينا...؛ المولودين في طبقة النبلاء، ومن شخصية مرهوبة - ملهمة." هذا هو جنس الرجال والنساء "أشباه الآلهة، إن لم يكونوا آلهة... أشبه بتمائيل في غاية الجمال" - جنس جليل، مقدّر له بالطبيعة أن يتملّك ويسود.

ولعلنا نرى أن الوظيفتين الأساسيتين للملك الفيلسوف متماثلتان؛ فهو مضطر إلى أن يحتذي مثال الأصل السماوي للمدينة، وهو مضطر إلى أن يحتذي مثال الأصل السماوي للإنسان - وهو أيضاً الوحيد الذي يكون قادراً على - والذي لديه الحافز إلى - "أن يحقق، في الفرد وفي المدينة بالمثل، رؤياه السماوية".

وفي مقدورنا الآن أن نفهم لماذا يخفف أفلاطون من تلميحه الأول بأن المطلوب - في حكمه - تميّزاً أكثر من المعتاد حيث يدعي، في أول الأمر، أن مبادئ تربية الحيوان ينبغي أن تنطبق على جنس الإنسان. وأن نولي، فيما يقول، عناية أكثر في تربية الحيوانات. "فإذا لم تقم بتربيتها بهذه الطريقة، أفلا تعتقد أن جنس طيورك أو كلابك سيصيبه التدهور سريعاً؟" وعندما نستدلّ من هذا على أنه يتعيّن على الإنسان أن يُربّى بنفس الطريقة شديدة الحرص، يهتف سقراط: "باللسماء!...". وما هو التميز الفائق الذي منطلبه من حكامنا، إذا كانت نفس المبادئ تنطبق على جنس الإنسان! وهذا الإعلان ذو دلالة؛ إنه أحد تلميحاته الأولى بأنه يمكن للحكام أن

يشكلوا طبقة "التميز الفائق" التي لها منزلتها وتدريبها الخاص، ومن ثم فهو يهيئنا للمطلب الذي يدعو إلى أن نكونوا فلاسفة.. بيد أن الفقرة لاتزال تحمل مغزى أكبر إلى حد ما من حيث إنها تقودنا مباشرة إلى مطلب أفلاطون بأنه يجب أن يكون من مهمة الحكام، مثل أطباء جنس الإنسان، أن يُلَفَّقُوا الأكاذيب ويدبِّروا الخدع. فالأكاذيب ضرورية، فيما يؤكد أفلاطون، "إذا أردت أن يصل قطيعك حدَّ الكمال الأعلى" لأن ذلك يحتاج إلى "ترتيبات يُحَفَظ سرُّها عن الجميع فيما عدا الحكام، ذلك إذا ما أردت أن تظل جماعة الحراس في متأى حقيقة عن الشقاق..". وبالفعل، فمناشدة الحكام (المقتبسة عاليه) للمزيد من الشجاعة في تلفيق الأكاذيب كدواء قد صيغت في هذا السياق.. إنها تهىء القارئ للمطلب التالي الذي يعتبره أفلاطون شديد الأهمية. إنه يصدر مرسوماً بأنه يتعين على الحكام اصطناع "نظام عبقرى للاقتراع، من أجل السيطرة على المساعدين الشبان، وحتى يلقي الأشخاص الذين لم يحالفهم الحظ تبعة ذلك على حظهم السيء، وليس على الحكام". الذين يتحكمون، بسرية تامة، في عملية الاقتراع. وبعد هذه النصيحة الحكيمة مباشرة لتفادي الاعتراف بالمسؤولية (والتي يضعها أفلاطون على لسان سقراط، لكي يُشهرُ بأستاذه العظيم)، يقدم "سقراط" اقتراحاً سرعان ما يتبنَّاه ويطوره جلوكون، والذي من أجل ذلك يمكن تسميته بالمرسوم الجلوكوني. أعني القانون الوحشي الذي يفرض على كل شخص من كلا الجنسين واجب الخضوع، طوال فترة الحرب، إلى رغبات الشجعان: "ومادامت الحرب مستمرة، فلا يمكن لأحد أن يقول له "لا"، وبالتالي فإذا أراد جندي أن يمارس الحب مع أي شخص سواء أكان ذكراً أم أنثى، فإن هذا القانون سيجعله تواقاً أكثر للفوز بثمن البسالة". وبذلك فلسوف تحصل الدولة، وهذا موضح بحلٍ، على فائدتين مختلفتين - على أبطال أكثر، بسبب التحريض، ومرة أخرى على أبطال أكثر، بسبب أعداد الأبطال المتزايدة من الأبطال - (وتوضَّح الفائدة الأخيرة، على لسان "سقراط"، بوصفها أهم الفوائد بالنسبة للسياسة العنصرية طويلة الأمد).

7

ولا يتطلَّب هذا النوع من التربية تدريباً فلسفياً استثنائياً. ومع ذلك، تلعب التربية الفلسفية دورها الرئيسي في إبطال أخطار التدهور. فلكي تقاوم هذه الأخطار، نكون في حاجة إلى فيلسوف مؤهل تماماً، أي إلى شخص مدرب في الرياضيات البحتة (بما في ذلك علم الهندسة الفراغية)، وعلم الفلك البحت، وعلم التوافقيات * البحت، وفوق ذلك كله، علم الجدل. فمن يعرف أسرار علم تحسين النسل الرياضي والعدد الأفلاطوني، كان هو وحده القادر على أن يعيد

* أي علم الاصوات الموسيقية. (الترجم)

للإنسان ويحفظ له السعادة التي كان يتمتع بها قبل السقوط. ويجب أن نحفظ بكل ذلك في ذهنتنا، بعد إعلان المرسوم الجلوكوني (وبعد فترة فاصلة تعامل خلالها مع التمييز الطبيعي بين اليونانيين والبرابرة، المناظر، وفقاً لأفلاطون، لذلك التمييز الذي يقرم بين الأسياد والعبيد)، عندما يعلن المذهب الذي يصفه أفلاطون بعناية بأنه مطلبه السياسي المركزي والممتاز إلى أقصى درجة - السيادة للملك الفيلسوف. ويُعلمنا أن هذا المطلب وحده هو الذي يمكنه أن يضع نهاية لشرور الحياة الاجتماعية؛ وللشر المتخشي في البلاد، أي عدم الاستقرار السياسي، وأيضاً للسبب المتخفي خلف ذلك الشر المتخشي في أعضاء الجنس البشري، أي التدهور الجنسي. وهذه هي الفقرة التي نتحدث عن ذلك.

يقول سقراط: "حسناً، إنني الآن على وشك أن أغوص في ذلك الموضوع الذي قارنته من قبل بأنه أعظم الموجات على الإطلاق. ومع ذلك يتعين علي أن أتحدث، حتى على الرغم من أنني أتنبأ بأن هذا سيجلب علي طوفاناً من الضحك. ويمكنني في الواقع أن أراها الآن، هذه الموجة بالذات تتكسر فوق رأسي في هدير من الضحك والافتراء...". يقول جلوكون: "إفرض بما عندك!" ويستطرد سقراط: "إلا إذا زودّ الفلاسفة في مدنهم بقلعة الملوك، أو إذا تحول أولئك الذين نسميهم الآن ملوكاً وأوليغاركيين إلى فلاسفة أصليين ومؤهلين تأهيلاً تاماً، وإن لم تنصهر القدرة السياسية والفلسفة (في حين أن العديد من الذين يتبعون الآن ميلهم الطبيعي نحو واحد فقط من هذين الحصرين سوف يجمع بالقوة)، إذا لم يحدث ذلك، ياعزيزي جلوكون، فلن يكون ثمة استقرار، ولن يتوقف الشر عن التفشي في المدن، ولا، فيما أعتقد، في جنس الإنسان." (وهو الذي ردّ عليه كائناً بحكمة قائلاً: "أما تحول الملوك إلى فلاسفة أو الفلاسفة إلى ملوك فمن الصعب أن يحدث، ولن يكون مرغوباً فيه، لأن امتلاك القوة يُعطّل دائماً العقل الحر..."). ومع ذلك، يلزم ألا يقوم الملك - أو الشعب الذي يحكم نفسه - بقمع الفلاسفة، بل يجب أن يترك لهم حق التحدث العلني...".

ولقد وصفت هذه الفقرة الأفلاطونية الهامة وصفاً مناسباً بأنها مفتاح المؤلف كله. فكلما نتاها الأخيرة "ولا، فيما أعتقد، في جنس الإنسان"، تُعدّ على ما أظن فكرة ثانوية ذات أهمية ضئيلة نسبياً في هذا المكان. ومن الضروري، مع ذلك، أن نعلّق عليها، لأن عادة المعالجة المثالية لأفلاطون قد أدت إلى التأويل بأن أفلاطون يتحدث هنا عن "الإنسانية"، بأسطاً وعده للخلاص من نطاق المدن إلى نطاق "النوع الإنساني ككل...". ويتعين أن يُقال في هذا السياق، أن المقولة الأخلاقية لـ "الإنسانية" كشيء يتسامى على التمييز بين الأمم والأجناس، والطبقات، إنما تعدّ غريبة تماماً على أفلاطون. ولدينا، في الواقع، دليل كاف على عدا أفلاطون للعقيدة المساواتية، وهو العدا الذي يفهم من اتجاهه نحو أثنيتين، مريد سقراط القديم وصديقه. انتسب اثنتان أيضاً

إلى مدرسة جورجياس، مثل الخيداماس وليكوفرون، ويبدو أنه كان قد طور نظريتهما المساواتية إلى مذهب الأخوة لكل البشر، والأمبراطورية الكونية للبشر. ولقد هوجمت هذه العقيدة في الجمهورية بربط عدم المساواة الطبيعي للإغريق والبرابرة بعدم المساواة الطبيعي للسادة والعبيد؛ ويتصادف كذلك أن هجومه يُطلق مباشرة قبل الفقرة المفتاح محل دراستنا هنا. لهذه الأسباب وغيرها، يبدو من المأمون أن نفترض أن أفلاطون، عند الحديث عن الشر المخشي في جنس البشر، قد ألح إلى نظرية سيطلع عليها قراءه بصورة كافية عند هذا المكان، أعني، إلى نظريته التي تذهب إلى أن رفاهية الدولة إنما تعتمد، في النهاية، على "طبيعة" الأعضاء الفردين للطبقة الحاكمة، وأن طبيعتهم وطبيعة جنسهم أو فريتهم، مهددة، بالتالي من شرور التربية الفردانية، والأكثر من ذلك، من التدهور الجنساني. وتندر ملاحظة أفلاطون، بتلمييحها الواضح للتعارض بين الثبات السماوي وشر التغير والانحلال بقصة العدد وسقوط الإنسان.

ومن الملائم جداً أن أفلاطون يلمح إلى نزعة الجنسانية في هذه الفقرة الرئيسية التي يعلن فيها مطلبه السياسي الأكثر أهمية. لأنه بدون الفيلسوف الأصل، المؤهل تماماً، الذي تلقى تدريباً في كل تلك العلوم اللازمة لعلم تحسين النسل، مستفقد الدولة. ويخبرنا أفلاطون، في قصته المتعلقة بالعدد وسقوط الإنسان، أن إحدى الخطايا الأولى والمميتة الناتجة عن الإغفال الذي اقترفه الحراس المنحطون سيكون فقدهم الاهتمام بعلم تحسين النسل، وبمراقبة واختيار تقاء الجنس، وبالتالي سيعين حكام غير لائقين تماماً لأداء مهمتهم كحراس، وهي مراقبة واختبار المعادن في الأجناس (التي هي أجناس هزيرود وأجناسكم أيضاً)، الذهب والفضة والبرونز والحديد. "إن الجهل بالعدد الزواجي الغامض هو الذي يؤدي إلى كل ذلك. بيد أن هذا العدد كان بلا شك من اختراع أفلاطون الخاص. (إنه يفترض مسبقاً التوافقيات اليحت، والذي يفترض بدوره الهندسة الفراغية، وهو علم حديث في العصر الذي كتب فيه الجمهورية.) وهكذا نرى أن لا أحد سوى أفلاطون نفسه قد عرف سر، وملك مفتاح، الحراسة الحقة. ولكن هذا لا يمكن أن يعني إلا شيئاً واحداً، أن الملك الفيلسوف هو أفلاطون نفسه، والجمهورية هي مطالبة أفلاطون ذاته بالقوة الملكية - بالقوة التي اعتقد أنها حقّه، وللحفيد الوارث الشرعي لكودروس الشهير، آخر ملوك أثينا، الذي ضحى بنفسه، وفقاً لأفلاطون، "لكي يحافظ على المملكة لأطفاله".

8

وما أن نكون قد توصلنا إلى هذه النتيجة حتى تغدو أشياء عديدة، كانت قبل ذلك غير متصلة، مترابطة وواضحة. ولا نكاد نشك، مثلاً، في أن مؤلف أفلاطون، المليء بالتلميحات عن

المسائل والشخصيات المعاصرة لم يُقصد به عملاً نظرياً بقدر ما كان يُقصد به إعلاناً سياسياً في موضوعه. يقول إ. إي. تايلور. E. A. Taylor: "إننا نرتكب في حق أفلاطون أكبر الأخطاء، إذا تناسينا أن الجمهورية لم تكن مجرد تجميع لمناقشات نظرية عن الحكم وإنما مشروعاً خطيراً لإصلاح عملي مقدّم من رجل أثيني . . . ، يشعل ناراً، كما يقول شيللي، برغبة عارمة من أجل إصلاح العالم." وهذا صحيح بلا شك، وكان يمكننا أن نستج من هذا الاعتبار وحده أن أفلاطون، في وصف ملوكه الفلاسفة، لابد أن يكون قد فكّر في بعض الفلاسفة المعاصرين. ولكن وقت أن كتبت الجمهورية، لم يكن يوجد في أثينا سوى ثلاثة رجال بارزين فقط يحقّ لهم الادعاء بأنهم فلاسفة: أنتستين وإيزوقراط وأفلاطون نفسه. وإذا اقترنا من الجمهورية وفي ذهننا هذا، لاكتشفنا في الحال أنه، في المناقشة المتعلقة بخصائص الملوك الفلاسفة، توجد فقرة مطوّلة شدّد عليها أفلاطون بوصفها تحتوي على تلميحات شخصية. إنها تبدأ بتلميح لا يخطئه قارئ عن شخصية شعبية، هي ألكيادس، وتنتهي باسم مذكور بصراحة (وهو ثياجس، مع إشارة من "سقراط" إلى نفسه. فحواها أن القليل جداً يمكن وصفهم بأنهم فلاسفة أصلاء، مؤهلين لوظيفة الملك الفيلسوف. أما ألكيادس، الموجود في طبقة التبلاء، والذي كان النموذج المناسب، فقد هجر الفلسفة، على الرغم من محاولات سقراط انقاذه. ولقد ظهر بعد ذلك أتباع غير أكفاء يدعون لأنفسهم الفلسفة المهجورة وغير المدافع عنها. وفي النهاية لم يتبق سوى حفنة من الرجال الجديرين بربطهم بالفلسفة. ومن وجهة النظر التي قد توصلنا إليها، فإننا نتوقع أن يكون "الأتباع غير الأكفاء" أنتستين وإيزوقراط وملرمستاهما، وأنهم نفس الناس الذي يطالب أفلاطون بأن "يُقمعوا بالقوة"، وكما يقول في بداية الفقرة المفتاح عن الملك الفيلسوف). وهناك بالفعل دليل مستقل يعزّز هذا التوقع. ويتعيّن بالمثل أن نتوقع أن "حفنة من الرجال الجديرين" تتضمن أفلاطون، وربما بعضاً من أصدقائه (ومن الجائز أن يكون ديو واحداً منهم)؛ وفي الواقع، فمتابعة هذه الفقرة لا تترك سوى ظل من الشك في أن أفلاطون يتحدث هنا عن نفسه: "فالذي يتّمي إلى هذه الزمرة الصغيرة . . . يمكنه أن يرى حماقة الكثيرين، والإفساد العام لكل الشؤون العامة . . . والفيلسوف - مثل رجل في قفص للحيوانات المتوحشة . . . لن يشارك في ظلم السواد الأعظم من الناس، بيد أن قوته لا تكفي للاستمرار في معركته وحده، إذ أنه محاط بعالم من المتوحشين. سيقتل قبل أن يتمكن من فعل أي خير، لمديته أو لأصدقائه . . . وبعد أن يفحص جيداً كل هذه النقاط، سيؤثر السلامة، ويقصر مجهوداته على عمله الخاص . . . إن الاستياء الشديد المعبر عنه في هذه الكلمات، والبعيد تماماً عن الروح السقراطية تشير بوضوح أنها كلمات أفلاطون. ومع ذلك، بالنسبة للتقييم الشامل لهذا الاعتراف الشخصي، ينبغي مقارنته بما يلي: "إنه من المناقض للطبيعة أن يتوسّل الملاح الماهر إلى البحارة غير المهرة أن يقبلوا رئاسته، ولا أن يتظر الرجل

الحكيم على أبواب الغنى . . . ولكن الإجراء الصحيح والطبيعي هو أن المريض، سواء أكان غنياً أم فقيراً، ينبغي أن يسرع إلى باب الطبيب. وبالمثل ينبغي على أولئك الذين يحتاجون لمن يحكمهم أن يحيطوا بباب الذي يستطيع أن يحكم، ولا يجب أبداً أن يتوسل الحاكم إليهم ليقبلوا حكمه، إذا كان صالحاً بالفعل". فمن ذا الذي يمكنه أن يغفل نبرة الغرور الشخصي الهائل في هذه الفقرة؟ يقول أفلاطون، ها آنذا حاكمك الطبيعي، الملك الفيلسوف الذي يعرف كيف يحكم. إذا أردتني، يجب عليك أن تأتي إليّ، وإذا صعدت، قد أصبح حاكمك. ولكنتي لن أحضر إليك متوسلاً.

فهل اعتقد أنهم سيأتون إليه؟ وكالعديد من مؤلفات الأدب العظيمة، تُظهر الجمهورية أن مؤلفها كان يشعر بالآمال المبهجة والمفرطة للنجاح يعقبها فترات من اليأس والقنوط. ولقد اعتري أفلاطون الأمل، في بعض الأحيان، على الأقل، أنهم سيأتون؛ وأن نجاح مؤلفه، مجد حكمته، سيجعلهم يأتون إليه. . . ثم شعر بعد ذلك، أنهم سيحرّضون فحسب على شن هجوم غاضب؛ وأن كل ما سيجلبه على نفسه كان "صخباً من الضحك ونشويهاً للسمعة" - وربما حتى الموت.

فهل كان طموحاً؟ إنه كان يحاول الوصول إلى النجوم - إلى التشبُّه بالآلهة. وأتساءل أحياناً عما إذا كان جزء من حماسة أفلاطون راجعاً إلى حقيقة أنها تعبير عن كثير من الأحلام السرية. . . وحتى حينما يجادل ضد الطموح، فإننا لا نشعر سوى بأنه كان مدفوعاً بهذا الطموح. . . فهو يؤكد لنا، أن الفيلسوف ليس طموحاً؛ وعلى الرغم من أنه "مقدر له أن يحكم، فهو الأقل تلهفاً على ذلك. . . " ولكن السبب المفترض هو - أن مكانته عالية جداً. فمن كان قد تسامى مع الإلهي يمكنه أن يهبط من عليائه إلى الفانين على الأرض، مضحياً بذاته من أجل مصلحة الدولة. إنه ليس تواقاً؛ ولكن كحاكم طبيعي، ومنقذ، فهو مستعد لتلبية النداء. إذ أن الفانين الماكين يحتاجونه. وبدونه ستهلك الدولة، لأنه وحده يعرف سر كيفية المحافظة عليها - سر إيقاف التدهور. . .

واعتقد أنه يجب علينا مواجهة حقيقة أن البحث عن القوة يقف خلف سيادة الملك الفيلسوف. فالصورة الجميلة للسيد إنما هي صورة ذاتية. وعندما نكون قد شفينا من صدمة هذا الاكتشاف، فإنه يمكننا أن نتطلع من جديد إلى الصورة المقعمة بالرهبة؛ ولو كان في مقدورنا أن نقوي أنفسنا بجرعة صغيرة من تهكمية سقراط، لما وجدناها رهبة إلى هذا الحد. بل يمكن أن نبدأ في تبين سماتها الإنسانية، وهي في الواقع، إنسانية جداً. بل قد نبدأ في الشعور قليلاً بالأسف لأفلاطون، الذي كان يجب أن يرضى بتأسيس استاذيته الأولى في الفلسفة بدلاً من ملكيته الأولى، فهو الذي لم يستطع أبداً أن يحقق حلمه أبداً، المثال الملكي الذي كونه وفقاً لصورته الشخصية. بل إننا قد نجد في قصة أفلاطون، بعد أن تقويتنا بجرعة من التهكم، تشابهاً محزناً مع

ذلك الهجاء الصغير والبريء غير المقصود للأفلاطونية، قصة الدُشهَند* "الكلب القبيح" تونو Tono الذي يتصور نفسه "كلباً عظيماً" ملكياً وفقاً لصورته الذاتية، (ولكنه بالحسن الحظ، يكشف في نهاية الأمر أنه فعلاً الكلب العظيم).

فياله من صَنَم للضعف البشري، فكرة الملك الفيلسوف هذه. وباله من تعارض بين هذه الفكرة وبين بساطة وإنسانية سقراط، الذي حنَّ رجل الدولة من مخاطر الافتتان بقوته الذاتية، بتميزه وبحكمته، وحاول أن يعلمه ماهو أكثر أهمية - وهو أننا جميعاً كائنات بشرية هشة. وباله من اتحدار من عالم التهكم والعقل والصدق نحو مملكة أفلاطون العاقل الذي ترفعه قدراته السحرية عالياً فوق مستوى البشر العاديين، رغم أنه ليس عالياً تماماً بالقدر الذي يمنعه من استخدام الأكاذيب أو من إهمال التجارة المؤسفة لكل شامان - تجارة بيع اللعنات، وتكاثر اللعنات، في مقابل القوة على رفقاءه البشر.

* الدُشهَند: كلب اللاتي صغير طويل الجسم قصير القوائم. (المترجم)

الفصل التاسع: الجمالية والكمالية واليوتوبية

"علينا أن نحطم كل شيء في البداية. فحضارتنا اليغيزة يجب أن تزول،

قبلما نستطيع أن نجلب أي تهذيب إلى العالم".

مورلان

ثمة مداخلة معينة في علم السياسة متأصلة في برنامج أفلاطون، أعتقد أنها خطيرة إلى أبعد حد. وتحليلها يعدُّ ذا أهمية عملية كبيرة من وجهة نظر الهندسة الاجتماعية العقلانية. ويمكن أن توصف المداخلة الأفلاطونية، التي أعنيها، بأنها مداخلة الهندسة اليوتوبية، كمقابل لنوع آخر من الهندسة الاجتماعية التي اعتبرها النوع العقلاني الوحيد، والتي يمكن وصفها بالهندسة المترجعة. أما المداخلة اليوتوبية فهي الأخطر، لأنها قد يبدو أنها البديل الواضح للترعة التاريخية الصريحة - لمداخلة تاريخانية متطرفة تقتضي ضمناً أننا لانستطيع تعديل مسار التاريخ؛ وتبدو، في نفس الوقت، أنها تكملة ضرورية لترعة تاريخية أقل تطرفاً، مثل ترعة أفلاطون التي تسمح بتدخل إنساني.

وربما توصف المداخلة اليوتوبية على النحو التالي. لا بد أن يكون لأي فعل عقلائي هدف معين. وهو عقلائي بنفس الدرجة لأنه يتعقب هدفه بوعي ويتسق، ولأنه تُحدد وسائله وفقاً لهذا الهدف. ولذلك فاختيار الهدف هو الشيء الأول الذي يتعين أن تفعله إذا رغبت في أن تؤدي عملاً بصورة عقلانية، ويجب علينا أن نحدد بعناية أهدافنا الحقيقية أو النهائية، والتي منها يجب أن نغير بوضوح تلك الأهداف الوسيطة أو الجزئية التي هي في الواقع وسائل فقط، أو خطوات على الطريق، نحو الهدف النهائي. وإذا أهملنا هذا التمييز، فعلينا أيضاً أن نهمل السؤال عما إذا كانت تلك الأهداف الجزئية قادرة على دفعنا نحو الهدف النهائي، وبناءً عليه فسوف نخفق في التصرف العقلائي. فإذا ما طبقت هذه المبادئ على حقل النشاط السياسي، فإنها تتطلب ضرورة تحديد هدفنا السياسي النهائي، أو الحالة المثالية، قبل الشروع في أداء أي فعل عملي. فقط عندما يتم تحديد هذا الهدف النهائي، على الأقل في صورة تقريبية، فقط عندما يكون في حوزتنا شيء ما شبيه ببرنامج عمل للمجتمع الذي نهدف إليه، حيثُ فقط يمكننا أن نبدأ في أن نفكر في أفضل الطرق والوسائل لتحقيقه، وأن

نرسم خطة للفعل العملي . هذه هي الأوليات الضرورية لأي تحرك سياسي عملي يمكن أن يُطلق عليه اسم عقلاني، وخصوصاً للهندسة الاجتماعية.

هذه، باختصار، هي المداخلة المنهجية التي أدعوها بالهندسة اليوتوبية . وهي مقنعة وجذابة . كما أنها، في الواقع، نوع المداخلة المنهجية الذي يجذب كل هؤلاء الذين يتأثرون بالأفكار المسبقة التاريخية، أو الذين يعملون ضدها، وذلك ما يجعلها الأخطر، ويجعل نقلها أكثر إلحاحاً .

وأودُّ قبل المضي قدماً في نقد الهندسة اليوتوبية بشكل أكثر تفصيلاً، أن أضع مخططاً تمهيدياً لمداخلة أخرى للهندسة الاجتماعية، أعني للهندسة المتدرّجة . وهي أطروحة أعتقد أنها سليمة من الناحية المنهجية . إن السياسي الذي يتبنّى هذا المنهج قد يكون أو لا يكون لديه برنامج عمل للمجتمع أمام ناظره، وقد يأمل أو لا يأمل في أن يقيم الجنس البشري في يوم من الأيام دولة مثالية، ويحقق السعادة والكمال على الأرض . بيد أنه لن يدرك أن الكمال، حتى لو كان يمكن إحرازه بعيد المنال إلى حد كبير، وبالتالي الجيل الحالي أيضاً لديه شيء يطالب به، قد لا يكون هذا الشيء المطالبة بتحقيق السعادة، لأنه لا توجد وسائل مؤسسية تجعل الإنسان سعيداً، ولكنه على الأرجح يطالب بالأمر بكون تقياً، طالما كان في الامكان تقادي ذلك . وعندما يعاني الناس فإن مطلبهم يكون توفير كل مساعدة ممكنة . وسوف تتبنّى الهندسة المتدرّجة، بناءً على ذلك، منهجاً للبحث عن، والكفاح ضد أعظم شروخ المجتمع وأكثرها إلحاحاً، أكثر من البحث عن، والنضال من أجل، خيره النهائي الأعظم . وهذا الاختلاف بعيد عن كونه مجرد اختلاف لفظي . وإنما هو، في الواقع، غاية في الأهمية . إنه الاختلاف بين منهج معقول لتحسين أحوال كثير من الناس، ومنهج، إذا ما أُختبر حقيقة، قد يؤدي ببساطة إلى تزايد لا يُطاق في معاناة الإنسانية . إنه الاختلاف بين منهج يمكن تطبيقه في أي لحظة، ومنهج الدفاع عنه قد يصبح ببساطة وسيلة لفعل مؤجّل بصفة مستمرة حتى تاريخ لاحق، عندما تكون الظروف أكثر ملائمة . وهو أيضاً الاختلاف بين المنهج الوحيد لتحسين الأحوال الذي طُبّق بنجاح حقيقي حتى الآن، في أي زمان، وفي أي مكان (بما في ذلك روسيا، كما سنرى) ومنهج حيثما تمّ تطبيقه، أدّى فقط إلى استخدام العنف بدلاً من العقل، وتم استبعاد خطته الأصلية، إن لم يُستبعد المنهج كلية .

وثمة حجة لصالح هذا المنهج، فالمهندس التدرّجي يمكنه الادّعاء أن النضال المتّظم ضد المعاناة والجور والحرب يكون مدعوماً باستحسان وموافقة عدد كبير من الناس أكثر من النضال من أجل تأسيس مثل أعلى ما . يمكن التحقق من وجود الشروخ الاجتماعية، أي الأوضاع الاجتماعية التي يعاني فيها العديد من البشر، بطريقة جيدة نسبياً . وأولئك الذين يعانون يمكن أن يحكموا بأنفسهم، ويمكن للآخرين بالكاد أن ينكروا أنهم لا يحبون تغيير أماكنهم . والأكثر صعوبة بكثير

الجدل حول مجتمع مثالي. إذ أن الحياة الاجتماعية من التعقيد بحيث أن قليلاً من الناس - إن لم يوجد أحد على الإطلاق - يمكنه الحكم على برنامج عمل لهندسة اجتماعية على نطاق كبير، سواء أكان يمكن تنفيذه؛ أو كان سيفضي إلى تحسن حقيقي؛ ونوع المعاناة التي قد تحيط به، وما عسى تكون وسائل تحقيقه. وعلى العكس من هذا فإن خطة عمل الهندسة المتدرجة بسيطة نسبياً. فهي برامج عمل لمؤسسات منفردة، للصحة ولتأمين العاطلين عن العمل، مثلاً، أو تحكيم محاكم، أو وضع ميزانية لمعالجة الكساد، أو إصلاح تعليمي. فإن أخطأوا، لن يكون الضرر فادحاً، ولن يكون التعديل من جديد شديد الصعوبة. إنهم أقل مخاطرة، ولهذا السبب عنه أقل وكلاً بالجدل. ولكن لو كان من الأسهل التوصل إلى اتفاق معقول عن الشرور الموجودة ووسائل مقاومتها من التوصل إلى الخير المثالي ومُبل تحقيقه، إذن فتمة أمل أكبر في أننا باستخدام المنهج المتدرج قد نتغلب على أكثر المشكلات العملية صعوبة لكل إصلاح سياسي معقول، أعني، استخدام العقل، بدلاً من الانفعال والعنف، في تنفيذ البرنامج. ولسوف يكون ثمة إمكانية للتوصل إلى تسوية معقولة، ومن ثم لإنجاز التحسن بوسائل ديمقراطية. ("التسوية" كلمة قبيحة، ولكن من المهم لنا أن نتعلم استخدامها الصحيح. فالمؤسسات إنما هي نتيجة لازمة لتسوية مع الظروف. والمصالح، إلخ على الرغم من أننا كأفراد يتعين أن نقاوم تأثيرات هذا النوع).

وعلى العكس من ذلك، فإن المحاولة اليوتوبية لتحقيق دولة مثالية، مستخدمة خطة عمل للمجتمع ككل، تتطلب حكماً مركزياً قوياً للقلّة. ولذلك فمن المحتمل أن تؤدي إلى ديكتاتورية. وهذا ما اعتبره نقداً للمداخلات اليوتوبية، لأنني قد حاولت أن أبين، في الفصل المعنون "في مبدأ القيادة"، أن الحكم السلطوي هو شكل من أشكال الحكم الذي يمكن الاعتراض عليه بشدة. وبعض النقاط التي لم تنطرق إليها في ذلك الفصل تقدم لنا حججاً أكثر مباشرة ضد المداخلات اليوتوبية. فأحدى الصعوبات التي يواجهها ديكتاتور مطبوع على حب الخير أن يكشف أن تدابيرهُ تتفق مع النوايا الحسنة (كما رأى ذلك دي توكفيل بوضوح أكثر منذ مائة عام مضت). وتنشأ الصعوبة من واقع أن الحكم الشمولي يجب أن يعوق النقد، وبالتالي لن يسمع الديكتاتور المطبوع على حب الخير بسهولة شكاوى تتعلق بالتدابير التي اتخذها. ولكن بدون مثل تلك المراجعة فلن يتمكن بسهولة من اكتشاف ما إذا كانت تدابيرهُ قد حققت الهدف الخير المنشود. بل سيكون الموقف أسوأ بالنسبة للمهندس اليوتوبي. إذ أن إعادة بناء المجتمع يُعتبر مشروعاً كبيراً يتعين أن يسبب إزعاجاً شديداً للعديد، وعلى امتداد طويل من الزمن. وبناءً على ذلك، فلسوف يصمم المهندس اليوتوبي آذانه عن العديد من الشكاوى، ولسوف يكون من ضمن مهامه، في الواقع، قمع اعتراضات غير معقولة. (ولسوف يقول، مثلما قال لينين "لا يمكنك أن تصنع قرصاً من العجة دون كسر بيض") ولكن يجب عليه في نفس الوقت أن يجمع أيضاً النقد المعقول بالدرجة ذاتها. وثمة صعوبة أخرى للهندسة

اليوتوبية تتعلق بمشكلة خليفة الديكتاتور. ولقد أشرنا في الفصل السابع إلى بعض أوجه هذه المشكلة. إذ تثير الهندسة اليوتوبية صعوبة مماثلة بل أكثر خطورة من تلك التي تواجه الطاغية المطبوع على حب الخير الذي يحاول أن يعثر على خليفة مطبوع على حب الخير مثله. إن اتساع المشروع اليوتوبي ذاته يجعل من غير المحتمل أن يحقق أهدافه خلال حياة أحد المهندسين الاجتماعيين، أو حتى مجموعة من المهندسين. وإن لم يتابع الخلفاء نفس المثال، إذن لكانت كل معاناة الشعب من أجل هذا المثال قد ذهبت سدى.

ويؤتي تعميم هذه الحجة إلى نقد إضافي للمداخلات اليوتوبية. فمن الواضح أن هذه المداخلات ستكون ذات قيمة عملية فقط لو أننا افترضنا أن خطة العمل الأصلية، ربما مع تعديلات معينة، تظل أساساً للعمل حتى اكتماله. ولكن ذلك سيستغرق بعض الوقت... إنه سيكون وقت الثورات، ووقت التجارب والخبرات الجديدة في الحقل السياسي. ولذلك فمن المتوقع أن تتغير الأفكار والمثل. وما قد بدا أنه الدولة المثالية للناس الذين وضعوا خطة العمل الأصلية، قد لا يبدو كذلك بالنسبة لخلفائهم. فلو سلمنا بذلك، إذن لانهارت المداخلات برمتها. إن الطريقة التي تقتضي في البداية تأسيس الهدف السياسي النهائي، ثم بعد ذلك البدء في التحرك نحوه لعديمة الجدوى إذا سلمنا بأن الهدف قد يتغير كثيراً أثناء عملية تحقيقه. وقد ثبت في أي لحظة أن الخطوات التي اتخذت حتى ذلك الوقت، إنما تبعد بالفعل عن تحقيق الهدف الجديد. ولو أننا غيرنا اتجاهنا وفقاً للهدف الجديد، لعرضنا أنفسنا حيث نشد لنفس المخاطرة مرة أخرى. وعلى الرغم من كل التوضيحات المبذولة، فقد لا نصل إلى أي مكان على الإطلاق. فأولئك الذين يفضلون خطوة واحدة نحو مثل بعيدة على تحقيق تسوية متدرجة، يجب أن يتذكروا دائماً أن الهدف لو كان بعيداً جداً، فقد يصبح من الصعوبة بمكان تقرير ما إذا كانت الخطوة المتخذة باتجاهه أم بعيدة عنه. ويحدث ذلك على وجه الخصوص إذا كان المسار متعرجاً، أو، بلغة هيجل الدارجة "جدلياً"، أو إذا لم يكن مخططاً له بوضوح على الإطلاق. (ويستند هذا إلى السؤال القديم والطفولي بعض الشيء الذي يسأل إلى أي مدى يمكن أن تبرر الغاية الوسيلة. وبغض النظر عن الادعاء بأنه لا يمكن أن توجد غاية تبرر كل الوسائل، فإنني أعتقد أن الغاية المحددة بشكل معقول والقبالة للتحقيق يمكن أن تبرر التدابير الوقتية التي لا يمكن أبداً لأية غاية أكثر بُعداً أن تبررها).

ولعلنا نرى الآن أنه يمكن إنقاذ المداخلات اليوتوبية فقط عن طريق الاعتقاد الأفلاطوني في مثل أعلى واحد، مطلق وثابت، علاوة على فرضين إضافيين، أعني (أ) أن ثمة مناهج عقلانية تحدد نهائياً وعلى نحو حاسم ماهية هذا المثال، (ب) ما هي أفضل الوسائل لتحقيقه. ومثل هذه الفروض بعيدة الأثر يمكن أن تمنعنا من إعلان المنهجية اليوتوبية غير ذات جدوى. ولكن حتى أفلاطون نفسه ومعظم الأفلاطونيين المتحمسين سيسلمون بأن البند (أ) غير صحيح بالتأكيد؛ وأنه لا يوجد منهج

عقلاني لتحديد الهدف النهائي، ولكن، إذا وجد شيء، فهو نوع من الخدش فحسب. لذلك فأني اختلاف في الرأي بين المهندسين اليوتوبيين يجب أن يؤدي، وفي غياب مناهج عقلانية، إلى استخدام القوة بدلاً من العقل، أي إلى العنف. ولو حدث أي تقدم في أي اتجاه محدد على الإطلاق، إذن فهو قد حدث رغماً عن المنهج المثبتي، وليس بسببه، وربما ينسب النجاح، على سبيل المثال، إلى امتياز القادة، ولكن لا يتعين علينا أن ننسى أبداً أن القادة الممتازين لا يمكن الاتيان بهم بمناهج عقلانية، وإنما بالحظ فقط.

ومن المهم أن نفهم هذا النقد بشكل مناسب؛ فأنا لا أعتقد المثال بزعم أنه لا يمكن أبداً تحقيقه، وأنه يتعين دائماً أن يظل يوتوبيا. إن هذا لن يكون نقداً صحيحاً، لأن العديد من الأشياء قد تحقق بالفعل، بينما كان قد أعلن فيما سبق بطريقة إيقانية أنها غير قابلة للتحقيق، وعلى سبيل المثال، تأسيس مؤسسات لتحقيق السلام المدني، أي لمنع الجريمة داخل الدولة؛ وأعتقد، على سبيل المثال، أن تأسيس المؤسسات المناظرة لمنع الجريمة الدولية، أي العدون المسلح أو الابتزاز، رغم أنه يوسم عادة بأنه يوتوبي، إلا أنه لا يمثل مشكلة شديدة الصعوبة. فما أعتقد تحت اسم الهندسة اليوتوبية يُزكى إعادة بناء المجتمع ككل، أي تغيرات واسعة للغاية يصعب حساب نتائجها العملية، بسبب خبراتنا المحدودة. إنها تدعي التخطيط العقلاني لكل المجتمع، على الرغم من أننا لا نملك المعرفة الواقعية الضرورية لإنجاز إدعاء طموح مثل هذا. ولا يمكننا أن نملك مثل هذه المعرفة، لأنه ليست لدينا خبرة عملية كافية في هذا النوع من التخطيط، فالمعرفة بالوقائع يجب أن تستند إلى الخبرة. ويمكن القول بأن المعرفة الاجتماعية اللازمة لهندسة على نطاق واسع لا وجود لها ببساطة في الوقت الحالي.

ومن منظور هذا النقد، من المرجح أن يُلم المهندس اليوتوبي بالحاجة إلى الخبرة العملية، وبالحاجة إلى تكنولوجيا اجتماعية مستندة إلى خبرات عملية. بيد أنه سيجادل بأننا لن نعرف أبداً الكثير عن هذه المسائل لو أننا تراجعنا عن إجراء التجارب الاجتماعية التي يمكن وحدها أن تزودنا بالخبرة العملية المطلوبة. وقد يضيف إلى ذلك بأن الهندسة اليوتوبية ليست سوى تطبيق المنهج التجريبي على المجتمع. فلا يمكن أن تحقق التجارب بدون أن يضمن ذلك تغييرات شاملة. ويتعين أن تكون على نطاق واسع، بسبب السمة الخصوصية للمجتمع الحديث بكتله الجماهيرية الكبيرة. فتجربة في الاشتراكية، على سبيل المثال، إذا كانت مقتصرة على مصنع، أو على قرية، أو حتى على منطقة، فلن تعطينا ذلك النوع من المعلومات الواقعية التي نحن في أمس الحاجة إليها.

ومثل هذه الحجج التي تُقال لصالح الهندسة اليوتوبية إنما تظهر فكرة مسبقة واسعة الانتشار إلى حد كبير ولا يمكن الدفاع عنها، وهي فكرة أن التجارب الاجتماعية ينبغي أن تكون على "نطاق واسع"، أن تشمل كل المجتمع إذا ما أُريد لها أن تتحقق تحت شروط واقعية. بيد أن إجراء التجارب

الاجتماعية المتدرجة يمكن تحقيقها تحت شروط واقعية، داخل المجتمع، على الرغم من كونها على "نطاق ضيق"، أو كما يقال، بدون تشوير المجتمع ككل - إذ أننا نجري، في الواقع، مثل هذه التجارب طوال الوقت. فإدخال نوع جديد من التأمين على الحياة، أو فرض نوع جديد من الضرائب، أو إجراء تعديل جديد في قانون العقوبات، إنما تُعدُّ كلها تجارب اجتماعية لها أصدائها في المجتمع كله دون إعادة بناء المجتمع ككل. وحتى الرجل الذي يفتح دكاناً جديداً أو يحجز تذكرة للمسرح، إنما يجري نوعاً من التجارب الاجتماعية على نطاق ضيق، وكل معرفتنا بالشروط الاجتماعية تستند إلى الخبرة المكسبة من خلال تجارب من هذا النوع. والمهندس اليوتوبي الذي تواجهه يكون على صواب عندما يشدد على أن تجربة في الاشتراكية ستكون ضئيلة الشأن لو أُنجِزت تحت شروط معملية، في قرية معزولة مثلاً، لأن ما نريد أن نعرفه هو كيف تحدث الأشياء في المجتمع تحت شروط اجتماعية طبيعية. بيد أن هذا المثال ذاته يبيِّن أين يكمن تحيز المهندس اليوتوبي. فهو مقتنع أنه ينبغي إعادة صياغة هيكل المجتمع ككل، عندما نجري تجربة عليه؛ وهو لذلك يمكنه تصور تجربة أكثر تواضعاً فحسب، كتجربة تعيد صياغة الهيكل الكلي لمجتمع صغير. بيد أن نوع التجربة التي يمكننا أن نتعلَّم منها أكثر تتمثل في تعديل مؤسسة اجتماعية واحدة في المرة الواحدة. لأن هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن من خلالها أن نتعلَّم كيفية توليف المؤسسات في إطار عمل المؤسسات الأخرى، وكيفية ضبطها لكي تعمل وفقاً لمقاصدنا. وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن ترتكب أخطاء، وأن نتعلَّم من أخطائنا، بدون المجازفة بمضاعفات قد تعرّض للخطر الرغبة في إصلاحات مستقبلية. وفضلاً عن ذلك، من الضروري أن يودّي المنهج اليوتوبي إلى ارتباط دجماطيقي خطير ببرنامج عمل يُدَلَّت من أجله توضحيات لا تُعدُّ ولا تحصى. ويتعيَّن أن تصبح المصالح القوية مرتبطة بنجاح التجربة. ولن يساهم كل هذا في عقلانية التجربة، أو في قيمتها العلمية. بيد أن المنهج المتدرج يسمح بتجارب متكررة وتعديلات مستمرة. وقد يودّي هذا، في الواقع، إلى موقف مؤاتٍ، يبدأ فيه السياميون في البحث عن أخطائهم الذاتية بدلاً من محاولة طمسها لإثبات أنهم كانوا دائماً على صواب. ولسوف يعني هذا - وليس التخطيط اليوتوبي أو النبوءة التاريخية - إدخال المنهج العلمي في علم السياسة، لأن سر المنهج العلمي بكامله هو الاستعداد للتعلُّم من الأخطاء.

ويمكن أن تتعرَّز هذه الآراء، فيما أعتقد، بمقارنة الهندسة الاجتماعية، بالهندسة الميكانيكية على سبيل المثال. فلسوف يزعم المهندس اليوتوبي بالطبع أن المهندسين الميكانيكيين يخططون أحياناً حتى لأكثر الآلات تعقيداً ككل، وأن برامج عملهم قد تُغطى، وتخطط سلفاً، ليس فقط نوع آلات معينة، وإنما المصنع كله الذي ينتج هذه الآلات. ولسوف يكون ردِّي على ذلك هو أن المهندس الميكانيكي يمكنه أن يفعل كل هذا لأن لديه خبرة كافية في جمعته، أي النظريات المطوّرة عن طريق المحاولة والخطأ. ولكن هذا يعني أنه يستطيع التخطيط لأنه قد ارتكب كل أنواع الأخطاء بالفعل؛ أو

بعبارة أخرى، لأنه يركز إلى خبرة قد اكتسبها بتطبيق مناهج متدرّجة. وتُعدُّ آلاته الحديثة نتيجة لتحسينات صغيرة متعددة أدخلت عليها. ويكون لديه عادة نموذج أولي، وفقط بعد عدد كبير من التعديلات المتدرّجة في مختلف أجزائها، يستطيع الانطلاق إلى مرحلة يرسم فيها خططه النهائية للإنتاج. وبالمثل فخطته لإنتاج هذه الآلة تضم عدداً كبيراً من الخبرات، وهي التحسينات المتدرّجة التي أدخلتها المصانع الأقدم. ولا يعمل المنهج الكلي أو واسع النطاق إلا بعد ما يكون المنهج المتدرّج قد زوّدنا بعدد كبير من الخبرات التفصيلية، وحتى ذلك لا يتم إلا في إطار هذه الخبرات. والقليل من الصناع هم الذين يكونون على استعداد لبدء إنتاج آلة جديدة على أساس خطة العمل وحدها، حتى ولو كان قد صممها أعظم الخبراء، بدون أن يصمم أولاً نموذج يتم تطويره على خطوات صغيرة لأبعد حد ممكن.

وربما يكون مفيداً مقابلة هذا النقد للمثالية الأفلاطونية في علم السياسة بنقد ماركس لما يسميه "اليوتوبية". فما هو مشترك بالنسبة إلى ماركس ونقدي أن كلينا يطالب بواقعية أكثر. وأن كلينا يعتقد في أن الخطط اليوتوبية لا يمكن أن تتحقق أبداً بالطريقة التي صيغت بها، لأن من الصعوبة بمكان أن يؤدي أي فعل اجتماعي النتيجة المتوقعة بالضبط. (ولا يضعف هذا، في رأيي، المداخلة المتدرّجة، لأننا هنا قد نتعلم، أو بالأحرى، ينبغي أن نتعلم - ونغير آراءنا، أثناء تأديتنا لمهمتنا.) بيد أن ثمة اختلافات عديدة. ففي مجادلة ضد اليوتوبية، يدين ماركس في الواقع، كل هندسة اجتماعية - وهي نقطة نادراً ما فُهِمَتْ. فهو يَتهِمُ التعويل على تخطيط عقلاني لمؤسسات اجتماعية بأنه غير واقعي تماماً، لأن المجتمع ينبغي أن ينمو وفقاً لقوانين التاريخ وليس وفقاً لخططنا العقلانية. وهو يقرّر، أن كل ما في وضعنا أن نفعله هو أن تقلّل من آلام مخاض العمليات التاريخية. وبعبارة أخرى، فإنه يتبنّى اتجاهاً تاريخانياً راديكالياً، معارضاً لكل هندسة اجتماعية. بيد أن هناك عتصراً واحداً في اليوتوبية يميز على وجه الخصوص مداخلات أفلاطون يعارضه ماركس، على الرغم من أنه ربما يكون الأكثر أهمية من بين العناصر التي هاجمتها باعتبارها غير واقعية. إنه شمول اليوتوبية، محاولتها التعامل مع المجتمع ككل، متطرفة إلى كل شيء فيه. وهو الاقتناع بأن على المرء الاتجاه نحو جذر الشر الاجتماعي بعينه، وأن لا شيء أقل من الاجتثاث الكامل لجذور النظام الاجتماعي المؤذي الذي ينفع في هذا الشأن، وذلك إذا ما أردنا "جلب أية لياقة إلى هذا العالم" كما يقول دو جارد Du Gard، إنها باختصار، النزعة المتطرفة المتصلبة. (ولسوف يلاحظ القارئ أنني أستخدم هذا المصطلح بمعناه الأصلي والحرفي - وليس بالمعنى الشائع الآن كـ "تقدمية ليبرالية"، بل لتمييز الاتجاه الذي يقضي بـ "المضي نحو جذر المسألة." ويحلم كل من أفلاطون وماركس بالثورة الكشفية النبوية التي ستغير من شكل العالم الاجتماعي كله. وهذا الشمول، وهذه الراديكالية الصارمة للملاحظة الأفلاطونية (والماركسية بالمثل)، مرتبطة، فيما أعتمد، بتزعتها الجمالية، أي بالرغبة في بناء

عالم ليس فقط أفضل قليلاً وأكثر عقلانية من عالمنا، بل متحرراً من كل بشاعته؛ ليس لحافاً واهناً، أو ثوباً قديماً مرقعاً على نحو رديء، وإنما رداء جديد تماماً، عالم جديد جميل حقاً والنزعة الجمالية هذه، إنما هي، في الواقع، اتجاه يمكن فهمه إلى حد بعيد، وأعتقد أن معظمنا إنما يعاني قليلاً من أحلام الكمال هذه. (ولسوف يتبين، فيما آمل، من الفصل التالي، بعض الأسباب التي تدعونا إلى أن نفعل ذلك.) بيد أن هذه الحماسة الجمالية تصبح ذات قيمة فقط لو أنها لُجِمت بالعقل، وبالشعور بالمسؤولية، وبالدافع الإنساني على المعاونة. وإلا فإنها حماسة خطيرة، عرضة لأن تتطور إلى شكل من أشكال العُصَاب أو الهستيريا.

ولن نعثر في أي مكان على هذه النزعة الجمالية مُعبِّراً عنها بقوة أكثر مما هو عند أفلاطون. فأفلاطون كان فناناً، ومثل العديد من أفضل الفنانين، حاول أن يتصور نموذجاً، "الأصل السماوي" لعمله، وأن "ينسخه" بإخلاص. ويشرح هذه النقطة عدد لا بأس به من الاقتباسات المذكورة في الفصل السابق. وما ينعتة أفلاطون بأنه ديكالكتيكي، إنما هو، في الأساس، الحَدْسُ العقليُّ لعالم الجمال الخالص. وفلاسفته المدرِّبون هم رجال "رأوا حقيقة ما هو جميل وعادل وخير". وفي مقدورهم أن يتزلوه من السماء إلى الأرض. وعلم السياسة، بالنسبة لأفلاطون، إنما هو الفن الملكي. وهو فن - ليس بمعنى مجازي قد تحدث فيه عن فن معاملة الناس، أو فن انجاز أشياء، وإنما بمعنى حرفي أكثر للكلمة. فهو فن التأليف، كالموسيقى، أو الرسم، أو العمارة. إذ أن السيامي الأفلاطوني يؤلف مدناً، من أجل الجمال.

ولكن ينبغي هنا أن أحتج. فلا أعتقد أن الكائنات الحية الإنسانية يمكن أن تتخذ كوسائل لإرضاء رغبة فنان في التعبير عن ذاته. وينبغي أن نطالب، بالأحرى، بأن يمنح كل إنسان، إذا ما رغب في ذلك، الحق في تشكيل حياته بنفسه، بالقدر الذي لا يتداخل فيه كثيراً مع الآخرين. فبقدر ما أتعاطف مع الدافع الجمالي، أقترح أن يبحث الفنان عن تعبير في مادة أخرى. وأطالب، بأنه يجب على علم السياسة أن يدعم المساواة والفردانية؛ فأحلام الجمال يجب أن تخضع لضرورة مساعدة الناس في المحنة، والناس الذين يعانون الجور، ولضرورة بناء مؤسسات تخدم مثل هذه الأغراض.

ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ العلاقة الوثيقة بين راديكالية أفلاطون المطلقة، المطالبة بمقاييس شاملة، ونزعته الجمالية. وتعدُّ الفقرات التالية أكثر تحديداً لذلك. ففي حديث أفلاطون عن "الفيلسوف الذي يتسامى مع الإلهي"، يشير أولاً إلى أنه سوف يكون مأخوذاً بالحافز . . . لتحقيق رؤيته السماوية في الأفراد كما هو الحال في المدينة. "تلك المدينة التي لن تعرف السيادة أبداً إذا لم يكن مصمموها فنانين يتخلون من الإلهي نموذجاً لهم." وعندما سُئل عن تفاصيل فن الرسم عندهم، يقدم سقراط الأفلاطوني الإجابة المدهشة التالية: "سيخلون كقماش لهم مدينة وشخصيات

الناس، وسوف يجعلون قماشهم، أولاً وقبل كل شيء، نظيفاً - وهي مسألة ليست سهلة على الإطلاق - ولكن هذه بالضبط هي النقطة التي، كما تعلم، يختلفون فيها عن كل الآخرين - إنهم لن يبدأوا العمل في المدينة ولا في الأفراد (ولن يرسموا القوانين) حتى يُعطوا قماشاً نظيفاً أو حتى ينظفوه بأنفسهم -

وبعد ذلك بقليل يفسر أفلاطون ما في ذهنه عندما يتحدث عن تنظيف القماش - ويسأل جلوكون: "وكيف يمكن فعل ذلك؟" فيجيب سقراط: "كل المواطنين فوق سن العاشرة يجب أن يُطردوا من المدينة، ويُرحّلوا إلى مكان ما في القطر، والأطفال الذين هم الآن غير واقعين تحت تأثير أساليب وعادات والديهم يجب أن يُترعوا - كما يجب تربيتهم بطرق الفلسفة الحقة، التي سبق أن وصفناها، ووفقاً للقوانين - ولن يكون الفلاسفة، بالطبع، من ضمن المواطنين المطرودين؛ إنهم يقولون كمرين، كما سيقى، على ما أعتقد، أولئك الذين يخدمونهم - وينفس الروح يقول أفلاطون في السياسي عن الحكام الملكيين الذين يحكمون وفقاً للعلم الملكي لفن قيادة الدولة: "فسواء حكموا بقانون أو بدون قانون، بإرادة التابعين أو بغير إرادتهم؛ ... وسواء طهروا الدولة لحيرها، بقتل أو ترحيل أو "نقي" بعض المواطنين ... فطالما تصرفوا وفقاً للعلم والعدالة، وحافظوا على ... الدولة وجعلوها أفضل مما كانت، يتعين الإعلان عن هذا الشكل من الحكم بأنه الوحيد الذي على حق".

هذا هو ما يعنيه بتنظيف القماش - يتعين عليه استئصال المؤسسات والتقاليد القائمة. كما يتعين عليه أن يُنقى، ويُطهر، ويُطرد، وينفي، ويقتل (والمصطلح الحديث المربع المعبر عن ذلك هو أن "يُصفي") وعبرة أفلاطون هي بالفعل وصف حقيقي للاتجاه المتصلب لكل أشكال الراديكالية الصريحة - للرفض الاستطقي للتسوية. ووجهة النظر التي ترى أن المجتمع يجب أن يكون جميلاً كقطعة فنية، لا تؤدي إلى تدابير عنيفة ببساطة شديدة. بيد أن كل هذه الراديكالية والعنف غير واقعية وعقيمة. (ولقد تبين هذا من مثال نمو روسيا. فبعد الانهيار الاقتصادي الذي أدى إلى تنظيف القماش كما سُمي بـ "شيوعية الحرب" قدم لينين مؤلفه "السياسة الاقتصادية الجديدة"، وهو في الواقع نوع من الهندسة المتدرجة، على الرغم من خلوه من صياغة واعية لمبادئها أو لتقنياتها. وقد بدأ بترميم معظم قسّمات الصورة التي كانت قد استؤصلت بمعاناة إنسانية هائلة. لقد أُعيد إدخال النقود، والأسواق، وتنوع الدخل، والملكية الخاصة - وحتى لفترة من الوقت، المشروعات الخاصة في الإنتاج - ولم تبدأ فترة الإصلاح الجديدة، إلا بعد إعادة هذا الأساس).

ولكي نتقّد أسس راديكالية أفلاطون الاستطقية، ينبغي أن نميز بين نقطتين مختلفتين. الأولى هي: ما يظنه بعض المتحدثين عن "نظامنا الاجتماعي"، وعن الحاجة إلى استبداله بـ "نظام" آخر،

يشبه إلى حد كبير الصورة المرسومة على قطعة قماش والتي يتعين علينا إزالتها تماماً قبل أن نرسم صورة أخرى. ولكن هناك بعض الاختلافات الشديدة. أحدها هو أن الرسام وأولئك الذين يتعاونون معه وأيضاً المؤسسات التي تجعل حياتهم ممكنة، وكذلك أحلامه وخططه لعالم أفضل، ومعاييرهِ لللباقة والأخلاق، هي جميعاً جزء من النظام الاجتماعي، أي الصورة التي يجب إزالتها. فإذا كان عليهم حقيقة تنظيف القماش، فلسوف يضطرون إلى تحطيم أنفسهم، وخططهم اليوتوبية. (وما يستتبع حيثذا ربما لن يكون نسخة جميلة لمثال أفلاطوني، وإنما فرضي.) ويصرخ الفنان السياسي، مثل أرشميدس، من أجل مكان خارج العالم الاجتماعي يمكنه أن يمارس فيه أعماله بهلواء، ولكن مثل هذا المكان لا وجود له، والعالم الاجتماعي يجب أن يستمر في الدوران أثناء أي إعادة بناء. وهذا هو السبب البسيط الذي يجعلنا مضطرين لإصلاح مؤسساته رويداً رويداً، حتى نكتسب خبرة أكبر في الهندسة الاجتماعية.

ويقودنا هذا إلى النقطة الثانية الأكثر أهمية، إلى اللاعقلانية المتأصلة في الراديكالية. إذ يمكننا، في كل الأحوال، أن نتعلم فقط بالمحاولة والخطأ، باقتراف أخطاء وعمل تحسينات، ولا يمكننا أبداً أن نركز إلى الإلهام، على الرغم من أن الإلهامات قد تكون ذات قيمة أكبر طالما كان في الإمكان مراجعتها بالتجربة. . . . وبناءً على ذلك، فمن غير المعقول افتراض أن إعادة بناء كامل لعالمنا الاجتماعي سيؤدي في الحال إلى نظام كفاء. وإنما ينبغي، بالأحرى، أن نتوقع حدوث العديد من الأخطاء نظراً لافتقارنا إلى الخبرة، تلك الأخطاء التي لا يمكن استبعادها إلا بعملية طويلة وشاقة من التعديلات الطفيفة؛ وبعبارة أخرى، بتلك الوسيلة العقلانية لهندسة متدرجة ندافع عن تطبيقها. بيد أن أولئك الذين يكرهون هذه الوسيلة بوصفها راديكالية بصورة غير كافية، سوف يضطرون مرة أخرى إلى محو مجتمعهم من جديد، لكي يبدأوا مرة ثانية بقماش نظيف؛ ولأن البداية الجديدة لن تؤدي. لنفس الأسباب، إلى الكمال أيضاً، فسيضطرون إلى تكرار هذه العملية دون الوصول إلى أية نتيجة. . . . وأولئك الذين يعترفون بذلك ومستعدون لتبني طريقتنا الأكثر تواضعاً للتحسينات المتدرجة، ولكن فقط بعد التنظيف الراديكالي الأول للقماش، لا يمكنهم إلا بالكاد الهروب من النقد بأن تدابيرهم الشاملة والعنيفة الأولية كانت غير ضرورية على الإطلاق.

ولسوف تؤدي بنا النزعة الجمالية والنزعة الراديكالية إلى أن نبتدئ العقل، وأن نحلّ مجله أملاً يائساً في معجزات سياسية. وهذا الاتجاه اللاعقلاني الذي ينبثق من الافتتان بأحلام عالم جميل هو ما أسميه النزعة الرومانتيكية. فهي قد تبحث عن مدينتها السماوية في الماضي أو في المستقبل، وهي قد تبشّر بـ "العودة إلى الطبيعة" أو بـ "التقدم نحو عالم من الحب والجمال"؛ بيد أن جاذبيتها تكون موجهة دائماً إلى عواطفنا أكثر من عقولنا. بل إن أفضل النوايا لإقامة الجنة على الأرض إنما تنجح فقط في جعلها جحيماً. ذلك الجحيم الذي يجهّزه الإنسان فقط لأخيه الإنسان.

خلفية الهجوم على أفلاطون

الفصل العاشر: المجتمع المفتوح وأعدائه

ولسوف يعيدنا إلي طبيعتنا الأصلية، وبرتنا،

ويجعلنا سعداء ومباركين.

أفلاطون

لا يزال ثمة شيء مفقود من تحليلنا. الجدل بأن البرنامج السياسي لأفلاطون استبدادي خالص، والاعتراضات على هذا الجدل التي برزت في الفصل السادس، قد أدت بنا إلى فحص الدور الذي تلعبه في هذا البرنامج بعض الأفكار الأخلاقية كالعدالة، والحكمة، والحق، والجمال. وكانت نتيجة هذا الفحص واحدة دائماً. فقد وجدنا أن هذه الأفكار تلعب دوراً مهماً، بيد أنها لم تقدر أفلاطون إلى ما وراء التزعة الاستبدادية والجنسانية. ولكن ما زال علينا أن نفحص واحدة من هذه الأفكار، ألا وهي فكرة السعادة. ولعلنا نتذكر أننا اقتبسنا من كروسمان فيما يتعلق بالاعتقاد أن برنامج أفلاطون السياسي هو في الأساس "خطة لبناء دولة كاملة يكون فيها كل مواطن سعيداً بحق". "وأنا وصفنا هذا الاعتقاد بأنه أثر ليل نحو جعل أفلاطون مثالياً.. فإذا دُعيت لتبرير رأيي، لن أواجه صعوبة كبيرة في توضيح أن معالجة أفلاطون للسعادة عمالة تماماً لمعالجته للعدالة؛ وخصوصاً، أنها مستندة إلى نفس المعتقد بأن المجتمع هو بالطبيعة منقسم إلى طبقات، أو طوائف. إذ يصير أفلاطون على أن السعادة الحقّة، لا يمكن تحقيقها إلا بالعدل، أي، باحتفاظ كل امرئ بمكانته. ويتعيّن على الحاكم أن يجد السعادة في الحكم، والمقاتل في القتال، ويمكننا أن نستدلّ من ذلك، والعبد في العبودية. وبقطع النظر عن أن أفلاطون يقول مراراً وتكراراً بأن ما يهدف إليه ليس هو سعادة الأفراد، ولا سعادة أي طبقة بعينها في الدولة، وإنما فقط سعادة الجميع، ويجادل بأن هذا ليس سوى نتيجة لحكم العدالة الذي يبيّن أنه استبدادي الطابع، وإحدى الأطروحات الأساسية في الجمهورية هي أن العدالة فقط هي التي تؤدي إلى سعادة حقيقية.

ونتيجة لذلك كله، يبدو أن التفسير المنطقي وغير القابل للدحض لأعمال أفلاطون يؤدي بنا إلى تقديمه كسياسي حزبي استبدادي، غير ناجح في مشروعاته الفورية والعملية، وإنما ناجح جداً على المدى البعيد فقط في دعايته لتعطيل واسقاط مآينة بغضها من كل قلبه. ولكن لو صورنا الأمر بهذه الطريقة القطة، لشعرنا أن ثمة شيء مفقود بحق في هذا التفسير. إذ أن المادة الجديدة جعلت المماثلة بين الأفلاطونية والترعة الاستبدادية أكثر وضوحاً فقط.

والنقطة الوحيدة التي جعلتني أشعر أن بحثي عن دحض هذا التفسير قد نجح كانت متعلقة ببغض أفلاطون للطغيان. وكانت توجد دائماً، بالطبع، إمكانية لطمس هذا التفسير. فلقد كان من السهل أن تقول إن اتهامه للطغيان كان مجرد دعاية. إذ غالباً ما تدعي الترعة الاستبدادية حبها للحرية "الحقة"، وثناء أفلاطون على الحرية كمقابل للطغيان يحمل تماماً نبرة ذلك الحب المزعوم. وعلى الرغم من هذا، شعرت أن بعض ملاحظاته عن الطغيان، التي سيأتي ذكرها لاحقاً في هذا الفصل، صحيح تماماً. وحقيقة أن "الطغيان" كان يُقصد به عادة في عصر أفلاطون شكلاً من أشكال الحكم المستند إلى دعم الجماهير، جعل من الممكن الزعم أن ببغض أفلاطون للطغيان كان متسقاً مع تفسيرنا الأصلي. بيد أنني شعرت أن هذا لم يرفع الحاجة إلى تعديل تفسيري. كما شعرت أيضاً أن مجرد التأكيد على إخلاص أفلاطون الأساسي كان غير كافٍ تماماً كي أكمل هذا التعديل. فالكثير من التأكيد لم يستطع أن يعوّض الانطباع العام للصورة. وكان من المطلوب صورة جديدة تأخذ في الاعتبار اعتقاد أفلاطون المخلص في مهمته كشاف لمرض الجسم الاجتماعي، وكذلك حقيقة أنه كان قد رأى بوضوح أكثر من أي شخص آخر قبله أو بعده ما كان يحدث للمجتمع اليوناني. ولأن محاولة رفض المطابقة بين الأفلاطونية والترعة الاستبدادية لم تحسن الصورة، فقد اضطررت أخيراً إلى تعديل تفسيري للترعة الاستبدادية ذاتها. . . . وبعبارة أخرى، لقد أدت بي محاولتي لفهم أفلاطون بالمماثلة مع الترعة الاستبدادية الحديثة، وبالدهشتي إلى تعديل وجهة نظري في الاستبدادية. إنها لم تعدل عداوتي، وإنما أدت بي أخيراً إلى فهم أن قوة الحركات الاستبدادية قديمها وحديثها معاً قد استند إلى حقيقة أنها حاولت الإجابة عن حاجة حقيقية جداً، حتى ولو كانت هذه المحاولة قد أدركت بشكل سيء. وعلى ضوء تفسيري الجديد، يبدو لي أن إعلان أفلاطون عن رغبته في أن يجعل الدولة ومواطنيها سعداء لم تكن مجرد دعاية. وأنا متأكد أن أسلم بأريحيته الأساسية. . . . وأسلم أيضاً بأنه كان على صواب، إلى حد ما، في التحليل السوسيولوجي الذي استند إليه في وعده بالسعادة. ولكي نضع هذه النقطة بإحكام أكثر؛ اعتقد أن أفلاطون، ببصيرة سوسيولوجية عميقة، وجد أن معاصريه كانوا يعانون من ضغط عنيف، وأن هذا الضغط كان بسبب الثورة الاجتماعية التي كانت قد بدأت مع بزوغ الديمقراطية والترعة الفردية. ولقد نجح في اكتشاف الأسباب الرئيسية لتعاستهم المتجذرة بعمق - التغير

الاجتماعي، والشقاق الاجتماعي - وبذل أقصى جهد لمحاربتهما. ولا يوجد سبب للشك في أن أحد دوافعه الأكثر قوة كانت استعادة السعادة لمواطنيه. واعتقد، لأسباب متناقض لاحقاً في هذا الفصل، أن العلاج السياسي - الطبي الذي أوصى به، وهو إيقاف التغيير والعودة إلى القبليّة، كانت خاطئة بطريقة ميثوس منها. بيد أن التوصية، على الرغم من عدم جدواها كعلاج، تشهد بقوة أفلاطون على التشخيص. إنها تُبين أنه عرف ما كان ناقصاً، وأنه أدرك الضغط، والتعاسة، التي كان الشعب يكسب في ظلّهما، حتى على الرغم من أنه زاع عن ادّعائه الأساسي بأن عودتهم إلى القبليّة يمكن أن يقلل الضغط، ويستعيد لهم سعادتهم.

وفي نيتي أن أقدم في هذا الفصل دراسة موجزة جداً عن المادية التاريخية التي حملتني على أن أتسكّ بهذه الآراء. أمّا الملاحظات النقدية القليلة على المنهج المتبني، والقائمة على التفسير التاريخي، فسنجدها في الفصل الأخير من الكتاب. لذلك أكتفي هنا بالقول إنني لا أزعّم موقفاً علمياً لهذا المنهج، لأن اختبارات التفسير التاريخي لا يمكن أبداً أن تكون صارمة كاختبارات الفرض العادي. فالتفسير هو بصورة رئيسية وجهة نظر، تقع قيمتها في خصوصيتها، في قوتها على إلقاء الضوء على المادة التاريخية، إلى أن تؤدي بنا إلى العثور على مادة جديدة، وإلى مساعدتنا على تعقلها وتوحيدها. لذلك فما أقوله هنا ليس المقصود منه تقريراً دجماطيقياً، حتى ولو كنت أُعبر في بعض الأحيان عن آرائي بشجاعة.

1

تأصلت حضارتنا الغربية مع الاغريقين. فقد كانوا، فيما يبدو، أول من انتقل من التزعة القبليّة إلى التزعة الإنسانية. فدعونا نتأمل ماذا يعني ذلك.

يُشبه المجتمع القبلي الإغريقي القديم، من عدة أوجه، شعوباً مثل السيلوبونيزيين، والماوورين* على سبيل المثال. عصابات صغيرة من المحاربين، يسكنون عادة في مستوطنات محصنة، يحكمهم رؤساء أو ملوك القبيلة، أو أسر أرستقراطية، تشن الحرب كل ضد الأخرى في البحر والبر معاً. وكانت تُوجد، بطبيعة الحال، فروق عديدة بين طرق حياة الاغريق والسيلوبونيزيين، لأنه لا يوجد، باعتراف الجميع، تماثل في العنصية القبليّة. كما لا يوجد معيار لـ "طريقة الحياة القبليّة". ومع ذلك، يبدو لي أن هناك بعض الخواص التي يمكن أن توجد في معظم، إن لم يكن في كل، هذه المجتمعات القبليّة. وأعني اتجاهها السحري واللاعقلاني نحو عادات الحياة الاجتماعية والصرامة المناظرة لهذه العادات.

* وهم الذين يشكلون الشعب النيوزيلندي. (لترجم)

ولقد نوقش من قبل الاتجاه السحري للعادة الاجتماعية. وأحد عناصره الأساسية هو التمييز بين الانتظامات العرفية أو المصطلح عليها للحياة الاجتماعية، والانتظامات الموجودة في "الطبيعة"، وغالباً ما يراكب ذلك الاعتقاد بأن كليهما يستند إلى إرادة خارقة للطبيعة. ومن المحتمل أن تكون صرامة الحياة الاجتماعية، في معظم الحالات، مظهراً آخر فحسب لنفس الاتجاه. (وثمة أسباب للاعتقاد بأن هذا المظهر هو حتى أكثر يدائية، وأن الاعتقاد الخارق للطبيعة يُعدُّ نوعاً من عقلنة الخوف من تغير نظامٍ رئيسي - وهو الخوف الذي يمكننا أن نجده عند الأطفال الصغار جداً) وعندما أتحدث عن صرامة العنصرية القبلية، فإنني لا أعني بأنه ليس ثمة تغير يمكن أن يحدث في الطرق القبلية للحياة. وإنما أعني بالأحرى، أن التغيرات النادرة نسبياً لها خاصية التحولات أو التغيرات الدينية المفاجئة، أو لإدخال مُحَرَّمات محرية جديدة. إنها غير مستندة إلى محاولة عقلانية لتحسين الأحوال الاجتماعية. وبصرف النظر عن مثل هذه التغيرات - التي تُعدُّ نادرة - فإن المحرَّمات تنظم وتسود بقوة كل مظاهر الحياة. فهي لا تترك ثغرات كثيرة. وثمة مشاكل قليلة في هذا الشكل من الحياة، ولا توجد مشاكل في الحقيقة ذات طابع أخلاقي. ولا أعني القول إن عضو قبيلة لا يحتاج إلى كثير من البطولة والجَلَد لكي يتصرف وفقاً للمحرَّمات. وإنما ما أعنيه هو أنه نادراً ما يجد نفسه في موضع الشك عن الكيفية التي يجب أن يتصرف وفقاً لها. فالطريقة الصحيحة محددة دائماً، على الرغم من الصعوبات التي قد تعترضها. إنها محددة بالمحرَّمات، وبالمؤسسات القبلية السحرية التي لا يمكن أبداً أن تصبح موضوعات للنظر النقدي. ولا حتى هيراقليطس أمكنه أن يميز بوضوح بين القوانين الدستورية للحياة القبلية وقوانين الطبيعة، فكلاهما له نفس الطابع السحري. فاستناد المؤسسات إلى التقليد القبلي الجمعي لم يترك مكاناً للمسؤولية الشخصية. فالمحرَّمات التي تؤسس صورة ما من صور المسؤولية الجمعية قد تكون البشر لما نسميه المسؤولية الشخصية، بيد أنها تختلف عنها اختلافاً رئيسياً. فهي ليست مستندة إلى مبدأ معقول للمسؤولية، وإنما مستندة بالأحرى إلى أفكار سحرية، كفكرة استرضاء قوى المصير.

ومن المعروف تماماً إلى أي حد لا يزال هذا حياً. فطرق حياتنا الخاصة لا يزال يكتنفها الكثير من المحرَّمات: محرَّمات الطعام، ومحرَّمات الأدب، ومحرَّمات أخرى عديدة. ومع ذلك، توجد اختلافات ما هامة. إذ توجد في طرق حياتنا الخاصة، بين قوانين الدولة من جهة، والمحرَّمات التي تتبعها بالعادة من جهة أخرى، مجال يتسع دوماً للقرارات الشخصية، بمشاكلها ومسؤولياتها؛ ونحن على علم بأهمية هذا المجال. فقد تؤدي القرارات الشخصية إلى تعديل المحرَّمات، وحتى القوانين السياسية التي لم تعد محرَّمات... والاختلاف الكبير هو إمكانية التفكير العقلاني في هذه المسائل. ويبدأ التفكير العقلاني، بشكل ما، مع هيراقليطس... وبدءاً من الخمايون Alc-macon، وقالياس Phaleas، وهيبوداموس Hippodamus، وهرودوت Herodotus،

والسوفسطائيين، يتخذ البحث عن "الدستور الأفضل"، وبترتيب هؤلاء، سمة المشكلة التي يمكن مناقشتها بطريقة عقلانية. أما في عصرنا الحالي، فالعديد منا يتخذ قرارات عقلانية متعلقة بمرغوبة أو رفض تشريع جديد، وتغيرات مؤسساتية أخرى؛ أي قرارات مستندة إلى تقدير النتائج الممكنة، وإلى تفضيل واع لبعض منها. وتبين في كل ذلك المسؤولية الشخصية العقلانية.

وفيما يلي، سبطلق أيضاً على المجتمع السحري أو القبلي أو الجمعي اسم المجتمع المغلق، وعلى المجتمع الذي يجابه فيه الأفراد بقرارات شخصية، المجتمع المفتوح.

ويمكن مقارنة المجتمع المغلق بحق بمجتمع عضوي. ويمكن أن ينطبق عليه إلى حد كبير ما يُسمى بالنظرية العضوية أو البيولوجية للدولة. فالمجتمع المغلق يشبه القطيع أو القبيلة في أنه وحدة شبه عضوية يرتبط أعضاؤها بعضهم ببعض بروابط شبه - بيولوجية كالنسب، والحياة المشتركة، والمشاركة في الجهود المشتركة، والأخطار المشتركة، والأفراح المشتركة، والآثراح المشتركة. إنها لا تزال جماعة متعينة من أفراد متعينين، يرتبط كل منهم بالآخر ليس عن طريق علاقات اجتماعية مجردة فحسب، كتقسيم العمل وتبادل السلع، وإنما عن طريق علاقات فيزيقية متعينة كاللمس، والشم، والرؤية. وعلى الرغم من أن مجتمعاً مثل هذا قد يكون قائماً على العبودية، إلا أن وجود العبيد لا يحدث بالضرورة مشكلة تختلف في الأساس عن تلك التي تحدثها حيوانات مروضّة. ومع ذلك فتحة مظاهر مقروصة تجعل من المستحيل تطبيق النظرية العضوية بنجاح على مجتمع مفتوح.

والمظاهر التي أعنيها ترتبط بحقيقة أنه، في مجتمع مفتوح، يكافح أعضاء كثيرون من أجل الصعود الاجتماعي، واحتلال أمة أعضاء آخرين. وقد يؤدي هذا، على سبيل المثال، إلى ظاهرة اجتماعية هامة كالصراع الطبقي. ولا يمكننا أن نعثر على أي شيء شبيه بالصراع الطبقي في مجتمع عضوي. إذ أن خلايا أو أنسجة الكائن الحي التي يُقال أحياناً أنها تنطبق على أعضاء الدولة، قد تتنافس على طعام؛ بيد أنه ليس ثمة ميل متأصل في عضو السيقان يسعى إلى أن يصبح الدماغ، أو الأعضاء الأخرى للجسم أن تصبح البطن. ولأن لا شيء في الكائن العضوي يناظر واحدة من أكثر الخصائص أهمية للمجتمع المفتوح، المنافسة على المكانة بين أعضائه، فما يُسمى بالنظرية العضوية للدولة يستند إلى مماثلة باطلة. أما المجتمع المغلق، من ناحية أخرى، فلا يعرف الكثير عن هذه الميول. فمؤسساته، بما في ذلك طوائفه، لا تُمس، إنها محرمات. والنظرية العضوية هنا تجد مكاناً. لذلك فليس من المستغرب أن نجد أن معظم محاولات تطبيق النظرية العضوية على مجتمعنا ليست سوى أشكال مُقنعة من الدعاية للعودة إلى العنصرية القبلية.

والمجتمع المفتوح، نتيجة لفقد السمة العضوية، يمكن أن يصبح، في درجات، ما أود تسميته

"المجتمع المجرد" . . إذ ربما يفقد إلى حد كبير سمة أنه مجتمع متعين أو جماعة حقيقية من البشر، أو نظام من هذه الجماعات الحقيقية . . وربما يمكن شرح هذه النقطة، التي لم تُفهم إلا نادراً فيما سبق، بطريقة المبالغة . فقد نتصور مجتمعاً يتقابل فيه الناس عملياً وجهاً لوجه - وتُدار فيه كل الأعمال بواسطة أفراد في عزلة، يراسلون برسائل مكتوبة على الآلة الكاتبة، أو البرقيات، ويتجولون في سيارات مغلقة . (بل وسوف يسمح التلقيح الصناعي بالتكاثر دون عنصر شخصي) وقد يسمى مجتمع خيالي مثل هذا بـ "مجتمع مجرد تماماً أو مجتمع غير متشخص" والنقطة الهامة الآن هي أن مجتمعنا الحديث يشبه في كثير من مظاهره مثل هذا المجتمع المجرد تماماً . وعلى الرغم من أننا لا نتقل دائماً فرادى في سيارات مغلقة (وإنما نتقابل وجهاً لوجه مع آلاف الناس في الطريق) إلا أن النتيجة لا تختلف كثيراً عما لو لم نتقابل معهم، فتحسن لا نقيم كقاعدة أية علاقة شخصية مع زملائنا السائرين على أقدامهم . وبالمثل، قد لا تعني عضوية اتحاد عمال أكثر من امتلاك بطاقة عضوية، ودفع مساهمة مالية لسكرتير مجهول . والعديد من الناس في المجتمع الحديث ليس له اتصالات شخصية حميمة (أو قل عدد قليل منها) ويعيش منعزلاً وبدون هوية، وبالتالي في تعاسة . فعلى الرغم من أن المجتمع قد أضحي مجرداً، فإن التركيب البيولوجي للإنسان لم يتغير كثيراً؛ فلإنسان احتياجات اجتماعية لا يمكن إشباعها في مجتمع مجرد .

والصورة حتى في هذا الشكل مبالغ فيها جداً بطبيعة الحال . فلن يوجد أبداً أو لا يمكن أن يوجد أبداً مجتمع مجرد تماماً، أو حتى مجتمع تسود فيه سمة التجريد - كما لن يوجد مجتمع عقلاني تماماً، أو حتى مجتمع تسود فيه سمة العقلانية . فمازال البشر يكوّنون جماعات حقيقية، ويدخلون في صلات اجتماعية حقيقية من كل الأنواع، ويحاولون أن يشبعوا حاجاتهم الاجتماعية العاطفية بقدر استطاعتهم . ولكن معظم الجماعات الاجتماعية للمجتمع المفتوح الحديث (باستثناء بعض الجماعات الأسرية المحظوظة) ليسوا إلا بدائل هزيلة، لأنهم غير مستعدين للحياة المشتركة ولا يقوم العديد منهم بأية وظيفة في حياة المجتمع بوجه عام .

وثمة وجه آخر للمغالاة في الصورة، إنها لا تشمل حتى الآن على أية مكاسب تحققت، بل فقط على خسائر، ولكن هناك ثمة مكاسب . إذ قد تنشأ علاقات شخصية من نوع جديد يمكن الدخول فيها بحرية، بدلاً من كونها تتحدد بعوارض الميلاد، وتنشأ مع هذا فردانية جديدة . وبالمثل يمكن أن تلعب الروابط الروحية دوراً رئيسياً حيث تضعف الروابط البيولوجية أو الجسدية وهلم جرا . وأياً ما كان الأمر، فأرجو أن يكون مثالنا قد أوضح بما لا يدع مجالاً للشك ما هو المقصود بالمجتمع الأكثر تجريداً في مقابلة الجماعة الاجتماعية الأكثر تعيناً وحقيقية . وسيكون قد أوضح أن مجتمعاتنا المفتوحة الحديثة تعمل بشكل كبير استناداً إلى العلاقات المجردة، مثل التبادل أو

احتياجاتنا الاجتماعية العاطفية على الأقل، والاهتمام بأنفسنا، وقبول المسؤوليات... وينبغي، فيما اعتقد، أن نتحمل هذا التوتر كضمن لابد من دفعه لكل زيادة في المعرفة، وفي المعقولية، وفي التعاون، وفي المساعدة المتبادلة، ومن ثم في فرصنا في البقاء وفي حجم السكان... إنه الثمن الذي علينا أن ندفعه لكوننا بشراً.

وهذا التوتر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمشكلة التوتر القائم بين الطبقات الناتج، أول الأمر، عن انهيار المجتمع المغلق... والمجتمع المغلق ذاته لا يعرف هذه المشكلة... فأعضاءه الحاكمون، على الأقل، يعتبرون العبودية، ونظام الطوائف، وحكم الطبقة أشياء "طبيعية" بمعنى أنها لا تُناقش... ولكن مع انهيار المجتمع المغلق، اختفى هذا التأكيد، ومعه كل شعور بالأمن. فالمجتمع القبلي (وقدما بعد "المدينة") إنما هو موطن الأمان لعضو القبيلة. فهو محاط بأعداء ويقوى سحرية خطيرة بل وعدائية، مما يجعله يشعر بالمجتمع القبلي شعور طفل بأسرته وبيته، حيث يلعب فيه دوراً محدداً، دوراً يعرفه تماماً، ويلعبه جيداً. ولقد كان تأثير المجتمع المغلق على المواطنين هو نفسه الذي يمكن أن يتعرض له الأطفال عندما يحدث نزاع أسري خطير، وانهيار للبيت الأسري. وكان هذا النوع من التوتر - بالطبع - تشعر به الطبقات المميزة بعد أن أصبحت مهددة أكثر مما يشعر به أولئك الذين كانوا من قبل مكبوتين، ولكن حتى هؤلاء كانوا يشعرون بعدم الارتياح، فهم أيضاً خائفون من انهيار عالمهم "الطبيعي"؛ وعلى الرغم من استمرارهم في الكفاح، فكثيراً ما أحجموا عن استغلال انتصاراتهم على أعدائهم الطبقيين المدعومين بالتقاليد، وبالوضع الحالي، وبمستوى أعلى من التربية، وبإحساس بسلطة طبيعية.

وفي ضوء هذا يتعين علينا أن نفهم تاريخ إسبرطة، التي حاولت بنجاح إيقاف هذه التطورات، وكذلك تاريخ أثينا، الرائدة في الديمقراطية.

وربما كان من أكثر الأسباب قوة لانهيار المجتمع المغلق هو تطور الاتصالات البحرية والتجارة. فالاتصال الوثيق مع قبائل أخرى يؤدي إلى تقويض الإحساس بالحاجة، وهو ذلك الإحساس الذي تقوم عليه المؤسسات القبلية. ويبدو أن التجارة، المبادرة التجارية، هي أحد الأشكال القليلة التي يمكن للمبادأة الفردية، والاستقلال الفردي؛ التعبير عن نفسيهما من خلالها، حتى في مجتمع لا تزال تسود فيه القبلية. هاتان الخاصيتان، صناعة البحر والتجارة، أصبحتا السمتين الرئيسيتين للاستعمار الأثيني كما تطور في القرن الخامس ق. م. ولقد شُخص الأوليغاركيون، أعضاء الطبقات المميزة، أو التي كانت مميزة في أثينا، هاتين الخاصيتين كأخطر التطورات على الإطلاق. فلقد أصبح واضحاً بالنسبة لهم أن تجارة أثينا، ونزعتها التجارية المالية، وسياستها البحرية، وميولها الديمقراطية؛ تُعد أجزاء لحركة واحدة، وأنه كان من المستحيل هزيمة الديمقراطية بدون

الوصول إلى جذور الشر وتحطيم كل من السياسة البحرية والإمبراطورية. بيد أن السياسة البحرية لاثينا كانت مستندة إلى موانئها، وخصوصاً بيرايوس Piraeus، مركز التجارة ومعقل الحزب الديمقراطي، واستراتيجياً، على الحوايط التي حصّنت أثينا، ثم بعد ذلك على الحوايط الطويلة التي ربطتها بميناءي بيرايوس وفاليروم Phlerum. وبناءً على ذلك، نجد أنه لأكثر من قرن كانت الامبراطورية، والأسطول، والميناء، والحوايط مكروهة من قبل أحزاب أثينا الأوليجاركية، بوصفها رموزاً للديموقراطية ومصادر قوتها، التي كانوا يأملون في تدميرها ذات يوم.

ويمكن العثور على أدلة كثيرة على هذا التطور في كتاب ثيوسيديد Thucydides "تاريخ الحرب اليلوبونيزية"، أو بالأحرى، الحريين العظمين 341 - 421 و 419 - 403 ق. م.، بين الديمقراطية الأثينية والقبليّة الأوليجاركية المكبوحّة في إسبرطة. وعند قراءة ثيوسيديد لا ينبغي أن ننسى أبداً أن قلبه لم يكن مع أثينا، مدينته الأصلية. وعلى الرغم من أنه لم يتم بوضوح للجناح المتطرف للنوادي الأوليجاركية الأثينية الذي تأمر من بداية الحرب لآخرها مع العدو، فقد كان بالتأكيد عضواً في الحزب الأوليجاركي، ولم يكن صديقاً لا للشعب الأثيني، وهو الشعب الذي كان قد نفاه، ولا لسياسته الاستعمارية. (ولا أنوي أن أقُل من شأن ثيوسيديد، المؤرخ الأعظم، الذي ربما كان أعظم المؤرخين على الإطلاق. فمهما كان نجاحه في التأكيد على الوقائع التي يسجلها، ومهما كانت جهوده مخلصّة في عدم التحيز؛ إلا أن تعليقاته وأحكامه الأخلاقية تمثّل تفسيراً، أو وجهة نظر، وفي ذلك لنا في حاجة إلى أن نتفق معه). إنني أقتبس أولاً من فقرة تصف سياسة ثيمستوكليس Themistocles في عام 482 ق. م.، أي قبل نصف قرن من الحرب اليلوبونيزية: "أقنع ثيمستوكليس أيضاً الأثينيين على أن يتموا بناء ميناء بيرايوس... ولأن الأثينيين كانوا قد ارتادوا البحر في ذلك الوقت، فقد اعتقد أن لديهم فرصة كبيرة لبناء إمبراطورية. وكان أول من تجرأ على القول أنهم ينبغي أن يجعلوا البحر منطقة لنفوذهم...". وبعد خمسة وعشرين عاماً "بدأ الأثينيون في بناء حوايطهم الطويلة إلى البحر: إحداها إلى ميناء فاليروم Phalerum، والأخرى إلى ميناء بيرايوس". ولكن هذه المرة، وقبل ست وعشرين عاماً من اندلاع الحرب اليلوبونيزية كان الحزب الأوليجاركي مدركاً تمام الإدراك معنى هذه التطورات. ونسمع من ثيوسيديد أنهم لم يقلصوا حتى أكثر خياناتهم فظافة، وكما يحدث أحياناً مع الأوليجاركين تغلبت المصلحة الطبقية على وطنيتهم، ولقد أُتيحت الفرصة على هيئة حملة إسبرطية عدائية على شمال أثينا. وقرروا التواطؤ مع إسبرطة ضد وطنهم. ويكتب ثيوسيديد: "وكان بعض الأثينيين يعرضون عليهم (أي على الأثينيين) اتفاقات فردية على أمل أن ذلك سيضع نهاية للديموقراطية، ولبناء الحوايط الطويلة... ولكن الأثينيين الآخرين... شكوا في خطتهم ضد الديمقراطية." ولذلك اتجه المواطنون الأثينيون المخلصون لملاقاة الإسبرطيين، بيد أنهم

هزَمُوا. ويتضح من ذلك، أنهم قد أضعفوا العدو بدرجة كافية منعتهم من التحام قواته بالطابور داخل مدينتهم ذاتها. وبعد عدة أشهر اكتملت الحوائط الطويلة، مما يعني أن الديمقراطية استطاعت أن تتمتع بالأمان طالما أنها دعمت تفوقها البحري.

وتلقي هذه الواقعة الضوء على توتر الموقف الطبقي في أثينا، حتى قبل ستة وعشرين عاماً من اندلاع الحرب البيلوبونيسية، التي أصبح أثناءها الموقف أكثر سوءاً. كما أنها تلقي الضوء على الوسائل المستخدمة من قبل الحزب الأوليجاركي المخرب والميال للإسبرطيين. ويجب أن نلاحظ، أن سيوسيديد يشير إلى خيانتهم بطريقة عابرة فحسب، وأنه لا يلومهم، على الرغم من أنه في مواضع أخرى يتحدث بقوة أعظم ضد النضال الطبقي والروح الحزبية. والفقرات المقتبسة التالية، المكتوبة كانطلياع عام عن الثورة الكورسيرة التي اندلعت عام ٤٢٧ ق. م. تعد مثيرة، أولاً لأنها تعطي صورة ممتازة للموضع الطبقي، وثانياً، لأنها تعبير عن الكلمات القوية التي استطاع ثيوسيديد العثور عليها عندما أراد وصف الميول المناظرة عند ديموقراطيي كورسيرا. (ولكي نحكم على افتقاره للمزاجية، يتعين أن نتذكر أنه في بداية الحرب كانت كورسيرا أحد الحلفاء الديموقراطيين لأثينا، وأن التمرد كان قد بدأه الأوليجاركيون). وفضلاً عن ذلك، تعد الفقرة تعبيراً ممتازاً عن الإحساس بانهايار اجتماعي عام، إذ يكتب ثيوسيديد: "وكان العالم الهيليني كله تقريباً في اضطراب سياسي... ففي كل مدينة، كان قواد الأحزاب الديموقراطية والأوليجاركية يبدلون قصارى جهدهم، أحدهم لاجتذاب الأثينيين، والآخر لاجتذاب السيديوتيين... وكان رباط الحزب أقوى من رباط الدم... واستخدم القواد على كلا الجانبين أسماء مستعارة، يدعي الحزب الأول أنه يدعم المساواة الدستورية للكثيرين، والآخر الحكمة لطبقة النبلاء؛ وهم في الحقيقة جعلوا المصلحة العامة جائزتهم، مدّعين، بالطبع، ولاءهم. ولقد استخدموا كل الطرق التي يمكن أن تخطر على بال لكي يحصل كل منهم من الآخر على الأفضل... ولقد تمخّضت هذه الثورة عن كل أشكال الشر في هيلاس Hellas... فانتشرت في كل مكان روح العداوة العادرة. فلم يكن ثمة عهد كاف، ولا قسم غليظ كاف لمصالحه الأعداء. وإنما كان كل إنسان متحمس فقط للقناعة بأنه لم يعد أي شيء آمناً."

ويمكن تقسيم المغزى الكامل لمحاولة قبول الأوليجاركيين الأثينيين مساعدة إسبرطة وإيقاف بناء الحوائط الطويلة عندما ندرك أن هذا الموقف العادر لم يكن قد تغير عندما كتب أرسطو كتابه "السياسة" بعد ذلك بأكثر من قرن. ونسمع هناك عن قسّم أوليجاركي قال عنه أرسطو، "إنه رائج الآن". وهو: "أتعهد بأن أكون عدواً للشعب، وأن أبدأ قصارى جهدي في أن أقدم له نصيحة مؤذية!" ومن الواضح أنه لا يمكننا فهم هذه الفترة بدون ذكر هذا الموقف.

ولقد أشرتُ عاليه إلى أن ثيوسيديد كان معادياً للديموقراطية. ويضحى هذا واضحاً عندما نتأمل وصفه للإمبراطورية الأثينية، والطريقة التي صور بها كراهية المقاطعات الإغريقية المختلفة لها. فهو يخبرنا بأن الشعور الذي كان سائداً هو أن هيمنة أثينا على إمبراطوريتها لم يكن أفضل من الحكم الاستبدادي وأن كل القبائل الإغريقية كانت تخشاه. وفي وصف الرأي العام عند تشوب الحرب اليلوبونيزية، يعتبر ناقداً باعتدال لإسبرطة، وناقداً بشدة للإمبريالية الأثينية. . . إذ كان الشعور العام للشعوب مؤيداً بقوة السيدومينيين، La caedaemonian لأنهم كانوا يؤكّدون أنهم محررو هيلاس. . . وكانت المدن والأفراد تواقين لمساعدتهم. . . وكان المسخط العام ضد الأثينيين شديداً. فكان بعضهم تواقاً للتحرر من أثينا، في حين كان الآخرون يخشون من السقوط في براثن سلطتها. . . ومن الأهمية بمكان أن هذا الحكم على الإمبراطورية الأثينية قد أصبح، إن قليلاً أو كثيراً، الحكم الرسمي لـ "التاريخ"، أي لمعظم المؤرخين. وينفس الدرجة التي كان الفلاسفة يشعرون فيها بصعوبة تحرير أنفسهم من وجهة نظر أفلاطون، ومن ثم كان المؤرخون متجهين نحو وجهة نظر ثيوسيديد، وكعثال على ذلك، يمكتني أن اقتبس من ماير Meyer (أفضل المؤرخين الألمان لهذه الفترة)، والذي يردد ببساطة أقوال ثيوسيديد عندما يقول: "ولقد كان تعاطف عالم الإغريق المتعلم يتعد عن أثينا".

يبد أن مثل هذه العبارات تُعدُّ فقط تعبيرات عن وجهة نظر معارضة للديموقراطية. فكثير من الوقائع التي سجلها ثيوسيديد، على سبيل المثال، الفقرة المقتبسة التي تصف اتجاه قادة الحزب الديموقراطي والأوليغاركي، إنما تبين أن إسبرطة كانت "محبوبة" ليس فقط من شعوب الإغريق فحسب، وإنما بين الأوليغاركيين أيضاً، بين "المعلمين"، كما يصوغها ماير بطريقة ظريفة جداً. وحتى ماير يعترف بأن "الجماهير ذات الميل الديموقراطية كان يحدوها الأمل في العديد من الأماكن لانتصارها. . . أعني لانتصار أثينا؛ وتشتمل حكاية ثيوسيديد على العديد من الأمثلة التي تبرهن على شعبية أثينا بين الديموقراطيين والمكيوتين. ولكن من ذا الذي يولي عنايته لرأي الجماهير غير المتعلمة؟ فلو كان ثيوسيديد و "المعلمون" يقررون أن أثينا كانت مستبدة، فلا بد أنها كانت كذلك.

ومن الأهمية بمكان أن نفس المؤرخين الذين هتفوا لروما بسبب انجازها العظيم، تأسيس إمبراطورية عالمية، يدينون أثينا لمحاولتها إنجاز شيء أفضل. والحقيقة أن نجاح روما فيما أخفقت فيه أثينا لا يُعدُّ تفسيراً كافياً لهذا الموقف. فهم لم يؤثروا أثينا في الحقيقة لإخفاقها، لأنهم يشمترون من فكرة أن تلك المحاولة كان يمكن أن تكون ناجحة. فهم يعتقدون أن أثينا كانت ديموقراطية بلا رحمة، فأضمر لها هؤلاء الكراهية بدورهم. بيد أن هذا الرأي - أسطورة علم التسامح الثقافي لأثينا الديموقراطية - يجعل الوقائع المعروفة بلا معنى، وكذلك وقبل كل شيء الانتاجية الروحية

المدهشة لأثينا في هذه الفترة بالذات. وحتى ماير يضطر إلى الاعتراف بهذه الإنتاجية. إذ يقول بتواضع جم: "وما أنتجته أثينا في عقد يتساوى تماماً مع أحد أفضل عقود الأدب الألماني ازدهاراً." ولقد كان بركليس Pericles، وهو القائد الديموقراطي لأثينا في هذا الوقت، على حق تماماً عندما أطلق عليها اسم "مدرسة هيلاس".

ولعلني أكون بعيداً عن الدفاع عن كل شيء فعلته أثينا في بناء امبراطوريتها، ولا أرغب بالتأكيد في أن أدافع عن الهجوم الوحشي (لو أن مثل هذا قد حدث)، أو الأعمال الوحشية، ولن أنسى أن الديموقراطية الأثينية كانت لا تزال قائمة على العبودية. ولكن من الضروري، فيما أعتقد، أن نرى أن الإقصاء القبلي والثقة بالنفس أمكن إبطالهما فقط عن طريق شكل ما من أشكال الإمبريالية. ويتعين أن يقال إن بعض المعايير الإمبريالية التي فرضتها أثينا كانت بالأحرى ليبرالية. وأحد الأمثلة ذات الأهمية القصوى هي حقيقة أن أثينا عرضت في عام 405 ق. م. على حليفاتها، جزيرة ساموس الأيونية "أن يصبح سكان ساموس أثينيين من الآن فصاعداً، وأن كلتا المدينتين يجب أن تكونا دولة واحدة، وأن يتنظم الساموسيون شؤونهم الداخلية كما يعن لهم، وأن يُنقوا على قوانينهم". ومثال آخر، هو طريقة أثينا في فرض الضرائب على امبراطوريتها. فلقد قيل الكثير عن هذه الضرائب، أو الجزى، والتي وصفت، بشكل غير منصف على ما أعتقد، بأنها طريقة مخزية ومستبدة لاستغلال المدن الأصغر. وفي محاولة لتقييم مغزى هذه الضرائب يتعين علينا، بالطبع، أن نقارنها بحجم التجارة التي كان يحميها، في المقابل، الأسطول الأثيني. ونستقي المعلومات الضرورية من ثيوسديد، الذي يعلمنا بأن الأثينيين فرضوا على حلفائهم في 413 ق. م. "بدلاً من الجزية، رسماً بواقع 5 في المائة عن كل الأشياء المستوردة والمصدرة عن طريق البحر، وأنهم اعتقدوا أن هذا سيغل حصيله أكثر". وهذا التدبير الذي تم تبنيه تحت وطأة الحرب، يمكن مقارنته لصالحه على ما أعتقد، بالوسائل الرومانية للمركز. فلقد أضحي الأثينيون، بهذه الطريقة الضريبية مهتمين بتطوير التجارة الخليفة، وكذلك بروح المبادرة، والاستقلالية لمختلف أعضاء امبراطوريتهم. ولقد تطورت الامبراطورية الأثينية في الأساس من عصبية من المتساوين، وعلى الرغم من الهيمنة الوقتية لأثينا، والتي انتقدت علانية من قبل بعض مواطنيها (قارن قصة ليزستراتا Lysistrata لأرسطوفان)، فيبدو أن اهتمامها بتطوير التجارة، كان من الممكن أن يؤدي، إن أجلاً أو عاجلاً، إلى نوع من أنواع التكوين الفيدرالي. وعلى الأقل فنحن لا نعرف في حالتها شيئاً مثل الطريقة الرومانية في نقل الممتلكات الثقيلة من الإمبراطورية إلى المدينة المهيمنة، أي النهب. ومهما يمكن أن يقال ضد حكومة الأثرياء، فهي أفضل من حكم الناهيين.

ويمكن أن يؤيد هذا الرأي الإطرائي للإمبريالية الأثينية بمقارنته بالوسائل الإمبراطورية لتسيير

الشؤون الخارجية. فهي محددة بالهدف النهائي الذي سيطر على سياسة إسبرطة، بمحاولتها كبح كل تغيير، والعودة إلى النظام القبلي. (وهذا مستحيل، كما سوف أؤكد فيما بعد. فالطهارة التي فُقدت ذات يوم، لا يمكن استرجاعها، ومجتمع مغلق مكبوح اصطناعياً، أو نظام قبلي مهذب لا يمكن أن يساوي الشيء الأصلي). وكانت المبادئ السياسية الإمبراطورية الخارجية هي: (1) حماية نظامها القبلي المكبوح؛ منع كل المؤثرات الخارجية التي يمكن أن تشكل خطراً على صلابة المحرمات القبلية. (2) نزعة معادية للإنسانية: منع كل المساواتية، والديموقراطية، والفردانية على وجه الخصوص. (3) سياسة وطنية تهدف إلى تحقيق الإكفاء الذاتي؛ لكونها غير معتمدة على التجارة. (4) نزعة معادية للعالمية أو نزعة إقليمية: دعم التمييز بين قبيلتك وجميع القبائل الأخرى؛ ولا تختلط مع الأدنى منك مرتبة. (5) السيادة: سيطر على جيرانك واستعبدتهم. (6) لا تصبح أضخم من اللازم: "إذ يتعين على المدينة أن تنمو فقط طالما كان في مقدورها أن تفعل ذلك دون أن تضعف وحدتها...". وخصوصاً دون المخاطرة بإدخال اتجاهات ذات نزعة عالمية... ولو أننا قارنا بين هذه الاتجاهات الرئيسية الستة وتلك التي تنادي بها النزعة الاستبدادية الحديثة، لرأينا أنها تتفق معها بصورة أساسية فيما عدا الأخيرة منها. ويمكن أن يوصف الاختلاف بالقول أن النزعة الاستبدادية الحديثة تبدو ذات اتجاهات امبريالية. بيد أن هذه النزعة الإمبريالية تقتصر إلى عنصر العالمية المتسامحة، وأن طموحات العالم الواسع للاستبداديين المحدثين تكون مقروضة عليهم، كما كانت ضد إرادتهم. وهناك عاملان مسئولان عن هذا: الأول هو الميل العام لكل الطغاة أن يبرروا وجودهم بانقاذ الدولة (أو الشعب) من أعدائه - وهو ميل يجب أن يقود، عندما يكون الأعداء القدامى قد أخضعوا بنجاح، إلى خلق أو اختراع أعداء جدد. والعامل الثاني هو محاولة تنفيذ النقطتين الوثيقتين الصلة (2) و (5) للبرنامج الاستبدادي. فالنزعة الإنسانية، يجب أن تستبعد طبقاً للنقطة (2) قد أصبحت عالمية بدرجة يصعب معها مقاومتها بفاعلية في الداخل، إلا إذا كان في مقدورك تخطيطها في كل أنحاء العالم. بيد أن عالمنا قد أصبح صغيراً بدرجة تجعل كل إنسان فيه جاراً لأخيه الإنسان، ولذلك فمن أجل تحقيق النقطة (5) يجب أن يكون كل شخص مهماً عليه ومستعبداً له. ولكن في العصور القديمة، لا يمكن لأي شيء أن يكون أكثر خطراً على أولئك الذين تبنا النزعة الإقليمية مثل إسبرطة، من الامبريالية الآثينية، بميلها المتأصل للتوسع في رابطة اقتصادية من المدن الإغريقية، وربما حتى في امبراطورية عالمية للإنسان.

وتلخيصاً لتحليلنا حتى الآن، يمكننا القول: إن الثورة السياسية والروحية التي كانت قد بدأت بانهايار القبلية الإغريقية وصلت إلى ذروتها في القرن الخامس، بانفلاق الحرب البيلوبونيسية. ولقد تطورت إلى حرب طبقية عنيفة، وفي نفس الوقت إلى حرب بين المدينتين الرائدتين للإغريق.

ولكن كيف يمكننا تفسير واقعة أن أثينيين مبرزين مثل ثيوسيديد وقفوا إلى جانب الرجعية ضد هذه التطورات الحديثة؟ لا أعتقد أن المصلحة الطبقية تُعدُّ تفسيراً كافياً، لأن ما يجب تفسيره هو: في حين أصبح العديد من النبلاء الشبان الطموحين أعضاء نشيطين في الحزب الديمقراطي، على الرغم من أنهم لم يُعَوَّلَ عليهم دائماً، فقد قاوم جاذبيته بعض من أفضل المفكرين وأكثرهم موهبة. ويبدو أن النقطة الرئيسية هي أنه على الرغم من أن المجتمع المفتوح كان في ذلك الحين موجوداً، وعلى الرغم من أنه قد بدأ، عملياً، يتطور قِيماً جديدة، ومعايير مساواتية جديدة للحياة، كان لا يزال ثمة شيء ما مفقود بالنسبة إلى "المتعلمين". قالوا للجديد للمجتمع المفتوح، ولاؤه الوحيد الممكن، النزعة الإنسانية؛ كان قد بدأ توطيد أركانه، ولكنه لم يكن قد تشكل بعد. وفي ذلك الوقت، لا يمكن للمرء أن يرى أكثر من حرب طبقية، خوف الديمقراطيين من ردِّ فعل الأوليجاركي، وتهديد التطورات الثورية الجديدة. ولذلك فقد كان ردُّ الفعل ضد هذه التطورات - مدعوماً بالعديد من جوانب التقليد، هو الدعوة للدفاع عن الفضائل القديمة والدين القديم. وتناشدت هذه الاتجاهات مشاعر معظم الناس، وأدت شعبيتها إلى ظهور حركة لا بدَّ أن يكون قد انتسب إليها العديد من الرجال المستقيمين أخلاقياً حتى في أثينا، وإن كان الإسبرطيون وأصدقاؤهم والأوليجاركيون قد تولَّوا قيادتها واستخدموها لأغراضهم الذاتية. ومن شعار الحركة "عدُّ إلى دولة أجدادك"، أو "عدُّ إلى الدولة الأبوية القديمة"، اشتقَّ لفظ "وطني" * وقد يلزم التشديد على أن الاعتقادات الشائعة بين أولئك الذين دعموا هذه الحركة "الوطنية" قد أسيء استخدامها بفظاظة من قبل أولئك الأوليجاركيين الذين لم يتفروا من التخلّي عن مدينتهم الخاصة للأعداء، على أمل الحصول على دعم ضد الديمقراطيين. وكان ثيوسيديدس أحد القواد الممثلين لهذه الحركة التي تدعو إلى "الدولة الأبوية"، وعلى الرغم من أنه ربما لم يؤيد التصرفات الخائنة لمعارضى الديمقراطية المتطرفين، فإنه لم يستطع أن يخفي تعاطفه مع هدفهم الأساسي: أن يكبحوا التغير الاجتماعي، وأن يحاربوا الإمبريالية ذات النزعة العالمية للديموقراطية الأثينية، وأدوات ورموز قوتها، الأسطول، والحوائط، والتجارة. (ومن منظور تعاليم أفلاطون المتعلقة بالتجارة، فمن المثير أن نلاحظ كم كان الخوف من النزعة التجارية. فعندما عاد ملك الإسبرطيين، ليساندر، بعد انتصاره على الأثينيين عام 404 ق. م. . . . ، بغنيمة عظيمة، هي "الوطنيون" الإسبرطيون، أعني أعضاء الحركة التي تدعو إلى "الدولة الأبوية"، حاول أن يمنع استيراد الذهب. وعلى الرغم من أنه سمح به في نهاية الأمر؛ فإن ملكيته كانت مقصورة على الدولة، وفرضت العقوبة القصوى على كل مواطن يضبط ويحوزته معادن ثمينة. وفي كتاب القوانين لأفلاطون، نجد أنه يدعو لإجراءات شبيهة للغاية بذلك.)

* أي : أن لفظة أبوي paternal اشتق منها لفظة وطني patriot. (المترجم)

وعلى الرغم من أن الحركة "الوطنية" كانت جزئياً تعبيراً عن الحنين إلى العودة لصور من الحياة أكثر استقراراً، وإلى الدين، وآداب السلوك، والقانون، والنظام؛ فإنها كانت ذاتها متعفة تماماً أخلاقياً، وفاسدة. فقد تلاشى إيمانها القديم، وحلَّ محله بدرجة كبيرة استغلال رأائي وحتى تهكمي للمشاعر الدينية. وكان من الممكن اكتشاف العدمية، كما صورها أفلاطون في وصف كاليكليس وترازيماخوس، في أي مكان وسط الأرستقراطيين "الوطنيين" الشبان، الذين إذا ما منحت لهم الفرصة، أصبحوا قوَّاداً للحزب الديموقراطي. وربما كانت السمة الأكثر وضوحاً لهذه العدمية القائد الأوليجاركي الذي ساعد على توجيه الضربة المميتة لأثينا، نعتي كريتياس عم أفلاطون وقائد الطُّعَاة الثلاثين.

لكن في هذا الوقت، وفي نفس الجيل الذي انضم إلى ثيوسيديدس بزغ إيمان جديد بالعقل، والحرية، والأخوة لكل البشر - وهو الإيمان الجديد، الذي اعتقد أنه الإيمان الوحيد الممكن، للمجتمع المفتوح.

4

ويطرب لي أن أطلق على هذا الجيل الذي يمثل نقطة تحول في تاريخ الجنس البشري اسم الجيل العظيم؛ فهو الجيل الذي عاش في أثينا مباشرة قبل، وخلال الحرب البيلوبونيسية. وكان يوجد بينهم محافظون عظام، مثل سوفوكليس، أو ثيوسيديدس. كما كان يوجد بينهم رجال يمثلون مرحلة الانتقال وهم أولئك الذين كانوا مترددين مثل يوريبديس Euripides*، أو متشككين، مثل أرمستوفان Arisophanes**. ولكن كان هناك أيضاً الرائد العظيم للديموقراطية، بيركليس، الذي صاغ مبدأ المساواة أمام القانون، ومبدأ الفردية السياسية، وهيودوت Herodotus***، الذي قوبل بالترحيب والتحية في مدينة بيرقليس بوصفه مؤلف العمل الذي مجّد هذه المبادئ. وبيروتاغوراس، المولود في أباديران والذي أضحى ذا تأثير في أثينا، ومواطنه ديموقريطس الذي يجب أيضاً أن يُعدَّ بين الجيل العظيم. وهم الذين صاغوا المبدأ الذي ينادي بأن المؤسسات الإنسانية

* يوريبديس (484؟ - 604 ق.م.) هو الكاتب المسرحي اليوناني الشهير، ويُعتبر أعظم شعراء التراجيديات اليونان. وضع نحواً من 92 مسرحية. (المترجم)

** أرمستوفان (450؟ - 388 ق.م.) : وهو أيضاً مؤلف مسرحي يوناني، يُعتبر من أعظم شعراء الكوميديا في الأدب الإغريقي القديم. (المترجم)

*** هيودوت (485؟ - 425 ق.م.) : مؤرّخ يوناني شهير، يُعرف بـ "أبي التاريخ"، وصاحب القول الشهير : "مصر هبة النيل". (المترجم)

للغة، والعادة، والقانون ليست ذات سمة سحرية كالمحرّمات، ولكنها من صنع الإنسان، ليست طبيعية، وإنما عرفية، مُصنّعة، في نفس الوقت، على أننا مسؤولون عنها. وكانت توجد آنذاك مدرسة جورجياس - التي تضم ألكيداماس، وليكوفرون وأنتستين، الذين طوّروا العقائد الرئيسية المعادية للعبودية، وللتزعة الحمائية العقلانية، والمعارضة للقومية، أعني العقيدة التي تدعو إلى امبراطورية عالمية للإنسان. وكان يوجد، ربما أعظم من كل هؤلاء، سقراط، الذي علّم الدرس بأنه يتعيّن علينا أن نضع ثقتنا في العقل الإنساني، وأن نحترس في الوقت نفسه من الدجماطيقية، وأنه يجب علينا أن ننأى بأنفسنا عن كل من كره التفكير أو النقاش، وعن الارتياح في النظرية، وفي العقل، وعن الاتجاه السحري لأولئك الذين يقيمون صنماً للحكمة، وهو الذي علّمنا، بعبارة أخرى، أن روح العلم هي النقد.

ولأنني لم أقل حتى الآن الكثير عن برقليس، ولم أقل شيئاً على الإطلاق عن ديموقريطس، فربما أستعين ببعض أقوالهما لكي أوضح الإيمان الجديد. ولنأخذ ديموقريطس في بادئ الأمر: "ليس بداعي الخشية، وإنما بداعي الإحساس بما هو صواب، يتعيّن علينا أن نمتنع عن ارتكاب الخطأ . . . تستند الفضيلة - قبل كل شيء - إلى احترام الناس الآخرين . . . كل إنسان إنما هو عالم صغير في ذاته . . . يتعيّن علينا أن نبذل أقصى ما في وسعنا لمساعدة أولئك الذين قد عانوا من الجور . . . أن تكون صالحاً يعني ألا ترتكب الخطأ، وأيضاً ألا ترغب في ارتكاب الخطأ . . . العبرة بالأفعال الحميدة، وليس بالكلمات المعسولة . . . البؤس في ظل نظام ديموقراطي أفضل من الرخاء الذي يدعى أنه يرافق الارستقراطية أو الملكية، مثلما الحرية أفضل من العبودية . . . يتسبب الرجل الحكيم إلى كل الأقطار، لأن موطن الروح العظيمة هي العالم كله. ويُنسب إليه أيضاً تلك الملاحظة المتعلقة بالعالم الحق: "أن أكتشف قانوناً سيباً واحداً؛ أكرم من أن أتوج ملكاً على فارس!"

وفي تشديدها على التزعة الإنسانية والتزعة العالمية، فإن بعضاً من شذرات ديموقريطس هذه يبدو كما لو كانت موجّهة مباشرة ضد أفلاطون، على الرغم من أنها من تاريخ سابق له. ويصلنا نفس الانطباع، وإنما بقوة أكبر، من مرثية مآتم برقليس الشهيرة، والتي أُلقيت قبل نصف قرن على الأقل من كتابة محاورة الجمهورية . . . ولقد اقتبست عبارتين من هذه المرثية في الفصل السادس، عند مناقشة التزعة المساواتية، ولكن ينبغي اقتباس فقرات قليلة هنا بصورة كاملة أكثر لكي نعطي انطباعاً أوضح عن روحها. "إن نظامنا السياسي لا يتنافس المؤسسات القائمة في أماكن أخرى. فتحن لا تقلّد جيراننا، وإنما نحاول أن نكون مثلاً. وإدارتنا تحبّد الكثير أكثر من القليل، ولهذا السبب فهي تُسمّى ديموقراطية. وقوانيننا تقدّم عدلاً متساوياً للجميع في نزاعاتهم الخاصة بالطريقة نفسها، ولكننا لا نهمل مزاعم الإمتياز. فعندما يميّز مواطن نفسه، سيُسَدّعى عندئذ

لخدمة الدولة، تميزاً له عن الآخرين، وليس كمسألة امتياز، وإنما كمكافأة على الجدارة؛ والفقر ليس عائقاً . . . فالحرية التي تنعم بها تمتد أيضاً إلى الحياة العادية؛ فلا أحد منا يرتاب في الآخر، ولا تدمر من جارنا إذا ما عنَّ له أن يمضي في طريقه الخاص . . . بيد أن الحرية لا تجعلنا بلا قانون. فقد جُبلنا على احترام القضاة والقوانين، وعلى علم نسيان أنه يجب أن نحمي المظلوم. وتعلمنا أيضاً أن نطيع تلك القوانين غير المكتوبة التي يكمن التصديق عليها فحسب في الإحساس الكلي بما هو صواب . . . ولقد نشأت مدينتنا على الإنفتاح على العالم؛ فلا تطرد غريباً على الإطلاق . . ونحن أحرار في أن نحيا وفق ما يرضينا تماماً، وتكون مع ذلك مستعدين لأن نواجه أي خطر . . . إننا نحب الجمال دون الانغماس في التروات، وعلى الرغم من أننا نحاول أن نحسن ثقافتنا، فإن هذا لا يضعف من إرادتنا . . . ولا يلحق بأحد منا العار إذا اعترف بفقره؛ ولكن من العار ألا نبذل قصارى جهدنا لتجنيبه هذا الأمر. لا يتجاهل مواطن أثيني الأحوال العامة عندما يُعنى بشؤونه الخاصة إننا نعتبر من لا يولي اهتماماً بالدولة إنساناً غير ذي نفع ولن نصفه بأنه غير مؤدٍ؛ وعلى الرغم من أن القليل فقط قد ينشئ سياسة، فنحن قادرون جميعاً على أن نحكم عليها. ونحن لا ننظر إلى المناقشة بوصفها حجر عثرة في طريق النشاط السياسي وإنما بوصفها إجراء تمهيدي لا غنى عنه للتصرف بحكمة . . . ونعتقد بأن السعادة إنما هي ثمرة الحرية، والحرية ثمرة الجسارة، وأما لا نجفل من أخطار الحرب . . . وبالاختصار، إنني أزعم أن أثينا هي مدرسة هيلاس، وأن الفرد الأثيني ينمو لتطوير حياة طليقة سعيدة، واستعداد للطوارئ، واعتماد على النفس.

هذه العبارات ليست تقريباً لأثينا، وإنما هي تعبير عن الروح الحقة للجيل العظيم. فهي تصوغ البرنامج السياسي لفرداني مساواتي عظيم، ولديموقراطي يفهم جيداً أن الديمقراطية لا تستغنى بالمبدأ الأجوف الذي يقرر أن "الحكم للشعب"، وإنما ينبغي أن تكون مستندة إلى الإيمان بالعقل، وبالإنسانية. وهي تعبير، في نفس الوقت، عن وطنية حقة، عن فخر حق بمدينة جعلت مهمتها الأولى أن تكون قدوة لغيرها، فأضحت مدرسة، ليس فقط لهيلاس وإنما، كما نعلم، للجنس البشري بأسره، لآلاف السنين الماضية، ولأخرى لم تأت بعد.

وحديث برقليس ليس برنامجاً فحسب، وإنما هو دفاع أيضاً، بل وربما يكون هجوماً. فلقد أوعز لي عند قراءته، كما لو كان هجوماً مباشراً على أفلاطون. ولم يداخلني شك في أنه كان موجهاً، ليس فقط ضد القبلية الإمبرطية المكبوتة، وإنما أيضاً ضد الطوق أو "الحلقة" المستبدة بالوطن، ضد الحركة التي تدعو إلى الدولة الأبوية "جمعية أصدقاء لاكونيا Laconia الأثينية" (كما أسماها جومبرز في العام 1902). . . وهذا الحديث يعد الأقدم، وربما في نفس الوقت الأقوى ضد هذا النوع من الحركة. . . ولقد شعر أفلاطون بأهميته، فصور مريثة برقليس بصورة

مضحكة بعد نصف قرن في فقرات الجمهورية التي يهاجم فيها الديمقراطية، وأيضاً في ذلك الحوار الذي يتناول موضوعاً جدياً في قالب هزلي بصورة سافرة، والمُسمى مينيكسينوس -ME- NEXENUS أو المراثية الجنائزية. بيد أن أصدقاء لاكوتيا الذين تعرّضوا لهجوم برقليس قد تأثروا لأنفسهم قبل أفلاطون بوقت طويل. فبعد مراثية برقليس بخمس أو ست سنوات فقط؛ نشرت كراسة عن دستور أثينا كتبها مؤلف غير معروف (ربما كان كريتياس)، تُسمى الآن عادة بـ "الأوليغاركي القديم". ويُعدُّ هذا العمل العبقري أهم عمل موجود في النظرية السياسية، وربما، في نفس الوقت، أقدم أثر عن تخلي القادة المثقفين عن البشرية. إنه هجوم بلا رحمة على أثينا، كتبه بلا شك أحد أفضل عقولها. وتدور الفكرة الرئيسية لهذا العمل، وهي الفكرة التي أضحت بنداً من بنود الإيمان عند ثيوسيديدس وأفلاطون، حول العلاقة الوثيقة بين الإمبريالية البحرية والديموقراطية. وهو يحاول أن يبين أنه لا يمكن أن يوجد حل وسط في صراع بين عالمين، عالم الديمقراطية وعالم الأوليغاركية؛ وأن استخدام العنف بلا رحمة، والتدابير الشمولية، بما في ذلك تدخُّل الحلفاء من الخارج (الإسبرطيين)، هو وحده، الكفيل بوضع نهاية لحكم الحرية الدنس. وكان من المقدر لهذا العمل المدهش أن يصبح الأول في متابعة لانهائية من الأعمال في الفلسفة السياسية، تلك الأعمال التي تردَّد نفس الكلام بشكل أو بآخر بصورة سافرة أو خفية حتى يومنا هذا. ولقد حاول بعض المتعلمين غير الراغبين والعاجزين عن معاونة البشرية في مسارها العسير نحو مستقبل مجهول عليهم أن يخلقوه بأنفسهم، أن يجعلوهم يعودون مرة أخرى إلى الماضي. ولعجزهم عن الاهتمام إلى سيل جديد، فكل ما أمكنهم عمله هو أن يجعلوا أنفسهم مادة لثورة دائمة ضد الحرية. كما أصبح أكثر إلحاحاً بالنسبة لهم أن يؤكِّدوا تفوقهم هذا بمحاورة المساواة. لأنهم كانوا (باستخدام لغة سقراط) كارهين للبشر وكارهين للمتطوِّعين وعاجزين عن تلك السماحة التي تشيع الإيمان في الإنسان، الإيمان في العقل الإنساني وفي الحرية. وعلى الرغم مما يظهر من قسوة هذا الحكم، فهو عادل إذا ما طبق على هؤلاء القادة المثقفين الثائرين على الحرية الذين أتوا بعد الجيل العظيم، وعلى وجه الخصوص بعد سقراط. وفي مقدورنا الآن أن نحاول رؤيتهم على خلفية تأويلنا التاريخاني.

ويمكن تفسير نشأة الفلسفة ذاتها، فيما اعتقد، كردُّ فعل لانتهيار المجتمع المغلَّق، ومعتقداته السحرية... وهي محاولة لإحلال الإيمان العقلي محلَّ الإيمان السحري المفقود، وهي تعدُّ تقليد انتقال النظرية الأسطورية عن طريق تأسيس تقليد جديد؛ تقليد النظريات والأساطير المحركة للفكر وتقليد مناقشتها بطريقة نقدية. (والنقطة الهامة هي أن هذه المحاولة تتزامن مع انتشار ما يُسمى بالفرق الأورفيوسية التي حاول أعضاؤها إحلال دين سحري محل الشعور المفقود بالوحدة.) ومن المحتمل أن الفلاسفة الأوائل، الأيونيين الثلاثة العظام وفيثاغورث، كانوا غافلين تماماً عن المحرِّك

الذي كانوا يستجيبون له كرد فعل . لقد كانوا في وقت واحد الممثلين والمعارضين بلا وعي للثورة الاجتماعية . وحقيقة أنهم أسسوا المدارس أو الشيع أو النظم ، أعني مؤسسات اجتماعية جديدة أو بالأحرى جماعات متعينة ذات حياة مشتركة ووظائف مشتركة ، ومشكلة في غالبيتها وفقاً للقيلة المثالية ، إنما تثبت أنهم كانوا مصلحين في المجال الاجتماعي ، وبالتالي كانوا يستجيبون لحاجات اجتماعية معينة . وأنه لمن الأمور غير المفهومة التي حدثت في بداية مدنيتنا أنهم استجابوا لهذه الاحتياجات وإحساسهم الخاص بالضياع . ليس بتقليد هزيود في اختراع أسطورة تاريخانية عن المصير والإنحلال ، ولكن بابتداع تقليد النقد والمناقشة ، ومعهم فن التفكير العقلاني ، وهي أحد الوقائع المتعذر تعليلها والتي تحتل موقعا في بداية حضارتنا . . ولكن حتى هؤلاء العقلانيين استجابوا لفقدان وحدة النظام القبلي بطريقة عاطفية إلى حد كبير . ويقدم تعليلهم تعبيراً عن مشاعرهم بالضياع ، ويتوتر التطور الذي كان على وشك ابتداع حضارتنا ذات التزعة الفردية .

ويعود أحد أقدم التعبيرات عن هذا التوتر إلى انكسمندر ، ثاني الفلاسفة الأيونيين . فقد بدأ الوجود الفردي له بمثابة اعتماد بالنفس ، بمثابة فعل غير ورع للجور ، بمثابة فعل خاطئ للإغتصاب ، ومن أجل ذلك يتعين على الأفراد أن يقاسوا ، وأن يكفروا عن خطيئتهم . وكان هيراقليطس هو أول من أصبح واعياً بالثورة الاجتماعية وبصراع الطبقات . ولقد وصفنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب كيفية عقلنة شعوره بالضياع بتطوير أول أيديولوجية معادية للديموقراطية ، وأول فلسفة تاريخانية للتغير والمصير . لقد كان هيراقليطس العدو الواعي الأول للمجتمع المفتوح .

وكان كل هؤلاء المفكرين الأوائل تقريباً يعملون في مناخ مأساوي يائس . وربما يكون الاستثناء الوحيد هو الموحد إكسيتوفان ، الذي حمل عبئه بشجاعة . ولا يمكننا أن نلومهم على عدائهم للتطورات الجديدة ، بالطريقة التي قد نلوم بها ، إلى حد ما ، خلفائهم . فالإيمان الجديد بالمجتمع المفتوح ، والإيمان بالإنسان ، وبالمساواة أمام العدالة ، وبالعقل الإنساني ؛ ربما كان بادئاً لتوه في التشكل ، ولكن لم يكن قد صيغ بعد .

5

أما الإسهام الأعظم الذي قدم لهذا الإيمان فقد كان من سقراط ، الذي مات من أجله . لم يكن سقراط قائداً للديموقراطية الأثينية ، مثل بركليس ، أو منظراً للمجتمع المفتوح ، مثل بروتاغوراس . وإنما كان بالأحرى ، متقدماً لأثينا ولؤوساتها الديموقراطية ، وربما يكون هذا قد حمل شياً سطحياً لبعض قادة المقاومة ضد المجتمع المفتوح . ولكن ليس ثمة حاجة لرجل يستقد النظام الديموقراطي والمؤسسات الديموقراطية أن يكون عدواً لها ، على الرغم من أن كلاً من الديموقراطيين الذين

يتقدمهم، والمستبدين الذين يأملون في الاستفادة من أي انقسام في المعسكر الديمقراطي، ميصمونه على الأرجح بهذه الوصمة. وثمة اختلاف أساسي بين نقد ديموقراطي وآخر استبدادي للديموقراطية. فانتقاد أرسطو كان ديموقراطياً وبالفعل من النوع الذي يعتبر الحيلة الحقة للديموقراطية. (فالديموقراطيون الذين لا يرون اختلافاً بين نقد ودي وآخر عدائي للديموقراطية، هم أنفسهم مشبعون بالروح الشمولية. وبالطبع، لا يمكن أن ينظر النظام الشمولي لأي نقد على أنه ودي، لأن كل نقد لسلطة مثل هذه يتعين أن يكون تحدياً لمبدأ السلطة ذاتها).

لقد أشرت فيما سبق إلى بعض أوجه تعاليم سقراط؛ مذهبه العقلي، أعني نظريته المساواتية للعقل الإنساني باعتباره وسيطاً عاماً للاتصال، وتشديده على الأمانة العقلية والنقد الذاتي، ونظريته في المساواة أمام العدالة، ومذهبه الذي يدعو فيه إلى أنه من الأفضل أن تكون ضحية للجور من أن تبغى به آخرين. واعتقد أن هذا المذهب الأخير هو الذي يمكن أن يساعدنا على فهم أفضل لجوهر تعاليمه، عقيدته في النزعة الفردية، واعتقاده في النزعة الإنسانية بوصفها غاية في ذاتها.

والمجتمع المغلق، ومعه عقيدته التي تدعو إلى أن القبيلة هي كل شيء، وأن الفرد لا شيء؛ قد اتهار. فلقد أضحت المبادئ الفردية والاعتداد بالنفس حقيقة. فلقد أوقف الاهتمام بالإنسان الفرد بوصفه فرداً، وليس بوصفه مجرد بطل أو متقذ قبلي. بيد أن الفلسفة التي تجعل من الإنسان محور اهتمامها بدأت فحسب مع بروتاغوراس. أما الاعتقاد بأنه لا يوجد شيء أكثر أهمية في حياتنا من الأفراد الآخرين، وحث الناس على أن يخدم كل منهم الآخر وأن يحترموا أنفسهم، فيبدو أنه يعود إلى سقراط.

ولقد شدد بيرنت Burnet على أن سقراط هو الذي ابتدع مفهوم النفس، وهو المفهوم الذي كان له مثل ذلك التأثير الكبير على حضارتنا. واعتقد أن ثمة الكثير في هذا الرأي، على الرغم من أنني أشعر أن صياغته قد تكون مضللة وعلى الأخص استخدامه للمصطلح "نفس"؛ لأنه يبدو أن سقراط قد ابتعد عن النظريات الميتافيزيقية بقدر استطاعته. فكانت مرافحته مرافعة أخلاقية، كما أن نظريته الفردية (أو نظرية "نفس" لو فضلنا هذا اللفظ) تعدُّ، فيما اعتقد، مذهباً أخلاقياً وليس ميتافيزيقياً. فبمساعدة هذا المذهب، كان يناضل، كما هو الحال دائماً، ضد الرضى عن النفس. وطالب بالألا تكون تلك الفردية مجرد إنهاء للنظام القبلي، وإنما أن يبرهن الفرد على استحقاقه لتحرره. وهذا هو السبب الذي جعله يشدد على أن الإنسان ليس مجرد قطعة من لحم أو جسد. وإنما يوجد في الإنسان ما هو أكثر؛ ومضة إلهية، وعقل، وحب للحقيقة، وفضل، وإنسانية، وحب للجمال، والصلاح. هذه هي التي تجعل حياة الإنسان جديرة بأن تُعاش. ولكن

لو لم أكن مجرد "جسد"، فماذا أكون إذن؟ كانت إجابة سقراط، إنك، أولاً وقبل كل شيء، عقل، فعقلك هو الذي يجعل منك إنساناً، وهو الذي يُمكّنك من أن تكون أكثر من مجرد حزمة من الرغبات والتعنيات؛ وهو الذي يجعلك شخصاً متمتعاً باكتفاء ذاتي، ويخوّل لك أن تزعم بأنك غاية في ذاتك. ومقولة سقراط: "اعتنوا بأنفسكم" تُعدُّ نداءً واسع النطاق للأمانة العقلية. تماماً كما أن مقولته "اعرف نفسك" التي يرددها، إنما تذكّرنا بحدودنا العقلية. . هذه هي، كما أصرَّ سقراط، الأشياء ذات الشأن. وما انتقده في النظام الديمقراطي كان إدراكهم غير السليم لهذه الأشياء. فانتقدهم بحق لاقتدارهم للأمانة العقلية، وللهاجس المسلط عليهم بسياسة القوة. ومع تأكيده على الجانب الإنساني للمشكلة السياسية، لم يستطع أن يولي اهتماماً كبيراً بالإصلاح المؤسسي. وإنما كان مهتماً بالمظهر المباشر، والشخصي للمجتمع المفتوح. وكان مخطئاً عندما اعتبر نفسه سياسياً؛ فقد كان معلماً.

ولكن لو كان سقراط، بصورة أساسية، هو النصير للمجتمع المفتوح، وصديق الديمقراطية، فقد نواجه سؤالاً، لماذا تورط مع المعادين للديموقراطية؟ إذ نعرف أن ألسيادس Alcibiades الذي انضمَّ لبعض الوقت إلى جانب إسبرطة، لم يكن رفيقه الوحيد، بل كان من بين رفقائه أيضاً اثنان من أعمام أفلاطون، كريتيس الذي أصبح فيما بعد القائد عديم الرحمة للطغاة الثلاثين، وشارميدس Charmides الذي أصبح نائبه. وثمة أكثر من إجابة عن هذا السؤال. لقد أخبرنا أفلاطون أولاً أن هجوم سقراط على السياسيين الديمقراطيين لعصره، قد شُنَّ جزئياً بفرض الكشف عن فضح الأنانية والرغبة الجامحة في السلطة للمتعلّقين المناققين للشعب، وبصفة خاصة أكثر، للأرستقراطيين الشبان الذين تظاهروا بأنهم ديمقراطيون، ولكن نظروا إلى الشعب بوصفه مجرد أداة لرغبتهم الجامحة في السلطة. فجعله هذا النشاط، من جهة، منجذباً، على الأقل، إلى بعض أعداء النظام الديمقراطي، وحمله، من جهة أخرى، إلى الاتصال بالأرستقراطيين الطامحين إلى ذلك النمط ذاته. ويدخل هنا اعتباران: فسقراط، الداعية الأخلاقي، الفردي، لم يهاجم هؤلاء الناس فقط، وإنما بالآخرى، يوليهم عناية حقّة، وهو لا يكاد يتخلّى عنهم دون بذل محاولة جادة لهدايتهم. وثمة العديد من الإشارات الضمنية لمثل هذه المحاولات في محاورات أفلاطون. ولدينا ما يدعو، وهنا اعتبار ثالث، للاعتقاد بأن سقراط السياسي المعلم، قد حادَّ حتى عن طريقه ليجذب إليه الشبان ويمارس تأثيره عليهم، خصوصاً عندما وجدهم منفتحين للهداية، واعتقد أنهم قد يحتلّون، ذات يوم، مواقع المسؤولية في مدينتهم. . والمثال البارز على ذلك، هو بالطبع، ألسيادس المختار منذ نعومة أظافره بوصفه القائد المقبل العظيم للامبراطورية الأثينية. كما أن تالق كريتياس، وطموحه وشجاعته جعله أحد المنافسين المحتملين للقتال لألسيادس. (ولقد تعاون مع السبياس لفترة من الزمن، ولكنه تحول فيما بعد إلى معارضته. وليس من غير المحتمل

على الإطلاق أن يكون التعاون المؤقت راجعاً إلى تأثير سقراط). ومن كل ما نعلم عن طموحات أفلاطون السابقة اللاحقة، يبدو أن علاقته مع سقراط كانت على الأرجح من نوع مماثل. فسقراط، على الرغم من أنه أحد الرواد الروحيين للمجتمع المفتوح، لم يكن رجلاً حزياً. لقد كان يمكنه العمل في أية دائرة حيث يكون لعمله نفع للمدينة... ولو أولى اهتماماً بشباب واعد، لما كانت تشبه صلاته العائلية الأوليباركية.

بيد أن هذه الصلات كانت سبباً في موته. فعندما خسرت الحرب الكبرى، اتهم سقراط بأنه علم الرجال الذين خانوا النظام الديمقراطي وتآمروا مع العدو بغرض إسقاط أثينا.

ويُرد في كثير من الأحيان تاريخ الحرب البيلوبونيسية وسقوط أثينا، تحت تأثير سطوة ثيوسيديدس، بطريقة توحي بأن هزيمة أثينا كانت بمثابة برهان قاطع على الضعف الأخلاقي للنظام الديمقراطي. بيد أن هذا الرأي مجرد تشويه مُغرض، إذ تخبرنا الوقائع المعروفة جيداً بقصة مختلفة تماماً. فالمسؤولية الرئيسية في خسارة الحرب إنما تقع على عاتق الأوليباركيين الحائنين الذين تعاونوا باستمرار مع إسبرطة. وكان من بين هؤلاء ثلاثة مريدين سابقين لسقراط، أليسيادس، وكريتياس، وشارميدس. وبعد سقوط أثينا في 404 ق. م. أصبح الإثنان الأخيران قاندين للطغاة الثلاثين، الذين لم يكونوا أكثر من حكومة من الدمى تحت الحماية الإسبرطية. ويُعرض في الغالب سقوط أثينا، وتحطّم الحواظ بأنه النتائج النهائية للحرب الكبرى التي بدأت في 431 ق. م. ولكن يوجد في هذا العرض تحريف رئيسي، كانوا سبعين مقاتلاً فقط في بداية الأمر وأعدوا تحت إمرة ترازيبولوس Thrasybulus وأنيطوس Anytus خطة تحرير أثينا، حيث كان كريتياس في تلك الأثناء يقتل عدداً لا حصر له من المواطنين، وخلال الثمانية أشهر من حكمه المرعب كانت قائمة القتلى تحتوي على عدد من الأثينيين يفوق الذين قتلهم البيلوبونيزيون خلال السنوات العشر الأخيرة من الحرب. ولكن بعد ثمانية أشهر (في 403 ق. م.) هوجم كريتياس والحرس الإسبرطي وهُزموا من قبل الديمقراطيين الذين ثبتوا أنفسهم في بيرايوس، وفقد كل من عمي أفلاطون حياته في المعركة. ولقد واصل أتباعهم الأوليباركيون لفترة من الزمن حكم الرعب في مدينة أثينا ذاتها، بيد أن قواتهم كانت في حالة من الفوضى والتفكك. ولأنهم برهنوا على عدم قدرتهم على الحكم، فقد تخلّى عنهم نهائياً حمايتهم الإسبرطيون، وأبرموا معاهدة مع الديمقراطيين... ولقد أعاد السلم توطيد الديمقراطية في أثينا. وهكذا فقد برهن الأسلوب الديمقراطي للحكم على قوته الفاتكة تحت أقسى أنواع المحن، بل وبدأ أعداؤه يعتقدون أنه لا يُقهر... (وبعد ذلك بتسع سنوات، بعد معركة كينلوس، استطاع الأثينيون أن يعيدوا من جديد بناء حوائطهم... فقد تحولت هزيمة النظام الديمقراطي إلى نصر).

وحالما استطاع النظام الديموقراطي المظفر أن يعيد ترتيب أوضاعه القانونية العادية، وجه اتهاماً إلى سقراط. وكان معناه واضحاً كل الوضوح، فقد اتُّهم بإشرافه على تعليم معظم أعداء الدولة الأشرار، ألسيديدس، وكريتياس، وشارميدس. ولقد حدثت بعض الصعوبات للمُدَّعي سببها إصدار عقو عام عن كل الجرائم السياسية المقترفة قبل إعادة استقرار النظام الديموقراطي، لذلك لم يستطع الاتهام أن يشير بوضوح إلى هذه القضايا رديئة السمعة. وربما لم يسع المدَّعون كثيراً إلى معاقبة سقراط على الأحداث السياسية المشؤومة الماضية، والتي كانوا يعلمون جيداً أنها قد حدثت ضد نوابه، وكان هدفهم، بالأحرى، مواصلة تعاليمه التي بسبب تأثيرها، لم يكن في إمكانهم أن ينظروا إليها بوصفها مصدر خطر على الدولة. ولهذه الأسباب جميعاً، وجه الاتهام في صورة غامضة، لا معنى لها بأن سقراط كان مفسداً للشباب، و(أنه كان غير ورع، وبأنه قد حاول أن يُدخل ممارسات دينية جديدة في الدولة. ولقد عبَّرت التهمتان الأخيرتان، بلا ريب، ولكن بطريقة سمجة، عن الشعور بأنه في المجال الأخلاقي - الديني كان ثورياً). ويسبب العقو العام، فإن الشباب المُفسد لم يكن من الممكن أن يشار إليه باسمه وبدقة أكثر، ولكن كان كل شخص يعلم، بالطبع، مَنْ كان المقصود بذلك. وأصرَّ سقراط، في دفاعه، على أنه لم يكن لديه تعاطف مع سياسة الثلاثين، وبأنه قد خاطر بحياته بالفعل بمقاومة محاولتهم أن يورطوه في أحد جرائمهم. وذكر المُحلفين بأنه من ضمن أقرب رفاقه وأكثر مريديه تحملاً كان ثمة واحد على الأقل ديموقراطي غير، إنه كيرفون Chaerphone، الذي ناضل ضد الثلاثين (والذي، فيما يبدو، قتل في المعركة).

ومن المسلّم به الآن في أغلب الأحوال أن أنتيوس، القائد الديموقراطي الذي أعاد المحاكمة، لم يكن ينوي أن يجعل من سقراط شهيداً. وإنما كان هدفه هو نفيه. ولكن لم يُقدَّر لهذه الخطة أن تنجح بسبب رفض سقراط القبول بتسوية مذلة فيما يتعلق بمبادئه. أما أنه أراد أن يموت، أو أنه استعراً أن يلعب دور الشهيد، فإنني لا أعتقد بذلك. فقد ناضل بباطة من أجل ما اعتقد أنه صواب، ومن أجل المهمة التي نذر لها حياته. فلم يكن في نيته على الإطلاق أن يقوِّض النظام الديموقراطي. وإنما حاول، في الحقيقة، أن يمنحه الإيمان الذي افتقده. لقد كانت هذه المهمة هي التي نذر لها حياته. لقد شعر بأن مهمته كانت مهددة بصورة خطيرة. فقد أدَّت خيانة رفاقه السابقين إلى إظهاره شخصياً في صورة لابد وأنها أزعجته بشدة؛ بل من المحتمل أن يكون قد رَحَّبَ بالمحاكمة باعتبارها فرصة لإثبات أن ولاءه لمدينته بلا حدود.

ولقد شرح سقراط هذا الاتجاه بدقة أكثر عندما منحت له فرصة للهروب. ولو كان قد استغلَّها وأصبح منفياً لاعتقد كل شخص بأنه مناوئ للنظام الديموقراطي. ولذلك فقد بقي وشرح أسباب بقاءه. ويمكن أن نعثر على هذا الشرح، وصيته الأخيرة، في محاوره كريتو لأقلاطون، وهي

بسيطة؛ إذ قال سقراط: "لو أنني قد مضيت، لكنت خالفت قوانين الدولة، وتصرفٌ مثل هذا سوف يضعني في موقف المعارض للقوانين، ويبرهن على عدم ولائي. وسوف يلحق الأذى بالدولة. ولكنني لو مكثت لأمكنني أن أبعد الشك عن ولائي للدولة، ولقوانينها الديمقراطية، وأبرهن على أنني لم أكن أبداً من أعدائها. ولا يمكن أن يكون ثمة برهان على ولائي أفضل من رغبتني في أن أموت من أجله".

وموت سقراط إنما هو برهان قاطع على إخلاصه. إذ لم تفارقه أبداً جسامته، وبساطته، وتواضعه، وإحساسه بالاتساق مع نفسه، وشأسته. إذ قال في محاوراة الاعتذار: "ها أنا الحشرة* التي ألحقها الله بهذه المدينة. وعلى مدار اليوم، وفي كل الأمكنة، فأنا دائماً مربوط بك، أثيرك، وأفتحك، وأعاتبك. ولن تجد بسهولة شخصاً آخر مثلي... ولذلك فإنني أنصحك بالإبقاء عليّ... فإذا ألحقت بي الأذى، كما ينصحك أثينوس، وسقتني بتهور إلى الموت، فحيث ستظلون نائمون ببقية حياتكم، إذا لم يرسل الله بعنايته حشرة أخرى". ولقد بين أن الإنسان في مقدوره أن يموت، ليس فحسب من أجل المصير أو السمعة أو أشياء أخرى عظيمة من هذا القيل ؛ وإنما أيضاً من أجل حرية التفكير النقدي، ومن أجل احترام الذات التي ليس لها علاقة بالاعتداد بالنفس أو بالانسياق مع العاطفة.

6

لم يتبق لسقراط سوى خليفة واحد جدير بالاعتبار، صديقه القديم أنتستين، آخر الجيل العظيم. أما أفلاطون، تلميذه الأكثر موهبة، فسرعان ما برهن على أنه الأقل إخلاصاً. فقد خان سقراط مثلاً فعل عماء. وقد حاول هؤلاء أيضاً، فضلاً عن خيانة سقراط، أن يورطوه في أعمالهم الإرهابية، بيد أنهم لم ينجحوا، لأنه قاومهم... كما حاول أفلاطون أن يورط سقراط في محاولته الفخيمة لبناء نظرية المجتمع المكبوح؛ ولم يواجه صعوبة في المضي قدماً في ذلك لأن سقراط كان في عداد الموتى.

وأعلم بالطبع أن هذا الحكم سيبدو شديد القسوة، حتى بالنسبة لأولئك الذين يكيلون لأفلاطون انتقاداتهم. بيد أننا لو اطلعنا على محاوراة الاعتذار، وكريتون على اعتبار أنهما يحتويان على وصية سقراط الأخيرة، ولو قارنا وصايا شيخوخته هذه مع وصية أفلاطون "القوانين" حيث سيكون من الصعوبة أن نحكم بغير ذلك. فلقد حكم على سقراط، بيد أن المبادرين بمحاكمته لم

* وهي في الأصل gadfly وتعني ذبابة الماشية. (المترجم)

يكن في نيتهم إعدامه. ويعالج كتاب القوتين لأفلاطون الاقتدار إلى هذه النية. وهو يطور هنا بيروود وعناية نظرية التحقيق القضائي. فالفكر الحر، وتقد المؤسسات السياسية، وتعليم أفكار جديدة للشبان، ومحاولات إدخال ممارسات دينية جديدة، أو حتى آراء، إنما هي جميعاً جرائم عقوبتها الموت. وفي مدينة أفلاطون، لم تكن فرصة سقراط للدفاع عن نفسه علانية متاحة، وإلا لكان بالتأكيد قد سلّم إلى المجلس الليلي السري للاعتناء بروحه العلية، ولعاقبه في النهاية.

ولا يمكنني أن أشك في حقيقة خيانة أفلاطون، ولا في أن استخدامه لسقراط كمتحدث رئيسي في الجمهورية كان المحاولة الأكثر نجاحاً لتوريطه. ولكن ثمة سؤال آخر عما إذا كانت هذه المحاولة واعية.

ولكني نفهم أفلاطون يتعين علينا أن نتصور كل الموقف المعاصر. فبعد الحرب اليلويونيزية، كان الشعور بتوتر الحصار قوياً أكثر من أي وقت مضى. وكانت آمال الأوليجاركيين لا تزال حية، بل وقد أفضت هزيمة أثينا إلى تشجيعهم، واستمر الصراع الطبقي؛ ومع ذلك فإن محاولة كريتاس تحطيم النظام الديمقراطي بتنفيذ البرنامج الأوليجاركي القديم قد أخفقت. وهو لم يخفق بسبب الاقتدار إلى التصميم، فالاستخدام الأكثر قسوة للعنف كان قد باء بالفشل، على الرغم من الظروف المواتية في صورة الدعم القوي من إسبرطة الطافرة. وشعر أفلاطون بأن ثمة حاجة إلى إعادة البناء الكامل للبرنامج. ولقد كان الثلاثون مهزومين في نطاق السياسة القوية إلى حد كبير، بسبب إهانتهم لإحساس المواطنين بالعدالة. ولقد برهن إيمان الجيل العظيم على قوته، ولم يكن لدى الثلاثين شيئاً من هذا القليل لتقدمه، فقد كانوا عديمين من الوجهة الأخلاقية. وشعر أفلاطون بأن البرنامج الأوليجاركي القديم لم يكن من الممكن إحيائه دون استناده إلى إيمان آخر، إلى القدرة على الاقتناع بإعادة تأكيد قيم النظام القبلي القديم، بمواجهتها للإيمان بالمجتمع المفتوح. يتعين تعليم الناس أن العدالة هي عدم المساواة، وأن القبيلة الجماعة، في وضع أسوأ من الفرد. ولكن لأن إيمان سقراط كان من القوة بحيث لا يمكن تحديه بصراحة، فقد أثر أفلاطون أن يعيد تأويله بوصفه إيماناً بالمجتمع المغلق. كان هذا صعباً، ولكنه لم يكن مستحيلاً. أفلم يقتل سقراط بالديموقراطية؟ وأفلم تفقد الديموقراطية أي حق لها في إنقاذه؟ وأفلم يتقد سقراط دائماً الدعاة النكرة وقادتها بالمثل لافتقارهم إلى الحكمة؟ ولم يكن صعباً للغاية فضلاً عن ذلك إعادة تأويل سقراط بأنه قد أوصى بحكم الفلاسفة "المتعلمين"، وبما شجّع أفلاطون كثيراً على هذا التأويل اكتشافه أن ذلك كان أيضاً جزءاً من العقيدة الفيثاغورية القديمة، وعندما اكتشف، فوق كل ذلك، في أرخيتاس التارنتومي، حكيماً فيثاغوريان بالاضافة إلى رجل دولة عظيم وناجح. وشعر بأن هنا يكمن حل اللغز. أفلم يكن سقراط نفسه يشجّع مريدبه على المشاركة في السياسة؟ وأفلم يكن ذلك يعني رغبته في أن يحكم المستير والحكيم؟ فأي اختلاف بين فجاجة حكم الرعاع في أثينا،

وبين جلال أرخيتاس! ولا بد لسقراط، الذي لم يذكر أبداً حله للمشكلة المؤسسية، أن يكون قد فكر في الفيثاغورية.

وبهذه الطريقة ربما يكون أفلاطون قد اكتشف إمكانية تقديم معنى جديد بالتدرج لتعليم أكثر أعضاء الجيل العظيم تأثيراً، وأن يُقنع نفسه بأن غريمه، الذي لم يكن أفلاطون ليجرؤ على مهاجمة قوته المتفوقة مباشرة، إنما هو حليف. وهذا هو، فيما أعتقد، أبسط تفسير لحقيقة إبقاء أفلاطون على سقراط كمحدثه الرئيسي حتى بعد انحرافه بشدة عن تعاليمه بحيث لم يعد من الممكن أكثر من ذلك أن يخدع نفسه بشأن هذا الانحراف. بيد أن ذلك لا يمثل القصة الكاملة. فقد شعر، فيما أعتقد، في قرارة نفسه، بأن تعاليم سقراط كانت تختلف تماماً في الواقع عن هذا التقديم، وأنه كان خائناً لسقراط. وأعتقد أن جهود أفلاطون المتواصلة لجعل سقراط يعيد تأويل نفسه إنما هي في نفس الوقت جهود أفلاطون لتهذبة ضميره السيء. وبمحاولته المرة تلو الأخرى البرهان على أن تعاليمه تمثل التطور المنطقي الوحيد للمذهب السقراطي الحق، فإنه حاول إقناع نفسه بأنه لم يكن خائناً.

وأشعر عند قراءة أفلاطون أننا أمام تناقض داخلي وصراع هائل حقاً في عقل أفلاطون. فحتى تحفظه الشهير شديد الحساسية، وهو قمع شخصيته الذاتية، أو بالأحرى محاولة القمع هذه - إذ ليس من الصعب قراءته بين السطور - إنما هو تعبير عن هذا الصراع. وأعتقد أنه يمكن جزئياً تفسير تأثير أفلاطون الافتتان بهذا التناقض بين عالمين في نفس واحدة، وهو صراع يمكن الاحساس بأصدائه القوية على أفلاطون تحت تحفظ شديد الحساسية. ويمسُّ هذا الصراع مشاعرنا لأنه لا يزال مستمراً داخل أنفسنا. كان أفلاطون طفل عصر لا يزال عصرنا. (فلا يجب أن تنسى أنه، برغم كل شيء، لم يمض سوى قرن واحد على إلغاء العبودية في الولايات المتحدة، بل وأقل من ذلك على إلغاء القناتة في وسط أوروبا). ولن يكشف هذا الصراع الداخلي عن نفسه في أي مكان آخر بوضوح أكثر مما في نظرية النفس عند أفلاطون. وحقيقة أن أفلاطون، بحنيته للوحدة والتوافق، تصور بنية النفس الإنسانية بوصفها عمالة لبنية مجتمع منقسم طبقياً، إنما يبين كم كان يقاسي بعمق.

وينشأ صراع أفلاطون الأعظم من الانطباع العميق الذي أحدثه فيه مثال سقراط، بيد أن ميوله الأوليغارشية الخاصة تجاهد بنجاح متقطع النظرير ضده. ففي مجال الحجة العقلية يُدَار الصراع باستخدام حجة إنسانية سقراط ضد نفسها. ويمكن أن نكتشف في يوثيفرو ما يبدو أنه أول مثال من هذا النوع. إذ يؤكد أفلاطون لنفسه: "إنني لن أكون مثل يوثيفرو؛ ولن آخذ على عاتقي أبداً اتهام أبي وأسلافي المبجلين، بأنهم ارتكبوا إثماً ضد قانون وضد مبدأ أخلاقي إنساني على مستوى

التقوى الشائعة. وحتى لو قتلوا نفساً إنسانية، فهم لم يأخذوا في النهاية إلا حياة أقتانهم، الذين هم ليسوا أفضل من المجرمين، وليس من مهمتي أن أحكم عليهم". أقلم بين سقراط كم كان من الصعب معرفة ماهو الصواب وما هو الخطأ، من هو التقى ومن هو غير التقى؟ وأقلم يحاكم هو نفسه على العقوق من قبل هؤلاء الذين يسمون بالإنسائين". ويمكن على ما أعتقد العثور على آثار أخرى لتزاع أفلاطون في كل مكان تقريباً يهاجم فيه الأفكار الإنسانية، وعلى وجه الخصوص في الجمهورية. إذ أن مراوغته ولجوءه إلى الازدراء في مقاومة النظرية المساواتية للعدالة، ومقدمته المترددة في الدفاع عن الكذب، وفي التقديم للعنصرية، وفي تعريفه للعدالة، كل ذلك سبق الإشارة إليه في فصول سابقة. ولكن ربما يمكننا أن نعثر على أوضح تعبير عن النزاع في محاوره مينكينوس، هذا الرد الساخر على خطبة برقليس الجنائزية. وأشعر هنا، أن أفلاطون ينحي نفسه بعيداً. فعلى الرغم من محاولته إخفاء مشاعره خلف السخرية والازدراء، فلم يستطع إلا أن يبين كم كان متأثراً بعمق بمشاعر برقليس. وهذه هي الكيفية التي يجعل بها أفلاطون "سقراطه" يصف بخبث الانطباع الذي أحدثه عليه برقليس: "ويلازمني شعور بالجفل لأكثر من ثلاثة أيام، ولم أتمكن من العودة إلى مشاعري وإلى معرفة أين أنا إلا في اليوم الرابع أو الخامس ويصعبوبة". فمن ذا الذي يشك في أن أفلاطون يكشف هنا عن مدى جدية تأثره بعقيدة المجتمع المفتوح، ومدى صعوبة الصراح للعودة إلى أحاسيسه وإلى معرفة أين هو في معسكر الأعداء على وجه التحديد.

7

كانت الحجة الأقوى لأفلاطون في هذا الصراع مخصصة على ما أعتقد؛ فقد حاول أن يبرهن على أنه وفقاً للعقيدة الإنسانية: "سنكون مستعدين لتجربة جيراننا. فالتاس تحتاج إلى النجدة يشلة، إنهم غير سعداء، ويعملون تحت توتر عتيف، وشعور بالتيه. وعندما يكون كل شيء في تدفق، فلا يوجد يقين، ولا أمان في الحياة، وإني لعللى استعداد لمساعدتهم؛ بيد أنني لا أستطيع أن أجعلهم سعداء بدون المضي نحو جذر الشر".

ولقد عثر على جذر الشر. إنه "سقوط الإنسان"، انهيار المجتمع المغلق. ولقد أقتعه هذا الكشف بأن الأوليجاركي القديم وأتباعه كانوا على صواب تماماً في تفضيلهم إسبرطة على أثينا، وفي تقليدهم برنامج كبج التغير الإسبرطي. بيد أنهم لم يعضوا بعيداً بلرجة كافية، ولم يكن تحليلهم محققاً بعمق كاف. فلم يكونوا مدركين، أو لم يهتموا، بحقيقة أن حتى إسبرطة كان يبدو عليها علامات الاضمحلال، على الرغم من أن جهدها البطولي في كبج كل تغير، وأن حتى

إسبرطة ذاتها كانت مترددة في محاولتها تربية النسل من أجل استبعاد أسباب السقوط و"التغيرات" و "عدم الانتظام" في عدد الجنس الحاكم وفي نوعيته. وقد اعتقد أيضاً الأوليجاركي القديم وأتباعه، بسطحيته، أنه بمساعدة نظام من الطغاة، مثل الطغاة الثلاثين، سيكون في مقدورهم أن يستعيدوا الأيام الخوالي الحيرة، لكن أفلاطون كان يعرف ماهو أفضل. فقد رأى عالم الاجتماع العظيم بوضوح أن نُظُم هؤلاء الطغاة كانت مدعومة بالروح الثورية الحديثة، وكانت تدعم هذه الروح بدورها، وأنهم كانوا مضطرين إلى تقديم تنازلات لرغبات الشعب الملحة في المساواة ولرغبات المساواتية الملحة للشعب؛ وأنهم قد لعبوا في الواقع دوراً مهماً في انهيار القبلية. لقد كان أفلاطون يكره حكم الطغيان، ومثل هذا الكره هو فقط القادر على رؤية مثل هذه الدقة في وصفه الشهير للطاغية. ولا يمكن إلاً لعدو حقيقي للطغيان أن يقول إنَّ الطغاة يجب أن يشعلوا حرباً تلو أخرى لكي يجعلوا الناس يشعرون بالحاجة إلى لواء قائد عسكري، وإلى مُنقذٍ من الخطر الداهم. وأصرَّ أفلاطون على أن الطغيان لم يكن هو الحل، ولا حتى أي من الأوليجاركيين السائدين، وإنما يتعين أن تكون الغاية هي العودة الكاملة إلى الطبيعة، إلى تنظيف كامل للقماش.

والفرق بين نظرية أفلاطون من جهة، ونظرية الأوليجاركي القديم والثلاثين الطغاة من جهة أخرى، إنما هو ناشئ عن تأثير الجيل العظيم. . . فكانت النزعة الفردية، والنزعة المساواتية، والإيمان بالعقل، وحب الحرية، كلها جديدة وقوية، وتعتبر من وجهة نظر أعداء المجتمع المفتوح مشاعر خطيرة يتعين محاربتها. ولقد شعر أفلاطون نفسه بتأثيرها، فحاربها، فيما بينه وبين نفسه. وكان رده على الجيل العظيم، جهداً عظيماً بحق. كان جهداً موجَّهاً لإغلاق الباب الذي كان قد قُفِّحَ، ولكبح المجتمع عن طريق إلقاء لعنة فلسفة ساحرة عليه، لا مثيل لها في العمق والثراء. أما في الحقل السياسي فقد أضاف القليل إلى البرنامج الأوليجاركي القديم الذي كان برقليس قد عارضه من قبل. بيد أنه اكتشف، ربما بدون وعي، السر العظيم للثورة ضد الحرية، ذلك السر الذي صاغه باريتو في عصرنا هذا على النحو التالي: "أن تستفيد من المشاعر مع عدم تبديد طاقتها في مجهودات لا طائل منها لتدميرها". وبدلاً من إظهار عدائه للعقل، سَحَرَ جميع المثقفين بألمعيته، متملقاً ومشيراً إليهم بمطلبه بأن المتعلم يجب أن يحكم. وعلى الرغم من جداله ضد العدالة فقد أقنع جميع الناس الصالحين بأنه كان المدافع عنها. ولم يعترف حتى لنفسه بأنه كان يقاوم بعنف حرية الفكر التي من أجلها لقي سقراط حتفه؛ ويجعل سقراط بطله يُقنع كل الآخرين بأنه كان المقاتل من أجلها. وهكذا أضحي أفلاطون، بلا وعي، رائداً للعديد من الدعاة، الذين طُوروا بحسن نية في أغلب الأحوال، تقنية الإلتجاء إلى المشاعر الأخلاقية والإنسانية، لأغراض لإنسانية ولا أخلاقية. وأحدث التأثير المدهش إلى حد ما لإقناع حتى الإنسانين العظماء بلا أخلاقية وأنانية عقيدتهم. ولا يداخلني شك في أنه نجح في إقناع نفسه. فقد غير المظهر الخارجي لبغضه للمبادأة

الفردية، ولرغبته في كبح كل تغيير، إلى حب للعدالة والاعتدال، ولدولة سماوية يحظى كل شخص فيها برضى وسعادة، وتحل فيها قوانين السماحة والأخوة محل فجاجة اغتصاب المال. هذا الحلم عن الوحدة والجمال والكمال، هذه التزعة الجمالية، والقدسية، والجمعية، إنما هي نتاج لفقدان الروح الجماعية للقبيلة ورمز له. إنها تعبير عن مشاعر أولئك الذين يعانون من توتر المدينة، التماس متقد لهذه المشاعر. (وهو جزء من التوتر الذي نصبح فيه مدركين بألم متزايد أكثر فأكثر للنواقص الضخمة في حياتنا، للنقص الشخصي والمؤسسي معاً، لمعاناة يمكن تجنبها، لضياح وشاعة غير ضرورية، وفي نفس الوقت حقيقة أنه ليس من المستحيل لنا أن تفعل شيئاً ما حيال كل هذا، ولكن بقدر صعوبة إنجاز مثل تلك التحسينات، بقدر ما هي مهمة، ويزيد هذا من توتر المسؤولية الفردية، ومن حمل صليب الكائن الإنساني).

8

لقد رفض سقراط أن يعرض بأمانيه الشخصية.. أما أفلاطون، فمع كل قماشه النظيف الذي لا تشوبه شائبة، فقد كان مُساقاً إلى طريق عرض فيه أمانيه للخطر في كل خطوة. فقد كان مجبراً على مقاومة الفكر الحر، ومتابعة الحقيقة.. فكان مُساقاً للدفاع عن الكذب والأعاجيب السياسية، والخرافة التحريمية، وطمس الحقيقة، وأخيراً، العنف الوحشي. وعلى الرغم من تحذير سقراط من بغض البشر، ومن كراهة الفكر، فقد كان مُساقاً إلى عدم الثقة في الإنسان، وإلى الخوف من الحجة. وعلى الرغم من كراهيته الخاصة لحكم الطغيان، فقد كان مُساقاً إلى التطلع نحو الطاغية طالباً للمساعدة، والدفاع عن أكثر الإجراءات طغياناً. وبالمنطق الداخلي لهدفه المعادي للإنسانية، وبالمنطق الداخلي للقوة، كان مُساقاً يدور أن يدري إلى نفس النقطة التي كان قد اقتيد إليها الطغاة الثلاثون من قبل، والتي وصل إليها، فيما بعد، صديقه ديو Dio، وآخرون من بين أتباعه الطغاة العديدين.. ولم يفلح في كبح التغيير الاجتماعي. (ولكنه لم يكبح إلا بعد ذلك بكثير، في عصور الظلام، بواسطة اللغة السحرية للجوهريّة الأفلاطونية - الأرسطية). ونجح، عوضاً عن ذلك، في ربط نفسه، وبمحض إرادته بالقوى التي كان ذات يوم يناصبها العداء..

وهكذا فإن الدرس الذي يجب أن نتعلّمه من أفلاطون هو تماماً عكس ما يحاول أن يعلمنا إياه. إنه درس لا يجب أن يُنسى. وعلى الرغم من جودة التشخيص الاجتماعي عند أفلاطون، فإن تطوره أثبت أن العلاج الذي أوصى به أسوأ من الشر الذي أراد محاربته. فليس العلاج هو كبح التغيير السياسي، إذ لا يمكنه أن يجلب السعادة. فلا يمكننا أن نعود أبداً إلى البراءة والجمال

المزعومين للمجتمع المغلق. ولا يمكن أن يتحقق حلمنا السماوي على الأرض. فإذا كنا ذات مرة شرعنا في الركون إلى عقلنا وامتنعنا بقوانا النقدية، وإذا كنا ذات مرة أحسننا بالمسؤوليات الشخصية، ومعها مسؤولية المساهمة في تقدم المعرفة، فلا يمكننا أن نعود إلى دولة الإذعان الضمني للسكر القبلي. لأن أولئك الذين قد اقتاتوا من شجرة المعرفة، فقدوا الجنة. وكلما حاولنا أكثر العودة إلى العصر البطولي للنظام القبلي، وصلنا بتأكيد أكثر إلى منحاكم القبيش، وإلى البوليس السري، وإلى العصابات الإجرامية المغلفة بالرومانسية. وإذا ما بدأنا بطمس العقل والحقيقة، فلا بد أن ننتهي بتحطيم أكثر وحشية وعنف لكل ماهو إنساني. فلن يكون ثمة عودة إلى دولة الطبيعة المنسجمة. وإذا استدركنا، فلا بد أن تقطع الطريق كله، أي لا بد أن نعود إلى الطبيعة البهيمية.

وهي مآلة علينا أن نواجهها بصراحة، على الرغم من أن ذلك قد يكون صعباً للغاية. وإذا ما حلمنا بالعودة إلى طفولتنا، وإذا ما أغوانا الاعتماد على الآخرين كي نكون سعداء، وإذا ما قصرنا في مهمة حمل صليبنا، صليب الإنسانية والعقل والمسؤولية، وإذا ما خائتنا الشجاعة وجفطنا من الشدة، حيثذ فلنحاول أن نقوي أنفسنا بفهم واضح للقرار البسيط الذي يواجهنا. ويمكننا أن نعود إلى الطبيعة البهيمية. ولكن إذا رغبنا في أن نظل بشراً، فليس أمامنا إلا طريقاً واحداً، ألا وهو الطريق إلى المجتمع المفتوح. ويتعين أن نتأبر في المجهول، واللايقيني، وغير الآمن، مستعينين بما قد يخططه لنا العقل بقدر إمكاننا من أجل الأمان والحرية معاً.

المحتويات

5	مقدمة الطبعة الأولى
7	مقدمة الطبعة الثانية
9	مدخل

أسطورة المنشأ

17	الفصل الأول: التاريخانية وأسطورة المصير
21	الفصل الثاني: هيراقليطس
29	الفصل الثالث: نظرية أفلاطون في الصور أو المثل

علم الاجتماع الوصفي عند أفلاطون

45	الفصل الرابع: التغير والسكون
65	الفصل الخامس: الطبيعة والعرف
91	الفصل السادس: العدل الشمولي
123	الفصل السابع: مبدأ القيادة
141	الفصل الثامن: الملك الفيلسوف
159	الفصل التاسع: الجمالية والكمالية واليوتوبية

خلفية الهجوم على أفلاطون

169	الفصل العاشر: المجتمع المفتوح وأعدائه
-----	---------------------------------------

حدّس هذا النصّ وأفكاره الرئيسية، بل وصياغته أيضاً، تمتّ في الفترة التي بدأ فيها إيقاع طبول الحرب العالمية الثانية بالارتفاع ممهداً لمذابح جماعية لم يشهد التاريخ البشري لها مثيلاً، سواء في مستوى شموليتها أو ضراوتها ووحشيتها وإهدارها لكل قيم الحضارة والعقل والكرامة والمساواة والحرية.

وأمّام هول الأحداث وانفلاتها من كلّ عقاب، كان لابدّ لعقل الفيلسوف أن يُثير التساؤلات الأكثر جذرية طارحاً إيّاها في مواجهة تاريخ الثقافة الغربية ومساوئها ومحطّاتها وتشكيلاتها الأيديولوجية الكبرى.

وستكشف المراجعة التي قام بها كارل بوبر للثقافة الغربية عن أن دوافع هدم الحضارة - بما هي نزوعٌ إلى تحقيق ما هو إنساني ومعقول، وماتضمنته من تعميم للحرية والمساواة - ماثلةٌ في الجذور العميقة لتلك الثقافة بدءاً من أفلاطون المكرّس بوصفه «الفيلسوف المقدّس» وصولاً إلى أولئك الذين أشعلوا فتيل الحرب، مروراً بماركس وأضرابه من أصحاب الفلسفات الشمولية المغلقة.

ويخلص بوبر إلى أنه إذا كان حقّاً أن «السلطة مفسّدة»، ومن ثمّ فالسلطة المطلقة مفسّدة مطلقاً وفقاً لعبارة السلورد آتون الشهيرة؛ فإنّ الديمقراطية - التي تقتضي المجتمع المفتوح لقيامها - هي النظام السياسي الوحيد الذي يُتيح للإنسان استخدام العقل في مجال السياسة دون الاضطرار إلى تخويل السياسي (الفرّ، الحزب أو آلة الدولة) صلاحيات مطلقة - لا تقلّ عن صلاحيات إله - في تشييد المجتمع أو بنائه وفقاً لنماذج أو مثّلٍ مفارقة له.